جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
الجامعة المستنصرية
كلية الآداب
قسم اللغة العربية

المقابسات لأبي حيان التوحيدي
دراسة في لسانيات النص

أطروحة تقدَّم بها الطالب

أحمد هادي شمام

إلى مجلس كلية الآداب في الجامعة المستنصرية
وهي جزءٌ من متطلباتِ نيل شهادة دكتوراه فلسفة في اللغةِ العربيَّةِ وآدابِها
إشراف

أ. م. د . محمَّد سامي أحمد

رجب ١٤٣٥هـ أيار ٢٠١٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾

النحل: ١٠٣

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	أ – ث
التمهيد: أبو حيان التوحيدي، ولسانيات النص	١ – ٢١
أولاً: أبو حيان التوحيدي:	٢ – ١٣
اسمه، ونسبه، ومولده	٢ – ٣
شيوخه	٣
تلامذته	٣ – ٤
مؤلفاته	٤ – ٦
المقابسة في اللغة، والإصطلاح	٦ – ٧
أسلوب التوحيدي في كتاباته	٨
أسلوب التوحيدي في المقابسات	٩ – ١٣
ثانياً: لسانيات النّصّ	١٤ – ٢١
الفصل الأول: السبك	٢٢ – ٧٠

التكرار	٢٤ – ٣١
التحديد	٣٢ – ٣٦
الإحالة	٣٧ – ٥١
الحذف	٥٢ – ٦٣
الربط	٦٤ – ٧٠
الفصل الثاني: الالتحام	٧١ – ٩٨
علاقات الالتحام	٧٨ – ٩٨
الإضافة	٧٨ – ٨١
السبب والنتيجة	٨١ – ٨٤
السؤال والجواب	٨٥ – ٨٧
الشرط	٨٧ – ٨٨
الإجمال والتفصيل	٨٩ – ٩٢
البديل	٩٢ – ٩٣
التقابل	٩٣ – ٩٤
التمثيل	٩٥ – ٩٨
الفصل الثالث: القصد	٩٩ – ١١٠

القصد من منظور لسانيات النص	١٠٠ – ١٠٦
القصد في المقابسات	١٠٧ – ١١٠
الفصل الرابع: القبول	١١١ – ١٢٥
القبول من منظور لسانيات النص	١١٢ – ١١٩
القبول في المقابسات	١١٩ – ١٢٥
الفصل الخامس: السياق	١٢٦ – ١٤٧
السياق في اللغة، والإصطلاح	١٢٨ – ١٣٢
أنواع السياق	١٣٢ – ١٣٨
١. سياق المصاحب (السياق غير اللغوي)	١٣٣ –

	١٣٤
٢. سياق الموقف	١٣٤ – ١٣٨
السياق في المقابسات	١٣٩ – ١٤٧
الفصل السادس: التناص	١٤٨ – ١٥٧
التناص من منظور لسانيات النص	١٤٩ – ١٥٢
التناص في المقابسات	١٥٣ – ١٥٧
التناص مع الدين	١٥٣
التناص مع القرآن الكريم	١٥٤ – ١٥٥
التناص مع السنة النبوية الشريفة	١٥٦ – ١٥٧
التناص مع الشعر	١٥٧
	١٥٨ – ١٦٧

الفصل السابع: الإعلامية	
الإعلامية من منظور لسانيات النص	١٥٩ – ١٦٢
الإعلامية في المقابسات	١٦٣ – ١٦٧
خاتمة البحث، ونتائجه	١٦٨ – ١٧٢
مصادر البحث، ومراجعه	١٧٣ – ١٨٦
ملخص الأطروحة باللغة الإنجليزية	A - E
عنوان الأطروحة باللغة الإنجليزية	

المقدمة

بسم الله الرحم الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وصلى الله على سيد الخلق أجمعين محمد الأمين وآله الطيبين الطاهرين، وصحبه المنتجبين.

أمّا بعد فقد مضت رحلتي مع الدرس والمذاكرة في مرحلة الدكتوراه حتى وصلت بي إلى باحة اختيار موضوع الدراسة ومنهجية البحث؛ ونظراً لاهتمامي بالدرس اللساني الحديث؛ ولاسيما لسانيات النصّ فقد حددت نوع الدراسة والتخصص الذي أرغب فيه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد كانت لي – وما تزال – اهتمامات في تراثنا العربي الإسلامي؛ ولاسيما ما يجمع بين الدرسين اللغوي والأدبي، و الدرسين الفلسفي والكلامي، فوجدت ضالتي في المنتج المعرفي لعلم من أعلام الحضارة العربية الإسلامية، ذلك هو أبو حيان التوحيدي في كتابه (المقابسات)، فكان أن التقى منهج يدرس المنتج اللغوي دراسة تحليلية دقيقة، باستعمال كلّ ماهو متاح وممكن من روافد العلوم والمعرفة للبشر أعني به: لسانيات النص؛ في سبيل فهم اللغة وتحليل مادتها وصولاً إلى غايتها القصوى المتمثلة في الوجه الدلالي من وجوه اللغة المتعددة. مع كتاب جامع للعديد من ثقافات الشعوب وخلاصة أفكار علمائها عبر الأزمنة، وذلك الكتاب هو (المقابسات).

وقد سعت هذه الدراسة إلى تطبيق منهج لسانيات النص متمثلاً بالمعايير السبعة التي صنّفها كلّ من دي بوجراند، ودرسلر وجعلاها أساساً من أساسيات النص، ومن أهم مكوناته؛ بل ذهبا إلى أبعد من ذلك بكثير، إذ جعلا خلو منتجٍ لغوي ما منها، أو من بعضها، يخرجه من (النصية).

وقد اعتمدت هذه الدراسة منهج الانتقاء في اختيار النصوص من المقابسات، وحين شرعت في العمل على نصوص المقابسات وجدت أن للكتاب طبعات منها ما هو محقق تحقيقياً علمياً أو مشروحاً شرحاً لغوياً مبسطاً، ومنها ما ليس كذلك، فارتأيت أن أنظر في النسخ جميعها، فشخص أمامي اختلاف بيِّن في ما بينها، زيادة ونقصاناً واختلاف ألفاظ، فوقع اختياري على النسخة التي حققها الأستاذ محمد توفيق حسين في طبعتها الثانية التي صدرت عن دار الآداب في بيروت سنة ألف وتسعمائة وتسع وثمانين من الميلاد.

وقد جاءت الأطروحة في مقدمة وتمهيد وسبعة فصول وخاتمة.

فأما التمهيد فقد سلط الضوء على أبي حيان التوحيدي: اسمه ونسبه وولادته، ثم عرضنا نتاجه من مؤلفات، بعد ذلك بحثنا تحليل أسلوبه في كتاباته، وأهم ما يميزه عامة، وأهم ما يميز أسلوبه في المقابسات، عارضين كتابه بالوصف، ثم بحثنا موضوع النص في اللغة والاصطلاح، وبعدها لسانيات النص النشأة والمفهوم.

وبحثنا في الفصل الأول معيار السبك واختص بالبنى الداخلية للنصّ – النحوية منها – التي تتمثل في وسائل التماسك الشكلية التي تربط أجزاء النصّ فيما بينها؛ من نحو: التكرار، والتحديد، والإحالة، والحذف، والربط.

واشتغل الفصل الثاني في الالتحام الذي يختص بالدلالة، لنكشف مظاهر الالتحام التي تتمتع بها مقابسات التوحيدي.

فيما ارتكز الفصل الثالث على دراسة مقاصد المؤلف وتحليلها، وما كان يروم إيصاله إلى المتلقي.

وبحثنا في الفصل الرابع في مدى قبول نصوص المقابسات لدى المتلقي وتفاعله معها، وتحقيق الخاصية النصية.

أمّا الفصل الخامس فقد عني بدراسة سياق الموقف وكلّ ما يحيط به وينبثق عنه، من نحو: السياق الثقافي، والنفسي، والاجتماعي، والتاريخي...إلخ وأثره في المعنى المراد.

فيما جاء الفصل السادس ليسلط الضوء على التناص، ومدى شيوعه في نصوص المقابسات، وإسهامه في بناء نصها، وإيصال مقاصدها إلى المتلقي.

وجاء ختام الفصول ببحث الإعلامية وما تضمّنته المقابسات من مستوياتها المتنوعة، وما تحفل به من نسبها التي تتفاوت كثرة وقلة.

ثم اختتمنا الأطروحة بخاتمة العمل البحثي، وذكر أهم النتائج التي توصلنا إليها، ثمّ ثبت بالمصادر والمراجع التي ارتكز عليها بحثنا.

وختاماً لا يسعني إلا أن أتقدم بوافر الشكر لكل من أعان على إخراج هذه الأطروحة إلى النور، وأخص بالشكر الأستاذ الدكتور طارق عبد عون الجنابي الذي أشار إلى أهمية كتاب المقابسات وأنّه يمكن أن يكون موضوعاً للبحث ، وإلى صديقي الاستاذ علي قاسم السوداني، وإلى موظفي المكتبة المركزية في الجامعة المستنصرية، وإلى موظفي مكتبة كلية الآداب، وإلى

موظفي مكتبة كلية التربية، وأختم بالشكر الوافر لأستاذي المشرف الدكتور محمد سامي – أدامه الله ذخراً لنا – الذي كان خير عون لي على إتمام أطروحتي وإنجازها.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطاهرين، وصحبه المنتجبين.

التمهيد

- أبو حيان التوحيدي

- لسانيات النص

أولاً: أبو حيان التوحيدي:

اسمه،ونسبه، ومولده، ووفاته:

هو علي بن محمد بن العباس أبو حيان التوحيدي، وتاريخ مولده فيه اختلاف كبير(١)، وقد ذكر الأستاذ سعيد بحيري أن بعض الباحثين قد رجح تاريخاً معيناً من إشارتين وردتا في كتبه؛ الأولى منهما وردت في كتاب (المقابسات) وفيها يحدد التوحيدي تاريخ تأليف هذا الكتاب بطريق غير مباشر، فقد نص على أنه يحرر هذه المقابسات وقد جاوز العقد الخامس من عمره: «**وماذا يرجو المرء بعد الالتفات إلى خمسين حجة قد أضاع أكثرها، وقصّر في باقيها**»(٢)، والثانية منهما وردت في الرسالة التي كتبها إلى القاضي أبي سهل بن محمد سنة أربعمئة للهجرة وفيها يقول: إنه قد بلغ عشر التسعين، وبناء على ذلك يرجح أنه ولد في نحو ٣١٠، أو ٣١١، أو ٣١٢ للهجرة على وجه التقريب، وتكون المقابسات قد بدأ تدوينها من سنة ٣٦٠، أو ٣٦١، أو ٣٦٢ للهجرة، إلى ما بعد ٣٩١ للهجرة (٣)، والمرجح أنه ولد في بغداد، كما أشار إلى ذلك الأستاذ حسن السندوبي مؤكداً على التمسك بهذا الرأي حتى يقوم الدليل على أنه ولد في غيرها (٤).

وقد اختلف في أصله؛ إذ مال ياقوت الحموي إلى الظن بأنه كان فارسي الأصل: «التوحيدي شيرازي الأصل، وقيل نيسابوري، ووجدت بعض الفضلاء يقول له: الواسطي»(٥)، وإلى ذلك -أيضاً- ذهب كل من الأستاذ حسن السندوبي في مقدمة كتاب (المقابسات)(٦) والدكتور زكي مبارك في كتابه (النثر الفني في القرن الرابع)(٧)، وأياً كان أصله أو حسبه فإنه لا يخدش في نتاجه الفكري.

أمّا لقبه، فقيل: نسبة إلى أبيه الذي كان يبيع نوعاً من التمر يسمى التوحيدي(٨)، ويحتمل أن يكون نسبة إلى التوحيد الذي هو دين الإسلام، ونقل السيوطي عن ابن حجر نسبته إلى الاعتزال؛ لأنهم يتسمون أهل العدل والتوحيد(٩).

---

(١) أهمل أغلب أصحاب التراجم والمؤرخين ذكره، وأكثر من أوفى بترجمته: ياقوت الحموي، في (معجم الأدباء): (١٥/٥-٥٢)، ويليه في ذلك السبكي في (طبقات الشافعية): (٤/٢)، ويليه الحافظ الذهبي في (سير أعلام النبلاء): ١٧/ ١٢٢.

(٢) المقابسات، المقابسة الخامسة والثلاثون: ١٣٧ - ١٣٨.

(٣) ينظر: ظواهر تركيبية في (مقابسات) أبي حيان التوحيدي، سعيد بحيري: ٥.

(٤) ينظر: المقابسات، تحقيق حسن السندوبي: ٨.

(٥) معجم الأدباء: ١٥/٥.

(٦) ينظر: المقابسات، السندوبي: ٨.

(٧) ينظر: النثر الفني في القرن الرابع، زكي مبارك: ١٦١/٢.

(٨) ينظر: معجم الأدباء: ١٥/٥.

(٩) ينظر: لب اللباب، السيوطي: ٣٠٧.

وفي ما يخص وفاته فنكتفي بما توصل إليه الأستاذ البحيري من ترجيح أنه قد عاش بعد سنة (٤٠٠هـ)، وقد كان حيّاً حتى سنة (٤١٤هـ)(١).

شيوخه:

اشتهر أبو حيان التوحيدي بحرفة النسخ، ولاأبالغ إذا ذكرتُ في جماعة شيوخه كلّ من نسخ له مؤَّلفٌ من مؤلَّفاتِه.

ويقف في طليعة شيوخه الذّين أخذ عنهم علمه: أبو سعيد السيرافي، وأبو بكر القومسي الفيلسوف(٢)، وقد «أخذ عن القاضي أبي حامد المروزي وقد ذكره ابن خلكان في آخر ترجمة أبي الفضل ابن العميد فقال: كان فاضلاً مصنفاً وكان موجوداً في سنة أربعمائة كما ذكره في تصنيفه المسمى بالصديق والصداقة وذكره الذهبي وقال: له مصنفات عديدة في الأدب والفصاحة والفلسفة... وكان من تلامذة علي بن عيسى الرماني»(٣)، وقد سمع جعفراً الخلدي، وأبا بكر الشافعي، وأبا سعيد السيرافي، والقاضي أحمد بن بشر العامري.

تلامذته:

أمّا تلامذته فقد روى عنه: علي بن يوسف الفامي، ومحمد بن منصور بن جيكان، وعبد الكريم بن محمد الداوودي، ونصر بن عبد العزيز الفارسي، ومحمد بن إبراهيم بن فارس الشيرازيون، وقد لقي الصاحب بن عباد وأمثاله، وكذلك سمع منه أبو سعد عبدالرحمن بن ممجة الاصبهاني، وذلك في سنة أربع مئة، وهو آخر العهد به(٤).

مؤلفاته:

ذكر الحموي مؤلفات أبي حيان التوحيدي، وهي النحو الآتي(٥):

---

(١) ينظر: ظواهر تركيبية في (مقابسات) أبي حيان التوحيدي: ٥.

(٢) ينظر: معجم الأدباء: ١٥/ ٨ – ٩.

(٣) طبقات الشافعية: ١/٢٦.

(٤) ينظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي: ١٧/ ١٢٢.

(٥) ينظر: معجم الأدباء: ١٥/٧ – ٨.

١. رسالة الصديق والصداقة.

٢. الرّد على ابن جني في شعر المتنبّي.

٣. الإمتاع والمؤانسة، جزءان.

٤. الإشارات الإلهية، جزءان.

٥. الزُّلفة (الزلفى).

٦. المقابسات(١).

٧. رياض العارفين.

٨. تقريظ الجاحظ.

٩. ذمّ الوزيرين.

١٠. الحَجّ العقليّ اذا ضاق الفضاء عن الحجّ الشرعي.

١١. الرّسالة في صلات الفقهاء في المناظرة.

١٢. الرّسالة البغدادية.

١٣. الرّسالة في أخبار الصوفية.

١٤. الرّسالة الصوفية.

١٥. الرّسالة في الحنين إلى الأوطان.

١٦. البصائر، وهو عشرة مجلدات.

١٧. المحاضرات والمناظرات.

وقد زاد عليها الأستاذ حسن السندوبي (رسالة في ثمرات العلوم)، وألمح إلى زعم: «الأستاذ مرجليوث أنه له أيضاً كتاب التذكرة التوحيدية، وكتاب أخبار القدماء وذخائر الحكماء»(٢)، و**عقب أنه لم** يذكر ذلك مؤلف متقدم ممّن عنوا بأبي حيان، م**رجحاً أن يكونا** اسمين وضعهما النساخ للرسالة البغدادية، ولكتاب البصائر والذخائر، وكثيراً ما يكون ذلك(٣).

في حين أضاف الدكتور عبد الأمير الأعسم إلى مؤلفاته في ما نسب إليه من خلال مراجعته لأعمال الباحثين، مضافاً إليها ماتيسر له العثور عليه من اشارات في الكتب القديمة،

---

(١) ذكره ياقوت الحموي في معجم الأدباء بـ(كتاب المقابسة)، وليس (المقابسات): ١٥/٧.

(٢) المقابسات، السندوبي: ١٩.

(٣) ينظر: نفسه: ١٩.

وهي النحو الآتي[1]:

١. رياض العارفين.

٢. الإقناع.

٣. أنيس المحاضرة.

٤. أوصاف المجالس.

٥. ترويح الأرواح.

٦. تصوف الحكماء وزهد الفلاسفة.

٧. أخلاق الوزيرين.

٨. رسالة الحياة.

٩. رسالة إلى القاضي أبي سهل.

١٠. رسالة عن أبي الفضل بن العميد.

١١. رسالة في الإمامة.

١٢. رسالة في أنّ ما يصدر بالقدرة والاختيار لا بالكره والاضطرار.

١٣. رسالة في الطبيعيات والإلهيات.

١٤. رسالة في الكلام على الكلام.

١٥. رسالة لأبي بكر الطالقاني.

١٦. رسالة نوادر الفقهاء.

١٧. رواية السقيفة (رسالة).

١٨. الروض الخصيب.

١٩. عجائب الغرائب.

٢٠. كتاب الحجيج.

٢١. كتاب النوادر.

٢٢. كتاب مثالب الوزيرين.

٢٣. المناظرة بين أبي سعيد السيرافي وأبي بشر متّى بن يونس القنّائيّ.

---

(١) ينظر: أبو حيان التوحيدي – كتاب المقابسات، د. عبد الأمير الأعسم: ٧٤ – ٧٦.

٢٤. نزهة الأصحاب.

٢٥. نشوان المحاضرات.

٢٦. نظم السلوك.

٢٧. الهفوات لابن الصابي.

٢٨. الهوامل والشوامل.

ومن الملاحظ أن بعضاً من هذه العنوانات تتشابه في ما بينها مما يرجح أنّ عدداً منها يعود إلى مُؤلَّفٍ واحد لا غير.

المقابسة في اللغة، والإصطلاح:

لغة:

مشتقَّة من الجذر اللغوي (ق، ب، س)(١)، وورد في معناه المعجمي: القَبَسُ النَّار، والقَبَسُ شعلةٌ من نار تقتبسها من مُعْظَمٍ، واقتباسها الأخذ منها، وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليهما السلام): حَتَّى أورَى قبساً لِقَابسٍ، أي أَظْهَرَ نوراً من الحق لطالبه.

والقابِسُ طالب النار، ويقال: قَبَسْتُ مِنهُ ناراً أَقبِسُ قبساً فَأَقبَسَني، أي أعطاني منه قَبَساً وكذلك اقتبستُ منه عِلماً، أي استَفَدْتُهُ، وقيل: أَقْتَبَسْتُهُ عِلماً وقَبَسْتُهُ ناراً أو خيراً إذا جِئْتَهُ بِهِ. وفي الحديث النبوي الشريف: فإذاراحَ أَقْتَبَسْنَاهُ ما سَمِعنا مِنْ رسُولِ اللهِ (صلى الله عليه وآله)، أي أعلَمْناهُ إيَّاهُ.

والقوابِس الذين يَقْبِسُونَ النَّاسِ الخيرَ، يعني: يُعَلِّمُونَ، وأتانا فلانٌ يَقْتَبِسُ العِلمَ فأَقْبَسناهُ، أي عَلَّمْناهُ(٢). ومن ملاحظة المعنى المعجمي لمادة (ق، ب، س) نجده:

- القَبَسُ النَّار.
- والقَبَسُ شعلةٌ من نار.
- والاقتباس الأخذ.
- والقابِسُ طالب النار.

---

(١) وردت مادة (ق ،ب ، س) في القرآن مرتين وذلك في قوله تعالى: ﴿إِذْ رَا نَاراً فَقَالَ لِاَهْلِهِ امْكُثُوا اِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آ تِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَو أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً﴾[طه: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِاَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَو آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[النمل: ٧].

(٢) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (ق، ب، س): ٣٩/ ٣٥١٠ – ٣٥١١.

ـ أَقبَسَني أَعطاني، وكذلك اقتبستُ منه عِلماً.

ـ و اقتبستُ منه عِلماً استَفَدْتُهُ

ـ والقوابِس المُعَلِّمُونَ.

ـ واقْتَبَسَ العِلمَ تَعَلَّمَهُ.

إصطلاحاً:

بالأفادة ممّا تقدم يبدو لي أنَّ التوحيدي استند إلى هذه المعاني، أو بعضها حين أطلق اسم المقابسة على مايقوم بنقله إلينا من مقتطفات الحوار التي كان يشهدها في مجالس العلماء، فهي أذن: أَخذٌ يسيرٌ مستفاد من العِلمِ من محاورات طويلة تعجُّ بها مجالسُ العلماء التي كان يحضرها التوحيدي، ويشترك فيها. وكذلك فإنّ التوحيدي لم يُسبق بهذا اللون من النثر، ولم يكتب أحدٌ على منوالِهِ من بعدِهِ، وتقعُ المقابساتُ في ضمن النثر؛ إذ تنماز فنونه بالبلاغة، وحسن الصياغة، وكذلك فإنّ المقابسات حديثٌ بليغٌ يتداخلُ فيه الوصفُ مع الحوارِ والنقاشِ الذي انمازت بهِ.

أسلوب التوحيدي في كتابا ته:

أبو حيان التوحيدي ثمرة فكرية من ثمار القرن الرابع للهجرة النبوية الشريفة، وقد سُبق بغيره من عظماء النثر العربي، وفي مقدمتهم الجاحظ، إذ وصلت مسيرة العلوم الكلامية، والفلسفية واللغوية... وغيرها، إلى الذروة في عصره وفي مرحلة نتاجه الفكري والأدبي، فقد عَدّه آدم متز من أعظم كُتَّاب النثر العربي على الإطلاق فـ ((إنه لم يكتب في النثر العربي بعد أبي حيان ما هو أسهل، وأقوى، وأشدّ تعبيراً عن شخصية صاحبه ممّا كتب أبو حيان، ولكن الجمهور كان يميل إلى طريقة الآخرين في البديع)) (١).

فلأبي حيّان ((أسلوبه الخاص الخارج على الأسلوب الشائع في عصره، فقد استطاع أن يقيم توازناً دقيقاً بين اللفظ والفكرة، فلم يجنح إلى التكلف، فيغلب أسلوب الاحتفاء باللفظ والصناعة على الفكرة، أو الإفراط في التجريد والاستنباط)) (٢) وقد مكّنه في ذلك كل هذا اضطلاعه

---

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع، آدم متز : ٤١٦/١.

(٢) ظواهر تركيبية: ٧ – ٨.

بصنوف العلوم، وأنواع المعارف، وألوان الآداب، وكان من خصائص أسلوبه احتذاء طريقة الجاحظ في التفنن في كل شيء، مطبوعاً على ذلك إلى الحدّ الأقصى؛ غير أنَّه أولع بوضع الأحاديث والأسماء، ووقائع التاريخ في الصورة الروائية، فهو يعرض الحادث التاريخي بعد أن يصوغه بعالي بلاغته وزاخر بيانه، فإذا هو قصة ذات وقائع، وأشخاص وأبطال، تملك المشاعر والقلوب إذا قرئت، وتأخذ باللب إذا سمعت، هذا مع ما يدخله عليها من ألوان بلاغية، فهو لا يعدو في النتيجة أن يمثل الحقيقة في أصدق مظاهرها (١).

(١) ينظر: المقابسات، السندوبي: ١٧.

أسلوب التوحيدي في المقابسات:

من أخص مزايا أسلوب التوحيدي في المقابسات أنه كان يمزج الأدب بالحكمة، والتصوف بالفلسفة، وكان يولِّد من هذا المزيج مذهباً خاصاً به لم يسبق إليه(١)، ويميز الدكتور زكي مبارك بين شخصيتين للتوحيدي: "الشخصية الأولى: شخصية الأديب الذي يحدثنا عن نفسه وعن أشياعه، وعن عتبه على الناس، وتبرمه بالحياة، والشخصية الثانية: شخصية الباحث الذي ينقل الصور المختلفة لما يفهم معاصروه من ضروب العلوم والآداب والفنون... وهذه الشخصية الثانية شخصية الباحث تقدمه إلينا رجلاً فهم النزعات الفلسفية، والأخلاقية، والأدبية، ثم صورها لنا تصويراً يقرب من الإتقان في كتاب المقابسات"(٢)، وعلى هذا فالتوحيدي في مقابساته باحث، وناقد، يميز بين الأفكار، والتوجهات الفلسفية، وغيرها، وهو يعمل في ذلك كله بلغة أدبية تكتنز على فنون البلاغة وضروبها.

والتوحيدي – كما أثبت ياقوت الحموي – "كان جاحظياً يسلك في تصانيفه مسلكه، ويشتهي أن ينتظم في سلكه، فهو شيخ الصوفية، وفيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة، ومحقق الكلام، ومتكلم المحققين"(٣)، ومثل هذه الملكة، وهذه الثقافات المتعددة للتوحيدي ستنعكس من قريب أو بعيد على أي منتج فكري وأدبي له، ولاسيما كتابه (المقابسات) الذي حمل من اسمه سمة الإتقان، والتفنن في اختيار موضوعاته، ومادته العلمية والأدبية "فهو إذن مفكر موسوعي، حاول أن يمزج الفلسفة بالأدب، وأن يقدمهما في لغة مفهومة للخاصة والعامة على حدٍّ سواء"(٤)، وسيره على خطى من سبقه في الكتابات النثرية كالجاحظ، جعله يقدم لنا أسلوباً رصيناً خاصاً به، فهو "يحاكي الجاحظ في أسلوبه الفلسفي، والأدبي فيترك السجع ويقبل على الازدواج، غير أنه على كل حال لون من ألوان الكتابة الفلسفية التي تقبّلها الناس في ذلك الحين. وأدق ما يلاحظ على كتاب المقابسات أنه يطلعنا على ناحية خطيرة من عقلية الباحثين في ذلك العهد، فهم يعرفون كيف تثار المشاكل وكيف تبذر بذور الخلاف، فإذا حاولوا الإجابة والتعليل ظهروا ضعفاء عاجزين. وهذه ظاهرة تجدها حيث تتصفح كتاب المقابسات؛ ولعلّ السبب في ذلك أنهم كانوا يعانون أزمة عقلية خطرة لم يتح لهم التغلب عليها؛ وكان من أثرها أن كثر الشك والارتياب والإلحاد بين طبقات المفكرين"(٥)، وعلاوة على ذلك فقد كان التوحيدي محققاً، وقد عُرِف عنه "أنه كان يتحرّى في كتبه كلها الدقة في النقل، وفي الرواية"(٦)، وعليه فإننا نجد أنفسنا أمام عالم محقق، وفيلسوف موسوعي جمع بين أكثر من لون من ألوان العلوم الفلسفية، والكلامية، واللغوية، وغيرها، وقد أبدع فيها جميعاً، وساعده على ذلك امتلاكه شخصية

---

(١) ينظر: نفسه: ١٧.

(٢) النثر الفني في القرن الرابع: ١٦٧/٢.

(٣) معجم الأدباء: ٥/١٥.

(٤) ظواهر تركيبية: ٨.

(٥) النثر الفني في القرن الرابع: ١٦٧/٢ – ١٦٨.

(٦) ظواهر تركيبية: ٨.

الباحث والناقد المتابع، والمتفحص، وتجلّى ذلك بخاصةٍ في كتابه (المقابسات)؛ ويكفينا في هذا المقام أن نورد حادثة وقعت للتوحيدي مع الوزير الصاحب بن عبّاد، «حدّث أبو حيان قال: قال الصاحب يوماً: (فَعْلٌ وأفعالٌ) قليل، وزعم النحويون أنّه ما جاء إلا: زندٌ وأزنادٌ، وفرخٌ وأفراخ، وفَرْدٌ وأفرادٌ. فقلت له: أنا أحفظ ثلاثين حرفاً كُلهُّا فعْلٌ وأفعالٌ، فقال: هَات يا مُدّعي، فسردتُ الحروف ودَلَلْتُ على مواضعها من الكتب ثمّ قلتُ: ليس للنحويّ أن يلزم مثل هذا الحكم إلا بعد التبحر والسماع الواسع، وليس للتقليد وجهٌ إذا كانت الرواية شائعة والقياس مطرداً وهذا كقولهم: فَعِيلٌ على عشرة أوجهٍ، وقد وجدته أنا يزيدُ على أكثر من عِشرين وَجْهاً وما انتهيت في التتبع إلى أقصاه. فقال: خروجك من دعواك في فَعْل يدلنا على قيامك في فَعيل»(١)، ومع عدم ذكره المواطن الثلاثين في (فَعْلٌ وأفعالٌ) كاملة، وكذا الوجوه في (فعيل) إلا أنّه اكتفى بإذعان الوزير الصاحب بن عباد على ما له من الفصاحة والمكانة السياسية.

وحين نُنعم النظر في كتاب (المقابسات) نجد فيه العديد من الملاحظات التي سجلت لدينا، إذ اشتمل على مائة وست مقابسات، فابتدأت بالمقابسة التي عالجت موضوع تطهير النفس وتجردها من الشوائب البدنية، وهي من المقابسات القصيرة الحجم التي لا تتجاوز خمسةَ عشرَ سطراً فحسب، وانتهت بالمقابسة التي كانت في الصداقة والصديق والحب والعشق ومختارات من التعريفات الفلسفية للنوشجاني، وهذه المقابسة الأخيرة أطول مقابسة وردت في كتابه على الإطلاق إذ جاءت في تسعَ عشرةَ صفحة.

واشتملت مقابسات التوحيدي على موضوعات مختلفة، منها: الدينية، والتوحيد، والأخلاقية، والاجتماعية، والفلسفية، واللغوية والنحوية، والبلاغية، والصوفية، والحكمية وفي الزهد وترك الدنيا، والفلكية وعلم النجوم، والفنية كالغناء وغيره...، وغير ذلك.

ولا نجد مراعاة موضوعية من جانب التوحيدي للوحدة في حجم المقابسات، فمنها القصير جداً الذي لا يتجاوز الأسطر القليلة، ومنها ما اشتملته صفحات متعددة، وربما نلاحظ في المقابسة الأخيرة أنها اشتملت على ثلاثة موضوعات، كلّ منها يصلح أن يكون مقابسة منفصلة عن غيرها، فضلاً عن أن موضوعها الرئيس (في الصداقة والصديق) وهو مقارب جداً لرسالته (الصديق والصداقة)، وهذا ربما فسر لنا طول هذه المقابسة، ولعلّ الجانب الموضوعي الذي تعالجه المقابسة هو العامل الأساس في تحديد حجمها.

إن هذا التنوع الذي أراده التوحيدي في اختيار موضوعات مقابساته يعكس لنا مجموعة من المؤشرات، منها أن التوحيدي أراد لكتابه المقابسات أن يكون كتاباً متنوعاً يحوي علوماً، وفنوناً لغوية متعددة، وأن كتاب المقابسات انعكاس للسمة الموسوعية التي كانت طاغية على شخصية التوحيدي الأدبية والعلمية.

ولقد تعمد التوحيدي معالجة موضوعات متعددة، ومتنوعة في مؤلف واحد؛ ليبين لمعاصريه – على وجه التحديد –، ولمن يلحق بهم– بعامّة – الإمكانية العلمية التي يتمتع بها.

إن هذا التنوع في كتاب المقابسات إنما يُبنى على محاكاة التوحيدي لنتاجات قدوته في فن النثر، ولمن ينتمي إلى مدرسته، وأعني:

(١) معجم الأدباء: ١٥/٢٦ – ٢٧.

الجاحظ، الذي كان ينماز بهذا الطابع الموسوعي في مؤلفاته.

فقد عالج موضوعات مختلفة كانت تعنّ له، ولكنها متنوعة ومتشعبة لا يجمعها عنوان كتاب ولا رسالة، ولا يحيط بها زمن تأليف محدد؛ لذلك جمعها في كتابه هذا، وقد يكون هذا ما دعاه إلى تسميته بـ (المقابسات)؛ فهي مناقشات، ومساجلات، ومباحثات في فنون مختلفة من العلوم.

ومن جهة أخرى فإنّ التوحيدي سجل ثقافة معاصريه، ومن قبلهم؛ بـ "كثرة ما روى عنهم، ونقل من كتبهم، وسمع من أفواههم، وسجل ما كان يسمعه في مجالس العلماء والأدباء والوزراء تسجيلاً دقيقاً، إلى حدّ بعيد. فقد كان يجتهد في إثبات أقوال هؤلاء العلماء؛ ولكن من خلال لغته وأسلوبه؛ إذ إنَّ التشابه الكبير بين أسلوبه حين يتحدث عن غيره، وأسلوبه حين يعبر عن نفسه في أحيان كثيرة يرجح أنه كان يتدخل فيما ينقل، ويعيد صياغته بأسلوبه الخاص، ويحذف ويضيف كيفما اتفق له وأراد" (١)، وهو يؤكد ذلك مراراً، يقول في المقابسة الحادية والتسعين: "**قد مَرَّت في هذه المقابسة التي تقدمت، فنون من الحكمة، وأنواع من القول، ليس لي من جميعها إلا حظ الرواية عن هؤلاء الشيوخ، وإن كنت قد استنفدت الطاقة في تنقيتها، وتوخي الحق فيها، بزيادة يسيرة لا تصحّ إلا بها، أو نقص خفي لا يبالى به**" (٢)، ولا يوافق الدكتور زكريا إبراهيم المستشرق ماكس مايرهوف في رأيه في المقابسات محاولاً تعليل لجوء التوحيدي إلى الصياغة الأدبية للمضامين الفلسفية العسيرة، بقوله: "نحن لا نوافق (مايرهوف) على قِلة جدوى المحاورات التي نقلها إلينا أبو حيّان، فإن صياغتها في القالب الأدبي لا تنتقص من قيمتها العلمية، بل هي تدلنا على أن التوحيدي كان واحداً من أولئك (الأدباء الفلاسفة)، أو (الفلاسفة الأدباء)، الذين حاولوا في القرن الرابع الهجري أن يحيلوا الفلسفة إلى ثقافة شعبية يفيد منها العامة من الناس وينهلون من معانيها شتى ألوان المعرفة" (٣)، ويؤكد ردّه على من ذهب إلى غموض المقابسات، وربّما اضطرابها وكثرة التلاعب اللفظي فيها؛ ما ذهب إليه الباحثون المنصفون من أن أبا حيان في المقابسات لم يكن مجرد ناقل بل كان يصوغ الآراء الفلسفية في لغة تحفل بالفكرة والعبارة معاً، وبأسلوب بلاغي رصين، وكان يضيف إليها بعض آرائه الخاصة (٤)، ويقول الدكتور زكريا إبراهيم: "وإذن فإن فضل التوحيدي في كتاب (المقابسات) لا ينحصر في نقل الأفكار والمساجلات التي كانت تدور في الأوساط العلمية في عصره، بل هو يمتد – أيضاً – إلى عملية تنقيح الآراء وغربلتها، وإعادة صياغتها، والتعبير عنها بأسلوب أدبي ناصع. وإذا كانت بعض آراء التوحيدي قد اختلطت ببعض آراء السجستاني، كما اختلطت من قبل آراء أفلاطون بآراء أستاذه سقراط؛ فلعل هذا ممّا يجعل لِكتاب (المقابسات) قيمة كبيرة في تاريخ الصلات الفكرية بين علمين هامين من أعلام الفكر الإسلامي في القرن الرابع الهجري" (٥).

وفي هذا المقام لابدّ من الإشارة إلى أنَّ التوحيدي في كتابه المقابسات قد أجاد وأبدع في صياغة كلام من ينقل عنهم

---

(١) ظواهر تركيبية: ١٠.

(٢) المقابسات: ٢٨٢.

(٣) أبو حيان التوحيدي – كتاب المقابسات: ٩٤.

(٤) ينظر: ظواهر تركيبية: ١١.

(٥) أبو حيان التوحيدي – كتاب المقابسات: ٩٦.

في قوالب لغوية وبلاغية تنتمي إلى أسلوبه الخاص.

ثانياً: لسانيات النص:

مفهوم النص:

النص لغة: يتوزع في معاني الرفع، والظهور، وجعل بعض الشيء على بعضه، والسير الشديد، وأقصى الشيء ومنتهاه، وغايته، والتوقيف، والتعيين، والشدة، والاستقصاء، والحركة.

وجاء في استعماله اللغوي:

- وُضِعَ على المِنَصَّة، أي: على غاية الفضيحة، والشهرة، والظهور.
- والماشِطة تَنُصُّ العروس، فتقعدها على المِنَصة، وهي تَنُصُّ عليها لِتُرى من بين النساء.
- وكلُّ شيء أظهرته فقد نصصته.
- وكلُّ شيء قلقلته فقد نصصته.
- ويقال نصنصت الشيء حرّكته[١].

ومن ملاحظة المعاني المعجمية المختلفة نخلص إلى مجموعة معانٍ مشتركة فيما يخص المادة المعجمية (نصص) ، فـ(نصَّ) بمعنى الرفع، والظهور، وجعل بعض الشيء على بعضه.

فلا نجد في معاني النصّ في المعجمات العربية اختلافاً بيِّناً، فما نجده عند الزمخشري نجده عند ابن منظور ، وهو ما نجده عند ابن حجر العسقلاني في شرحه كتاب الزمخشري المُسَمّى بـ (غراس الأساس)[٢].

أما المعنى المستعمل في اللغة العربية المعاصرة فهو صيغة الكلام الأصلية التي وردت من المؤلّف، أو القائل، أي الكلام بعينه من حيث الكم والأسلوب.

وأقرب المعاني القديمة إلى الاستعمال المعاصر هو معنى التعيين والاستقصاء. ينصهم، أي: يستخرج رأيهم ويظهره، ومنه قول الفقهاء: نص القرآن، ونص السنة، أي: مادلّ ظاهر لفظهما عليه من الأحكام[٣].

---

(١) ينظر: لسان العرب، مادة (نصص): ٤٩/٤٤٤١ – ٤٤٤٢ .

(٢) ينظر: غراس الأساس، ابن حجر العسقلاني: ٤٥٧.

(٣) ينظر: لسان العرب، مادة (نصص): ٤٩/ ٤٤٤٢ .

النص اصطلاحاً:

يُعدّ الجذر (ن، ص، ص) من الجذور القديمة في اللغة العربية، وفي الوقت الذي يقرر فيه محمد الشاوش كونه ليس من الألفاظ الدخيلة، ولا المولدة، إذ نجده في المعجمات اللغوية العربية، وكلٌّ قد عالج مادته وساق الأمثلة من الواقع اللغوي التداولي عليها؛ فإنّه يخلص إلى انّ المصطلح بالمفهوم الذي له في الدرس اللساني الحديث مفهوم غير معهود في النحو العربي، ولدى نحاته، الذين كانوا يطلقون لفظ النص على نوع خاص من الكلام اعتبروا فيه جهة خاصة في حصول المعنى: فاللفظ المحكم في نظرهم هو النص، أمّا اللفظ المتشابه فليس نصاً، فيما رجّح سبب انعدام هذا المعنى من كلمة النص لأنّ مجاله المفهومي مشغولاً بمصطلحات أخرى ك: القول، والخطاب، والكلام، وقد وجد فيها النحاة ما يغني؛ لأنّهم لم يصدروا في تناول المادة اللغوية عن تصوراتهم وتصورات غيرهم، ولم يستعينوا بوجهات نظر المشتغلين بالمادة اللغوية كالأدباء، والنقاد، والبلاغيين، والمفسرين ؛ بل اكتفوا بتصوراتهم فحسب، فصدروا عن تصور خاص للمادة اللغوية يبقيها في أعمّ وجوهها بوصفها: كلاما، وخطاباً، وأقوالاً، ولايفيدها بنوع معين من الأشكال التي يمكن أن تكون عليها بحكم المقاييس المؤسساتيّة والعرفية، فظلت اللغة حبيسة هذا التصور[١]، ولم تحلق في رحاب آفاق المهتمين بها كافة؛ لتنهل منهم ما يصب في سبيل فهمها والتنظير لها.

وقد استعمل الأصوليون النص في اصطلاحهم في مقابل الرأي والاجتهاد، واستعملوه أيضاً في مقابل ظاهر الدلالة من الكلام، وفي النص على العلة، وغير هذه الموارد؛ إذ لم يحظَ مفهوم النص باهتمام كبير سوى عندهم، ويقف في طليعتهم الإمام الشافعي الذي يرى أنّ النص: «ما أتى الكتاب على غاية البيان فيه، فلم يحتج مع التنزيل فيه إلى غيره»[٢]. ومن المؤكد عدم اتفاق المشتغلين في اللغة، والبلاغة على مصطلح مُحَددٍ للنّصّ إلا انّ تعاطيهم معه كان حاضراً في حلقات دروسهم ونتاجاتهم المتنوعة، ولاسيما عند أهل البلاغة، إذ يقول الباقلاني:

---

(١) ينظر: أصول تحليل الخطاب، محمد الشاوش: ١/١٨٤ – ١٩٧.

(٢) الرسالة: ٣٢.

«تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرّف فيه من الوجوه التي قدّمنا ذكرها، على حدٍّ واحد، في حسن النظم، وبديع التأليف والرصف، لا تفاوت فيه، ولا انحطاط عن المنزلة العليا، ولا إسفاف فيه إلى المرتبة الدنيا، وكذلك قد تأملنا ما يتصرف إليه وجوه الخطاب، من الآيات الطويلة والقصيرة، فرأينا الإعجاز في جميعها على حدٍّ واحد لا يختل»[١].

ويرى عبد القاهر الجرجاني إنّ المزية ليست بواجبة للكلمات في أنفسها ومن حيث هي على الإطلاق، ولكن تَعْرِض بسبب المعاني والأغراض التي يُوضع لها الكلام، ثم بحسب موقع بعضها من بعض، واستعمال بعضها مع بعض بل ليس من فضل ومزيّة إلا بحسب الموضع، وبحسب المعنى الذي تُريد، والغرض الذي تَؤمُّ، وإنّما سبيل هذه المعاني سبيل الأصباغ التي تُعمَلُ منها الصور والنقوش، فكما أنك ترى الرّسّام قد تَهدَّى في الأصباغ التي عمل منها الصورة، إلى ضرب من التخيُّر والتدبّر في أنفُس الأصباغ وفي مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجه لها وترتيبه إياها، إلى ما لم يَتَهدَّ إليه صاحبه فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب، وصورته أغرب، كذلك حال الناثر والشاعر في توخيهما معاني النحو ووجوهه التي علمت أنّها محصول النظم[٢].

وتشبيه النص باللوحة المرسومة غاية في دقة التوصيف؛ فكذا هو النصّ لا يتم فهم معناه إلا بكامل النظر إلى صورته، والأخذ بجميع أطرافه، وهضم دقائق إشاراته ومراميه.

والنصّ اصطلاحاً شاع في كتب اللغة المعاصرة وأصبحت له نظريات ومنظِّرون في مجالي النقد الأدبي، واللسانيات؛ فوسمت نظرياتهما باسمه، فأصبح الدرس اللغوي المتعلّق بالنصّ يعرف بـ (نحو النصّ، أو علم النصّ، أو لسانيات الخطاب، أو لسانيات النصّ)، فأخذ منظِّرو هذا النوع من اللسانيات وضع التعريفات، فجاءت تعريفاتهم متطابقة في أحيان، ومتباينة في أحايين كثيرة.

فمن الباحثين العرب من حاول تعريف النص على وفق المفهوم اللغوي العربي السائد، فقال، هو: «بناء يتركب من عدد من الجمل السليمة مرتبطة فيما بينها بعدد من العلاقات»[٣]، فلم يستطع الخروج من دائرة الجملة التي خيمت على الدرس النحوي العربي.

---

(١) إعجاز القرآن، الباقلاني: ٣٧.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني: ٨٧ – ٨٨ .

(٣) في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن: ٢٧.

ويعد النص أحد المرتكزات الأساسية التي تقوم عليها الحياة الاجتماعية؛ إذ لايمكن تصور مجتمع منسجم ومتفاهم من دون وجود نصوص تحقق له ذلك[١].

في حين اجتهد الباحثون المحدثون من المشتغلين في العربية في مسألة وضع تعريف جامعٍ مانعٍ للنصّ، ومن تلك المحاولات ما قام به الدكتور خليل أحمد خليل الذي جمع فيه المعاني العربية المختلفة التي أفادتنا بها المعجمات العربية القديمة، والتعريفات الحديثة التي أقرها باحثو اللغة العربية، فضلا عن تعريفه في المعاجم الأجنبية، فجاء تعريفه للنص أكثر شمولاً من غيره؛ فهو عنده:

يعني في المعجمات العربية: الرفع البالغ ومنه مِنَصة العروس. والنصّ كلام مفهوم المعنى، فهو مورد ومنهل ومرجع. والتنصيص المبالغة في النصّ، وصولاً إلى النصّ والنصية.

والنصّ (Text) هو النسيج، أي الكتابة الأصلية الصحيحة، المنسوجة على منوالها الفريد، مقابل الملاحظات (Notes) والشروحات والتعليقات.

والنصّ هو المدونة، والكتاب في لغته الأولى، غير المترجم، تقول: قرأت فلاناً في نصه، أي في أصله الموضوع.

والنصّ كلّ مدونة مخطوطة أو مطبوعة.

وسياق النصّ، مساقه، وهي أجزاء من نصّ تسبق استشهاداً، أو تليه، فتمدّه بمعناه الصحيح . ويقال: ضع الحدث في سياقه التاريخي. أي: في مكانه الصحيح.

والتساوق (Contexture) وهو التوالِف بين أجزاء الكلّ؛ تناسق القصيدة، وتساوق الكلام[٢].في حين يرى الدكتور صلاح فضل أن الخاصية الاولى في تحديد النص هي توافر معايير النصية وليس الطول أو الحجم[٣].

هذا من جهة علماء اللغة العرب، أمّا من جهة اللسانيين الغربيين، فتُعد أولى المحاولات لتحديد النصّ لـ ب. هارتمان سنة ١٩٦٤، وتتلخص في «أنّ اللغة المستخدمة في الواقع هي الموضوع الفعلي، العلامة الفعلية (أي اللغوية) المنظمة، وهذه العلامة –في العادة– هي النصّ؛

---

(١) ينظر: مدخل إلى علم النص، محمد الأخضر: ١٣.

(٢) ينظر: معجم المصطلحات اللغوية، خليل أحمد خليل: ١٣٦ – ١٣٧.

(٣) ينظر: بلاغة الخطاب، د. صلاح فضل: ٢١٤.

وبمعنى أدق هي نص بعينه... ويحدد النص وفق ذلك بأنه قطعة ذات دلالة، وذات وظيفة، ومن ثمّ فهي قطعة مثمرة من الكلام»[١]، وقد قصر النص على جانبي: الدلالة، والوظيفة.

ويرى زتسيسلاف وارزنياك النصّ كونه: «تتابعاً منظماً أفقياً من الإشارات اللغوية التي تُفهم على أنّها توجيهات من مرسل معين إلى مخاطَب معين»[٢]، وهذه الإشارات اللغوية قد ينضوي تحتها كلّ نشاط تفاهمي بين البشر، فتتسع دائرة اللغة وتطّرد مقاييسها بعيدا عمّا هو مألوف لدينا.

أما بول ريكور فيقترح تعريفاً للنص بقوله: «لنسمّ نصّاً كلّ خطاب تثبته الكتابة، وعلى هذا التعريف، يكون التثبيت بالكتابة مؤسسا للنصّ»[٣]، ولا يخفى علينا أهمية المدونة التي أشار إليها بول ريكور، في تحديد النص، على انّ هناك من النصوص ما قد شاع وتلقفه العقل البشري الجمعي برحابة صدر حتى قبل أن يدون؛ وخير مثال على ذلك: (الأمثال).

في حين يسمي دي سوسير كلّ شيءٍ قابلٍ للملاحظة كلاماً، ويسمي النظام لساناً[٤]، وهذا توسع في النظر إلى النص.

ويرى هاليداي أنّ الوظائف تحتلّ مكانة أولى في العملية اللغوية، ومثلما تحدّد الوظائف على صعيد اللغة؛ فإنّها تحدّد على مستوى النصّ بوصفه وحدة دلالية. وهذه الوظائف هي:

- التجريبية (ideational)، التي تظهر في مضمون الاستعمال، وتتألّف من بعدين؛ بعد تجريبي، يتعلّق بتمثيل التجربة التي يعيش فيها المتكلّم في سياق ثقافي واجتماعي معيّن. وبعد منطقي يعبّر به عن العلاقات المنطقية المجردة التي تشتق من التجربة ضمنيا.

- التواصلية (Interpersonal)، وتتّصل بالبعد الاجتماعي لوظائف اللغة التعبيرية، ويحدّد فيها وضع المتكلّم وأحكامه. أي: أنّ هذا المؤلّف يقدّم النصّ من طريق العلاقات التي تخصّ المتكلّم مستعمل النصّ.

- النصّية (textual)، التي تتضمّن الأصول التي تتركّب منها اللغة، لابداع النصّ، ليغدو

---

[١] علم لغة النصّ – المفاهيم والاتجاهات، سعيد بحيري: ٩٤ – ٩٥.

[٢] مدخل إلى علم النصّ – مشكلات بناء النصّ: ١٥.

[٣] من النصّ إلى الفعل، بول ريكور: ١٠٥.

[٤] ينظر: لسانيات الخطاب، صابر الحباشة: ٢٣.

منسجما في علاقته مع نفسه، وفي سياق المقام الذي وظف فيه[١].

والنصّ بحسب هاليدي ورقية حسن، وبوصفه مصطلحاً مستعملاً في اللسانيات النصّية ليس شكلاً تؤلّفه مجموعة الجمل المنطوقة أو المكتوبة، فحسب؛ بل هو وحدة دلالية تحكمها علاقات وظيفية، تتحقّق عبر وسائل التماسك التي تمنح النصّ وحدته الشكلية والمعنوية[٢].

فيما توسع كريستال، وهاينمان، وفيهفيجر في تعريفهم للنصّ أكثر من كونه منطوقاً أو مكتوباً، بل أدخلوا أصنافاً أخرى تشمل علامات الطريق، والصور الرمزية، والمحادثات، والتقارير الإخبارية، والقصائد، والإعلانات... وغيرها[٣]، أي: كل ما من شأنه أن يعبر عن التفاهم، والتواصل ما بين البشر[٤].

وتتسع وظائف النصّ حتى تشمل التواصلية، وسمات أخرى غيرها، لذا أبدى جون لاينز اعتراضه على التعريف الذي يجعل من النص سلسلة من الجمل المتتابعة وظيفتها التواصل، فهي في الظاهر: «ليست مجرد وحدات متصلة مع بعضها في سلسلة، إنّما ينبغي ربطها بطريقة مناسبة من حيث السياق، وعلى النصّ في مجمله أن يتّسم بسمات التماسك والترابط»[٥]، فالنصّ لديه لا يكون نصّاً إلا بوجود علاقات داخلية تنتظم فيها متواليات الجمل، وهذه العلاقات هي التماسك والترابط، وعلاقات خارجية يحكمها السياق، ويعدّ النصوص «مكونات للسياقات التي تظهر فيها، أما السياقات فيتمُّ تكوينها وتحويلها وتعديلها بشكل

---

(١) ينظر: انفتاح النصّ الروائي – النصّ والسياق، سعيد يقطين: ١٧.

(٢) See: Cohesion in English; Halliday (M.A.K.) and Ruqaya Hassan, ١-٢)

(٣) See: A Dictionary of Linguistics and phonetics, Crystal;: ٣٥٠ ،

وينظر أيضا: مدخل إلى علم اللغة النصي، هاينه من وفيهفيجر: ٤.

(٤) قد يبدو للوهلة الأولى انّ علامات الطريق، والصور الرمزية تفتقد إلى الكلمات التي هي أساس التواصل اللغوي؛ ولكن في واقع الأمر أنّ هذه العلامات والرموز إنّما بنيت على اختزال معنى معهود لدى الجماعة اللغوية، فمتى ماوجدت إحداها ذهب ذهنهم إلى ماتختزله فيها من كلمات، وحين استحضار تلك الكلمات المتفق عليها في ذهنهم – وكلٌّ بحسب ماتعنيه تلك العلامة، أو الرمز الذي يراه – تُردم الفجوة في التواصل بين: العلامة والرمز من جهة، والمتلقي من جهة ثانية؛ فتصبح العملية اللغوية التواصلية متكاملة الأركان على الرغم من الاستعانة في ذلك بالعلامات، أو الرموز.

(٥) اللغة والمعنى والسياق، جون لاينز: ٢١٨ – ٢١٩.

دائم بوساطة النصوص التي يستخدمها المتحدثون والكتاب في مواقف معينة»[١].

وأما كلاوس برينكر فيرى أنّ هناك تعريفات مختلفة للنصّ، ولا يوجد حتى الآن تعريف مقبول بوجه عام، فـ «هل يمكن عموماً أن يُطوّر مفهوم صحيح بوجه عام للنصّ، يجيز أن يحدّد ما يجب أن يعدّ نصّاً في جميع الأحوال؟»[٢]، ويجيب عن هذا السؤال بأنّ تحديد موضوع فرع علمي لا يأتي من خواص الموضوعات فحسب، بل إنّه يتبع قبل كلّ شيء أهداف دراسة العلماء أيضاً، وربّما لا يلائم التعريف المطلق للنصّ، تلك التبعية المتبادلة بين وضع الهدف، وتحديد الموضوع عند بناء نظرية ما مناسبة ووافية. ويرى أنّ علينا أنّ نفرّق بين اتجاهين رئيسين لعلم لغة النصّ، حدّدا مفهوم النصّ تحديدا متبايناً؛ الاتجاه الأول منهما يقوم على أساس النظام اللغوي، وقد استند من الناحية التاريخية إلى النظريات اللغوية السابقة؛ مثل: علم اللغة البنيوي والنحو التحويلي التوليدي، اللذين عرّفا النظام اللغوي بأنّه النظام القواعدي للغة ما، والذي يعدّ أساس الاستعمال اللغوي (الكلام/الأداء اللغوي)، بوصفه كمّاً لانهائياً من الناحية النظرية من أفعال الكلام، والأبنية اللغوية التي تنشئها المنطوقات والنصوص[٣].

وفي الحديث عن علم النص يذكر تون أ. فانديك أنّ مفهوم (علم النص) ليس بالغ القدم، فوجوده لا يجاوز العقود القريبة من الزمن[٤]، وهدف علم لغة النصّ القائم على النظام اللغوي؛ فهو «اكتشاف تلك المبادئ العامة ووصفها وصفا منظماً، وهو يرجع في ذلك سواء من الناحية النظرية – المفهومية أو المنهجية إلى حدٍّ بعيد إلى تحديدات علم لغة الجملة ذات الأصل البنيوي أو التوليدي – التحويلي. ويعبر عن هذا الترابط بوضوح خصوصاً في مفهوم النص: فيعرّف النصّ بأنّه تتابع متماسك من الجمل، غير أن هذا يعني أنّ الجملة كما كانت الحال من قبل ينظر إليها على أنها (معلم رئيسي) في تدرج وحدات لغوية؛ أي تعدّ وحدة بناء النص. والنتيجة الأهم لهذا التصور هو أن مفهوم التماسك النصي المركزي بالنسبة لعلم لغة النص قد فهم فهما نحوياً محضاً، فهو لايَسِم في هذا الاتجاه البحثي اللغوي النصي إلا العلاقات النحوية – الدلالية بين الجمل أو بين مفردات لغوية (مفردات، وضمائم، ... إلخ) في جمل متعاقبة»[٥]،

---

[١] اللغة والمعنى والسياق: ٢١٥.

[٢] تحليل الخطاب، براون ويول: ٢١ – ٢٢.

[٣] ينظر: نفسه: ٢٢.

[٤] ينظر: علم النص – مدخل متداخل الاختصاصات، تون أ. فانديك: ١٤.

متعاقبة»[١]، فالتماسك النصي على وفق وجهة النظر هذه مقصوراً على الجانب النحوي فحسب.

ويحاول دي بوجراند أن يجمع بأطراف الآراء النصية التي قيلت في النص، فالنص بحسب دي بوجراند: هو كيان لغوي متعدد المستويات يَشتملُ على أجزاء يمكن لها أو لايمكن أن تركب في صورة جمل، فهو نظام فعال، والنص لايعرف إلا تبعاً للمعايير النصية الكاملة للنصية، وسياق الموقف فالعناصر التي يمكن فهمها من الموقف مثلا من خلال الإدراك الحسي يمكن السكوت عنها، أو اقتضابها بوساطة المتكلم من دون ضرر يعود على الطاقة الاتصالية للنص[٢].

ومن العوامل التي كان لها أثر في تحديد مفهوم العلم في البحث اللساني ثلاثة تيارات هي التجريبية، والوضعية والعقلانية ،قد بسطت هيمنتها على الدرس اللساني الحديث حتى جعلت جون لاينز يقول: إنّه من دون التجريبية، والوضعية لايمكن أن نتوقع من طلاب اللسانيات أن يفهموا بعض القضايا النظرية ، والمنهجية التي ميزت بعض المدارس اللسانية من أخرى، ولاسيما في الوقت الحاضر[٣].

وقد تسنى للسانيات أن تلحق بالمعارف الكونية إذ لم تعد مقترنة بإطار مكاني ، أو بمجموعة لغوية، ولا حتى بلسان ما دون الألسن الآدمية الأخرى فهي اليوم علم شمولي لا يلتبس البتة باللغة التي يقدّم بها.

وفي هذه الخاصة تدرك المعرفة اللسانية منزلة العلم الدقيق[٤].

ونخلص إلى تعريف اللسانيات النصية، وخير من وضع تحديداً لها العالمان براون ويول: من أنها فرع من فروع اللسانيات يُعنى بدراسة مميزات النص من حيث حدّه، وتماسكه، ومحتواه الإبلاغي (التواصلي)[٥].

---

(١) التحليل اللغوي للنص، كلاوس برينكر: ٢٤.

(٢) ينظر: النص والخطاب والإجراء، دي بوجراند: ٨٩ – ٩١.

(٣) ينظر: مدخل إلى اللسانيات، د. محمد محمد يونس: ٤٣

(٤) ينظر: مباحث تأسيسية في اللسانيات، د. عبد السلام المسدي: ١٢.

(٥) ينظر: تحليل الخطاب: ٣٠.

الفصل الأول

السبك

توطئة:

يقوم معيار السبك على الترابط، وهو من اهم المعايير النصّية، إذ يعمل كالعمود الفقري في هيكل النص، ولابد من توافر شرط السبك في المنتج اللغوي كي يمكن وصفه بالنصية[١].

وهناك مقوم آخر للنص هو التأكيد على فعله التواصلي، فعلماء اللغة يؤكدون على هذه المسألة، فالنص حدث اتصالي تتحقق نصيته إذا اجتمعت فيه معايير سبعة ومن أهمها السبك[٢]. والتماسك والترابط يميزان النص من مجموعة عشوائية من الجمل[٣]، وبذلك تبرز هوية الكلام في أقصى تجلياته؛ إذ تكمن في تحوّل أجزائه بموجب جدلية الانصهار إلى بناء متكامل، يسلّم نفسه تسليما تلقائياً لجاذبية الإدراك الشمولي الذي لايتوقف عند تبيّن الأجزاء حينما يهم بإدراك مضمون البنية الكلية في نصٍّ ما[٤].

والسبك مبني على عدّة ظواهر لغوية سوف نقف عندها بشيءٍ من التفصيل، ومن أهمها:

(١) إشكالات النص، جمعان عبد الكريم: ٢٢٣.

(٢) ينظر: اتجاهات لغوية معاصرة،سعيد حسن بحيري: ١٦٧ – ١٦٨، ونحو أجرومية للنص الشعري، سعد مصلوح: ١٥٤.

(٣) ينظر: علم اللغة النظامي، د. محمد أحمد نحلة: ١٤٠.

(٤) ينظر: التفكير اللساني، د. عبد السلام المسدّي: ٤١٠.

التكرار:

التكرار أثر خاص بالدلالة فحسب؛ وإن توصل إلى ذلك باللفظ، إذ إنّ الغاية المتوخاة من التكرير هي إحداث أثر في المعنى، فـ«القصد بتكرير الاسم إنما هو تكرير المعنى أي المسمى وليس تكرير اللفظ أي انها عملية تقوم على تكرير لفظ أو استبداله بآخر دون تجدد في الخارج، فيكون الأمر من قبيل تجدد الدلالة على المعنى وتعطل تجدد الإحالة على الخارج»[(١)]، وقد دلّ التكرار في الدرس العربي القديم على معانٍ متعددة نذكر منها: التأكيد، والتقوية، والمبالغة، والتعظيم، والتعجب، والمدح والذم... وغير ذلك كثير[(٢)].

ولقي التكرار اهتماماً كبيراً من علماء العربية القدماء سواء في مباحث اللغة، أو النحو، أو البلاغة، وقد أفرد ابن جني له باباً سماه: (باب في الاحتياط) تحدّث فيه عن الهدف من التكرار في الكلام؛ فالعرب إذا أرادت المعنى مكنته واحتاطت له، ومن ذلك التوكيد، وهو على ضربين: أحدهما ، لفظي: وهو تكرار الأول بلفظه.

أما الضرب الثاني، فمعنوي: وهو تكرار الأول بمعناه[(٣)].

إنّ التكرار موائم للفطرة، ويحصل التوثيق للمعنى ودفع المساهلة في القصد إليه[(٤)]؛ ولذا يلجأ المنشئ إلى التكرار والإعادة إرادة الإبلاغ بحسب العناية بالأمر[(٥)].

وقد نظر قدماء العربية إلى التكرار من جهات مختلفة فوصفوا بعضه بالمفيد لما يقدمه من معنى واحد بمفردتين مختلفتين؛ وهذا عين ما ذهب إليه دي بوجراند؛ إذ «تتطلب إعادة اللفظ وحدة الإحالة بحسب مبدأي الثبات والاقتصاد»[(٦)].

وقد حدد اللسانيون دلالاته على مشاركته الكبرى في تماسك النص[(٧)]، فيما يصف دي

---

(١) أصول تحليل الخطاب: ١١٠٨/٢.

(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي: ١٦/٣ – ٢١.

(٣) ينظر: الخصائص، ابن جني: ١٠١/٣ – ١٠٤.

(٤) ينظر: التكرير بين المثير والتأثير، عز الدين علي السيد: ٨٦.

(٥) ينظر: الصاحبي في فقه اللغة، ابن فارس: ١٥٨.

(٦) النص والخطاب والإجراء: ٣٠٣.

(٧) ينظر: التحليل اللغوي للنص: ٦٠ – ٦٤.

بوجراند التكرار بأنه تكرار فعلي للعبارات، فـ «إعادة اللفظ (Recurrence)، هي التكرار الفعلي للعبارات. ويمكن للعناصر المعادة أن تكون هي بنفسها أو مختلفة الإحالة أو متراكبة الإحالة. ويختلف مدى المحتوى المفهومي الذي يمكن أن تنشطه هذه الإحالات بحسب هذا التنوع»[١].

وتنصب جميع أنواع هذه الإحالات على المعنى الذي يمثل هدفاً للتكرار، في حين يرى الدكتور أزهر الزناد أن التكرار هو نوع من أنواع الإحالة القبلية، وقد أطلق عليه تسمية (الإحالة التكرارية) [٢]، في حين أن الانماط التكرارية توسعت بنيَّة إحالية لا غنى للمتلقي من الاسناد إليها لتمام الفهم؛ وبذلك تعكس الإحالة التكرارية القاعدة الخلفية للعناصر الإحالية، وتضعها في الإطار الدلالي العام للنص[٣]، وقد أكد هالداي ورقية حسن الوظيفة الكبرى للتكرار في النص، فقد عدّاه أحد روافد التماسك المعجمي؛ إذ يتوزع التكرار على أنماط تبعاً لطبيعته، فمنه ما يكون بإعادة المفردة المعجمية نفسها، أو باستعمال مفردة الترادف، أو شبه الترادف، أو التضمن[٤]، ويرى الدكتور تمام حسان أنّ التكرار خير وسيلة للتذكير بما سبق[٥]، سبق[٥]، لذا فهو الوسيلة الأكثر فاعلية في عملية الربط، ومن الناحية النفسية فإنّ للعناصر المكررة أن تنطبع في الذاكرة، ومن ثم ينبغي للعملية الإجرائية أن تكون أكثر سهولة[٦].

وفي الوقت الذي انتقد فيه دي بوجراند التكرار في العبارات الطويلة، أو المقطوعات الكاملة في احتمال تسببها في إحباط الإعلامية؛ إلا أنه أثبت ما للتكرار من تأثير إيجابي في طرائق الصياغة[٧]، فيما ذهب هاينمان وفيهيفجر إلى تأييد جريماس في إطلاقه على هذا الشكل من العلاقات النحوية المفضية إلى علاقات دلالية تخص المعنى، أي: بين الوحدات المعجمية للنص، مصطلح النظائر فهي تقوم على التكافؤ الدلالي (بمعناه الواسع) بين وحدات معجمية معينة في النص، وبذلك لا يكون للملامح السطحية ألا أهمية ثانوية لتماسك النص

---

(١) النص والخطاب والإجراء: ٣٠١.

(٢) ينظر: نسيج النص، الأزهر الزناد: ١١٩.

(٣) ينظر: الإحالة التكرارية (بحث)، مليود نزار: ١١.

(٤) See: Cohesion On English: ٢٧٩,

ولسانيات النص، محمد خطابي: ٢٣٧.

(٥) ينظر: مقالات في اللغة والأدب، تمام حسان : ١٩٥/١.

(٦) ينظر: النص والخطاب والإجراء: ٣٠٤.

(٧) ينظر: نفسه: ٣٠٦.

إذ يكون العامل الحاسم هو تلك الظاهرة الدلالية في تكرار الصفة الدلالية. وتشكل الوحدات المعجمية للنصّ نفسه المترابط على ذلك النحو سلسلة تناظر/سلسلة بؤرة، وفي حال النصوص الكبيرة تكون سلاسل متعددة من التناظر شبكة التناظر للنص الكامل، وهو الذي يكون مرة أخرى عاملاً حاسماً في إمكانات إبراز تناسق النص(١).

وتقوم الإحالة على مبدأ التكرار فقد عدّ واورزنياك التكرار في ضمن الإحالة الاسمية؛ إذ تشتمل على «تكرير الاسم المحتمل. ويحدث التكرير: إمّا في صياغة متساوية في الشكل أو متنوعة صرفياً في مقابل الاسم المنطلق النصي. وتعد من الأسماء المتساوية في الشكل- أيضاً - تلك الأسماء التي تقدم تبعا لتكرير التعيين الاسمي الانتقال من المستوى النصي إلى الجدة النصية إلى المعلومة النصية، ويتحقق هذا الانتقال المسمى التبئير (Thopikalisierung) في الألمانية عادة بمساعدة معرّف (اداة تعريف)، أو إشارة (ضمير إشارة)»(٢)، وقد حدث التكرار في المقابسات بصورة كثيراً، حتى لا تكاد تخلو مقابسة منه.

ومنه ما جاء بإعادة اللفظ، أو مرادفة، أو بألفاظ تتضمن معنى اللفظ المكرر، أو بإعادة مقطع كامل، أو بالألفاظ المتضادة المعنى مع اللفظ المكرر وقد وظّف التوحيدي التكرار في مقابساته خير توظيف ولاسيما في بناء نص المقابسات وفي جعلها وحدة بنيوية متماسكة.

ومما جاء في تكرار الاسم والضمير والفعل قوله: «**قيل لأبي سليمان، وقد جرى كلام في السر وطيّه والبوح به، ما السبب في أن السر لا ينكتم البتة؟ فقال: لأنّ السر اسم لأمر موجود قد ضرب دونه حجاب**»(٣)، فقد تكرر الاسم (السر) ثلاث مرات، بينما تكرر الضمير المتصل ثلاث مرات في قوله: (طيّه، والبوح به، ودونه)، فيما تكرر الضمير المستتر(هو) ثلاث مرات في قوله: (قيل، وفقال، ولا ينكتم)، وبمجموع ما تكرر من الاسم والضمير نحصل على تسع تكرارات انصبت جميعها على موضوع المقابسة (السر) فقد عَمِل التكرار في سياق هذه المقابسة على تماسك نصها وتدعيم الوحدة الموضوعية فيها مما يعود بالرصانة على النص في سبيل خدمة موضوع المقابسة وما ينوي التوحيدي طرحه فيها ومناقشته من خلالها.

---

(١) ينظر: مدخل إلى علم لغة النص، هاينمان وفيهيفجر: ٣٩ - ٤٠.

(٢) مدخل إلى علم لغة النص، إلهام أبو غزالة: ١٣٧.

(٣) المقابسات: المقابسة السابعة: ٨٦.

وينوع التوحيدي في أنماط التكرار بما يجعل نصوص مقابساته متضمنة أنواع الأساليب العربية وفنونها البلاغية ومن ذلك مثلاً ما جاء من تكرار بالإضمار والتنويع معاً: «**قلت لأبي سليمان: ما الفرق بين طريقة المتكلمين وبين طريقة الفلاسفة؟ فقال: ما هو ظاهر لكل ذي تمييز وعقل وفهم وأدب، طريقتهم مؤسسة على مكايلة اللفظ باللفظ، وموازنة الشيء بالشيء**»[(١)]، فعلاوة على تكريره الفعل (قال)، وتكريره الألفاظ (اللفظ)، و(الشيء) فقد نوّع بالضمير المتصل (هم) في قوله: (طريقتهم) والعائد على(طريقة المتكلمين) وهذا الأسلوب يحمل معنى التكرار. إنّ مثل هذا التنويع في التكرار من شأنه أن يجعل المقابسة متماسكة بلمحة تشويقية للمتلقي لا تخلو من نُكَت جديدة في أنساق التكرار، تدفع عنه سمات الرتابة والملل.

ومن أنماط التكرار في المقابسات، التكرار بألفاظ تتضمن معنى المكرر، كما في قوله: «**وأما تخيل الموت، فلان النفس تلحظ المعاد، وتنزع إليه، وتنقلب نحوه؛ لأنّ المعاد هو المحيط الذي منه بدأ وإليه يجب أن يكون المنتهى**»[(٢)]، فقد كرّر (الموت) في قوله (المعاد) الذي يتضمن معنى الموت؛ فلا سبيل للوصول إليه إلا من بوابة الموت فحسب وقد كرّره – أي لفظ المعاد – مرتين، فيما كرّر (المعاد) مضمراً خمس مرات: أربع مرات بالضمير المتصل في: (تنزع إليه، وتنقلب نحوه، ومنه بدأ، وإليه المنتهى)، ومرة واحدة بالضمير المنفصل: (المعاد هو)، فيما تضمن لفظ (المنتهى) معنى المعاد.

ومثله قوله: «**وجرى يوماً بحضرة أبي سليمان حديث احكام النجوم فقال: من طريف ما ظهر لنا منها أنه ولد في جيرتي ابن نباتة، فقيل لي: لو اخذت الطالع**»[(٣)]، فقوله: الطالع تكرير لقوله: أحكام النجوم. فالطالع لفظ يتضمن أحكام النجوم من حيث المعنى، وفي حقيقة الأمر إنما الطالع مبني على أحكامها وأحوالها وتقلباتها.

ونلحظ أنّ التوحيدي يطرح لنا في مقابساته أنواعاً من التكرارات الكثيرة والمركبة بعضها ببعضٍ زيادة في تماسك نصوصها وإتقان نسجها، ومن التكرار بألفاظ تتضمن معنى المكرر

---

(١) المقابسات: المقابسة الثامنة والاربعون: ١٦٩.

(٢) نفسه: المقابسة الثانية والسبعون: ٢٤١ – ٢٤٢.

(٣) نفسه: المقابسة التاسعة والثمانون: ٢٦٥.

قوله: «**لو أن الأولين اجتمعوا في صعيد واحد، وأعير كل واحد قوة الباقين**»[١]، فقوله (وأعير كل واحد قوة الباقين) تساوي بمجموعها قوله (الأولين)، فإن مثل هذا التكرار يداعب فكر المتلقي ليشتغل فيه متلمساً جمالية الإحالة التي تحملها جملة كاملة على لفظ واحد في نسج نص متماسك.

وقد اعتمد التوحيدي على التكرار كثيراً في مقابساته فتارة نجده يستعين به يسيرة وتارة نجده يكثف منه وينوع ويمازج بين ألوانه وأنماطه كما سيمر علينا في هذين المثالين الآتيين: «**قال أبو سليمان، وقد جرى كلام في النظم والنثر: النظم أدل على الطبيعة؛ لأن النظم من حيّز التركيب. والنثر أدلّ على العقل؛ لأن النثر من حيز البساطة. وإنما تقبلنا المنظوم، بأكثر مما تقبلنا المنثور، لأنّا بالطبيعة أكثر منا بالعقل. والوزن معشوق الطبيعة والحسّ، ولذلك يغتفر له ما يعرض من الاستكراه في اللفظ. والعقل يطلب المعنى، فلذلك لا خطر للفظ عنده، وإن كان مُتَشَوَّقاً، معشوقاً، والدليل على أن المعنى مطلوب النفس، دون اللفظ الموشح بالوزن المحمول على الضرورة، أن المعنى متى صودف بالسانح والخاطر وتوفيّ الحكم، لم يبل بما يفوته من اللفظ الذي هو كاللباس والمعرض والاناء والظرف. لكن العقل مع هذا قد يتخيّر لفظاً بعد لفظ، ويعشق صورة دون صورة، ويأنس بوزن دون وزن، ولهذا يشقق الكلام بين ضروب النثر وأصناف النظم. وليس هذا للطبيعة، بل الذي يستند إليها من الكلام ما كان حلواً في السمع، خفيفاً على القلب، بينه وبين الحق صلة، وبين الصواب وبينه آصرة، وحكمها مخطوط بإملاء النفس، كما أن قبول النفس راجع إلى تصويب العقل**»[٢]، فقد حفل هذا النص بأنماط متنوعة من التكرار، ولاشك في أنّ هذه الأنماط لا تقتصر على التنوع الشكلي فحسب؛ بل أسهمت كثيراً في بناء النص وتماسكه ووحدة موضوعه فنجد فيه تكرير اللفظ كما في(النظم) الذي كرّره أربع مرات ومثله حصل مع لفظ (النثر) وكلاهما يمثل موضوع المقابسة الذي جاء (في النثر والنظم وأيّهما أشد أثراً في النفس) فيما كرّر اللفظين بصيغة اسم المفعول وقد وظف هذا التكرار في خدمة موازنته بين النثر والنظم، ومن تكرير الاسم – أيضاً – أن قد كرّر (الطبيعة) أربع مرات، وكرر (العقل) خمس مرات، فيما كرر (اللفظ) ست مرات وكرر (الوزن) أربع مرات، و(النفس) ثلاث مرات ، و(المعنى) مرتين.

---

(١) المقابسات: المقابسة الرابعة والخمسون: ١٨٢.

(٢) نفسه، المقابسة الستون: ١٩٦ – ١٩٧.

وقد عمد إلى التكرار بالمرادف في قوله: (اللفظ الموشح بالوزن)، وهذا تركيب يرادف (النظم) وكذلك فعل في جملة واحدة حين كرّر معانيها بالترادف فيما بينها: (من اللفظ الذي هو: كاللباس، والمعرض، والإناء، والظرف)، ثم يأتي بسلسلة من تكرير اللفظ ما إن تنتهي إحداها حتى تبدأ الأخرى: (لكن العقل مع هذا قد يتخير لفظاً بعد لفظ، ويعشق صورة دون صورة، ويأنس بوزن دون وزن)، ومن الملاحظ أن مثل هذا التكرار يخلق موسيقى داخلية في النص تجعله أكثر سلاسة على المتلقي، وأيسر هضماً على الأذن، وكل ذلك يساعد على فهم المعنى وانسيابية في فكر المتلقي وذائقته بصورة عامة.

ومن أنماط التكرار التي أثرى التوحيدي نصه هذا بها التكرار ببعض ألفاظ المكرّر في قوله: (الوزن معشوق الطبيعة، والحس)؛ فالحس بعض ألفاظ الطبيعة، وكذلك فعل في قوله: (بينه وبين الحق صلة، وبين الصواب وبينه آصِرَة)، فالصواب بعض ألفاظ الحق، وكذلك الآصرة بعض ألفاظ الصلة.

ويشيع في هذا النص تكرار الضمير، ومنه على سبيل التمثيل تكريره ضمير جماعة المتكلمين في قوله: (وإنما تقبلنا المنظوم بأكثر ممّا تقبلنا المنثور؛ لأنّا بالطبيعة أكثر منا بالعقل).

ولنأخذ المثال الثاني الذي نوهنا به، إذ يقول: «**قيل لأبي سليمان: إنّ النفس ليست قائمة بذاتها؛ لأنّا لا نجد النفس إلا في الجسم المركب، فقال: هذا كلام من لا إلف له في هذا الفن، وقد يَغْرُب الشيء من ناحية اعتياصه ودقته، وقد يغرب من ناحية بلادة الناظر فيه. إذا قلنا: النفس قائمة بذاتها، فإنّا نريد بهذا أنّه لا علاقة لها بالجسم ولا وصل، ولا فعل، ولا انفعال، ولا تحريك، ولا تصريف. بل إن قلنا: إنّ النفس في الجسم، فالمراد به أن قواها هي السابحة فيه، أو بادية عليه، فإن قلنا: إنّ النفس قائمة من دون الجسم بذاتها، فالمراد بذلك– أيضاً – أنّها غير ملابسة له كملابسة الدُّهن للماء. ومدار الخبر عن النفس والبدن على تصفية المعقول منه، لا على تسليط الحس عليه، ونقل التشبيه والتمثيل إليه. ألا تعلم أن الشيء في الشيء على فنون، كالسياسة في السائس، والسائس في السياسة، وكالماء في الحُبِ، وكالحُبِ في البيت، وكالبيت في الفضاء. فقد يُلحظ العرَض في الجوهر، ويلحظ البسيط في المركب، على شكل غير شكل المركب في البسيط. ثم بيْنَ الذي قِسْطُه من البسيط على قدر، وبين الذي**

قسطه من البسيط على قدر آخر، فرق بالضعف والقوة، وهكذا الحال في المركب والتركيب. وبهذا العَرَض الموهوم حصل بين الشبيهين فرق غامض لا يقف عليه إلا من توغل وتغلغل، وحصل بين المتباينين شبَهٌ خافٍ ولا يسبق إليه إلا من تخلل وتوصل. ولهذا ما صار جُلُّ النظر والبحث، بل الغالب الغامر، إنما هو في إيضاح الفرق بين متماثلين لشدة تماثلهما، وإيضاح الشبه بين متباينين لشدة تباينهما. فليكن هذا من دعائم العلم عندك، حتى يخف عليك طلب ما أَشكل، واستيضاح ما غمض»[(١)].

يحفل هذا النص بأنماط التكرار المتنوعة إذ يجمع بين دفتيه مجاميع متعددة من سلاسل التكرارات، فمن تكرار اللفظ نجده كرر(النفس) ست مرات، و(الجسم) أربع مرات، وكلا اللفظين مدار موضوع المقابسة الذي جاء (في أنّ النفس ليست قائمة بذاتها؛ لأنّا لا نجدها إلا في الجسم المركب) ويحمل هذا التكرار لموضوع المقابسة(النفس والجسم) ثنائية الحياة وتقليب الموضوع في حوار المقابسة من محاوره المتعددة، وزواياه المحتملة.

فيما كرّر (البسيط) أربع مرات، و(المركب) ثلاث مرات؛ وهذا التقارب في عدد مرات تكرارهما يرصد أهميتهما الرئيسة في موضوع المقابسة وفي نصها المطروح بين يدي المتلقي، ثمّ تَمرُّ إلى ثنائية في التكرير تتوزع بين الأسماء والأفعال ومنها: (الشيء) و(الحب)، و(البيت)، و(شكل)، ومن الأفعال (يغرب)، وتنساب هذه الثنائيات التكرارية مع ثنائية الموضوع الذي أثارته المقابسة (النفس) و(الجسم) في حين يصب كل ذلك في تماسك موضوعها عامة.

ويشيع فيها – أيضاً – تكرار الضمير سواء منه المتصل كما هو الحال مع الضمير (الهاء)، أو المنفصل كـ(هي)، ومن أنماط التكرار نجد – أيضاً – التكرار بالمرادف كما جاء في (الجسم)، و(البدن) و(أشكل)، و(غمض)، ومنه تكرار الشبيه بالمرادف كما في(المركب)، و(التركيب)، و(توغل)، و(تغلغل)، و(متابين)، و(تباينهما)، ونجد – أيضاً – التكرار بالمضاد كما في (العرض، والجوهر)، و(البسيط والمركب)، و(الضعف، والقوة)، و(الشبيهين، والمتابينين)، وهكذا يثري التوحيدي نصوص مقابساته بالتكرار بأنماطه المختلفة المتداخلة فيما بينها، ولا يقف عند حدود تنوعه أو شكليته؛ بل يتطور ليصبح أداة فاعلة في بناء تماسك النص وانسجامه.

---

(١) المقابسات: المقابسة السادسة والسبعون: ٢٤٦ – ٢٤٧.

وللتكرار علاقة وطيدة مع مقابسات التوحيدي فهو سمة لا تخلو منه أي مقابسة؛ لذا فهو أداة مهمة من أدوات أسلوب التوحيدي في عرض نصوص مقابساته وإدارة موضوعاتها، وتحقيق اهدافها في الإثبات، أو النفي، وفي تجسيد فكر التوحيدي، وما يؤمن به من عقيدة فلسفية، وما ينتمي إليه من ثقافة علمية، وما يميزه من باقي أقرانه في هذا اللون من الأدب النثري.

التحديد:

التحديد الذي يطرحه دي بوجراند، يناظر التعريف والتنكير في العربية؛ ولكنه يأخذ لدى دي بوجراند أبعاداً أُخَر متنوعة سواء كانت نظرة المرء إليه منطقية، أو نفسية، إذ ينطبق وصف التحديد على الكثير من الأمور التي لا نحتاج إلى صلاحيتها للتعرف عليها في صورة موضوعات خاصة، حيث يكون التعريف بين الإحالة الصالحة؛ للتعرف من جهة كونها مادة مطروحة وجودياً، وبين الإحالة المطروحة من حيث هي طرح يراد من ورائه قصد لدى المؤلف(١).

ومن المعلوم أن للتحديد عند دي بوجراند أدوات في التعريف والتنكير، وفي الوقت الذي أثبت فيه ذلك فإنه ينسب إلى أداة التعريف أنها تتقدم العبارات الدالة على ما سبق ذكره، كما ينسب إلى أداة التنكير أنها تسبق ما لم يذكر من قبل(٢).

ومن الملاحظ على العربية انعدام العلامات اللفظية الدالة على النكرة فيما تُوجد العلامات اللفظية الدالة على التعريف: «فالمعرفة: مضمر، وعلم، ومشار به، ومنادى، وموصول، ومضاف، وذو أداة، وأعرفها ضمير المتكلم ، ثم ضمير المخاطب، ثم العلم، ثم ضمير الغائب السالم من إبهام، ثم المشار به، والمنادى، ثم الموصول، وذو الأداة، والمضاف بحسب المضاف إليه، وقد يعرض للمَفوق ما يجعله مساوياً، أو فائقاً، والنكرة ما سوى المعرفة»(٣).

ومع الطرح الذي تطرحه العربية فيما يتعلق بالتعريف والتنكير إلا أنّ دي بوجراند يطرحه طرحاً جديداً مستعيناً في ذلك بأمثال من الواقع اللغوي.

فالتعريف «وضع للعناصر الداخلة في عالم النص إذ تكون وظيفة Function كل منها لا تحتمل الجدل في سياق الموقف. ومعنى أن تحدد الوضع Status باسم علم مثلاً أو بصفة هي معرفة إنّك تقول للسامع أو القارئ إنّ المحتوى المفهومي المضبوط ينبغي أن يكون سهل الاستحضار على أساس المساحات المعلومية المنشطة بالفعل. أمّا عناصر النكرات Indefinite

(١) ينظر: النص والخطاب والإجراء: ٣٠٧.

(٢) ينظر: نفسه: ٣٠٧.

(٣) شرح التسهيل، ابن مالك: ١/١١٥.

فتتطلب من ناحية ثانية تنشيطاً لمساحات معلومية أخرى»[١]، ولإكمال وجهة نظره في التحديد فإنّه يضع مجموعة من المحددات للمعرف يمكننا أن نستهدي بها لمعرفته والاستدلال عليه؛ إذ أثبت له مجموعة من المحددات: العناصر المذكورة سابقاً في النص، والعناصر المخصصة المعهودة في المعلومات المشتركة لمستعملي اللغة في إحدى طبقات التفاهم التواصلي، وكيانات الوقائع المختزنة ضمناً للمعلومات العامة لمستعملي اللغة الذين تجمعهم معرفة شخصية، والعناصر ذات التفرد التي يعرفها كل عضو ذي حواس من الجماعة الاتصالية، وعناصر التعويض التي يفرضها مطلب التماسك لعالم النص، والعناصر الإنموذجية التأصيلية التي تؤدي مهمة أمثلة للأقسام، والعناصر التفضيلية التي تحتل أقصى موقع في أي تدرج للمتغيرات، والعناصر العلائقية التي يمكن الوصول إليها بوساطة الوصلات الإنموذجية المحددة المأخوذة من العناصر المعرفة، في حين لا يصلح معيار التعريف بسبب التفرد؛ لأنّه يشمل هذه الاستعمالات المختلفة، بل الغالب ألّا يكون للعناصر المعرفة هوية غير المطلوب لها في موقف معين تظهر فيه، في حين اكتفى بوصف علامات التنكير بأنها لا تشكل عالم قصة موحد؛ فعلامات التنكير هي تعليمات لتنشيط مساحات جديدة بدلاً من استعمال ما سبق تنشيطه[٢]، ولهذا فهو يعطي للنكرة انزياحاً في البعد المعرفي لدى مستعملي اللغة وهذا البعد يعود بالفائدة من قريب أو بعيد على المعنى المراد تمريره عبر نص ما إلى المتلقي.

وللتحديد أهمية كبرى في تماسك النص في مقابسات التوحيدي؛ إذ يعوّل عليه كثيراً، ولاسيما في بداية كثير من مقابساته، ففي بداية المقابسة الثالثة — مثلاً – ورد لفظ (الأخلاق)، إذ يقول فيها: «**جرى عند ابن سعدان يوماً كلام في الأخلاق، وحضره جماعة منهم عيسى بن ثقيف الرومي**[٣]**، وابن السمح، وغير هؤلاء من مشايخ النصارى، وكانوا متحزمين بالفلسفة ومحبين لأهلها، فكان محصول ذلك: من أراد أن يكسب نفسه هيئة جميلة، وسجية محودة، بتهذيب الأخلاق وتقويمها**

(١) النص والخطاب والإجراء: ٣١٠.

(٢) ينظر: النص والخطاب والإجراء: ٣٠٨ – ٣١٠.

(٣) الأصل: (عيسى، ونظيف الرومي)؛ وصححته بالاعتماد على نسخة المقابسات بتحقيق حسن السندوبي، المقابسة الثالثة: ١٣٩.

وتطهيرها من الأدناس التي تعتريها، تقسمه أمران متباينان: أحدهما عسر ذلك وإباؤه، وتعذره والتواؤه، فيظن لذلك أن الأمر الذي يحاوله معجوز عنه، وأنه غير مقدور عليه، وأنّه مؤيس منه، وأنّ الوصول إليه محال، والآخر: استجابة ذلك وانقياده ومطاوعته وإمكانه؛ فيظن لذلك أن الغاية التي يؤمها باجتهاده وقصده ورأيه وعزمه، دانية معرضة سهلة قريبة»[1]، فمع كونه مسبوقاً بأداة التعريف (أل)؛ إلا أنّه لا يعد معرفة، فوجود هذه الأداة في هذا الموضع لا يعدو كونه وجوداً شكلياً لا غير، فلا أثر لعملها في التعريف إطلاقاً فهو نكرة؛ والسبب مجيؤه ابتداءً، ويذهب دي بوجراند إلى بطلان القاعدة التي تقول: باستعمال أداة التنكير لأول مذكور، وأداة التعريف لما يذكر بعد ذلك، وأنّه مع اطراد الاتصال باللغة بين المتصلين فهم يجدون أنفسهم أحراراً في استعمال خلاف المطلوب، للوصول إلى الأثر الاتصالي؛ ولذا فالإتيان بالعناصر المعروفة في استهلال نص ممّا لا يعارض الوضع في مسألة التفريق بين النكرة والمعرفة[2].

ولكن بعد أسطر قليلة يعيد التوحيدي اللفظ مرة ثانية، وهذه المرة جاء اللفظ معرفاً في الشكل والجوهر، ولعلّ الذي أفاد في تعريفه وروده في أول النص، كما وجه بذلك دي بوجراند فيما مرّ ذكره، فلفظ (الأخلاق) اكتسب التعريف عند تكريره في نص المقابسة، ومكنه في ذلك إحالته على اللفظ الأول؛ فقد أصبح معهوداً لدى المتلقي.

ومن الملاحظ على هذا اللفظ في نص هذه المقابسة ومع مجيئه مع أداة التعريف فإنه قد جاء مرة نكرة في مستهل النص، ومرة ثانية معرفة؛ ومع ثبات صيغته في كلتا الحالتين، وعدم دخول أي أداة أخرى عليه، وعدم إضافته إلى شيء آخر، ولكن السبب في ذلك هو إحالة اللفظ المذكور ثانية على اللفظ الذي جاء في مستهل النص.

إنّ مثل هذا الحراك الذي يحدث في داخل النص أسهم وبصورة كبيرة في تماسكه إذ أسهم التحديد في ذلك.

ونلج في مقابسة أخرى يتجسد فيها التحديد بشقيه المعرفة والنكرة؛ إذ جاء فيها: «**خرج**

---

(١) المقابسات، المقابسة الثالثة: ٨٠.

(٢) ينظر: النص والخطاب والإجراء: ٣١٨.

أبو سليمان يوماً إلى الصحراء في بعض زمان الربيع قصداً للتفرج والمؤانسة، وصحبته، فكان معنا أيضاً صَبيّ دون البلوغ، جَهْمُ الوجه، بغيض المُحيّا، شتيم المنظر؛ ولكنه كان مع هذه العورة، يترنم ترنماً يفرج عن جُرْم تَرِف، وصوت شجٍ، ونغمة رخيمة، واطراق حلو. وكان معنا جماعة من طُرَّاق[١] المحلة، وفتيان السكة، ليس فيهم إلا من يتأدب تأدباً يليق به ويغلب عليه. فلما تنفس الوقت، أخذ الصَبيّ في فنه، وبلغ أقصى ما عنده. فترنح أصحابنا، وتهادوا، وطربوا»[٢]، فقد ورد ذكر (الصبيّ) في بداية النص وكان نكرة غير معرفة؛ لمجيئه أول مرة، وبعد أن يمضي التوحيدي في سرد المقابسة يعود علينا ذكر (الصبيّ) وهذه المرة جاء معرفة بسبب إحالته على اللفظ المذكور أولا وتنوع أنماط التحديد في المقابسات؛ فإذا ما طالعتنا المقابسة الخامسة والأربعين نجد نمطاً مغايراً لما مرّ علينا، إذ يقول فيها: «**ذاكرت طبيباً، شاهدته بجند يسابور، بشيء من العلم. فما أذكر تلك المذاكرة، وتلك الفائدة، وتلك المسألة، الا سنح شخص ذلك الشيخ، وكان يكنى أبا[٣] الطيِّب، لعيني، وتمثل في وهمي، وحتى كأني أراه قريباً مني، وحاضراً عندي. وطال عجبي من ذلك**»[٤]، فقد ورد لفظ (طبيباً) في مستهل النص وهو نكرة، ثم بعد ذلك يعرّف ذلك اللفظ؛ ولكن الذي حصل في عملية التحديد هذه أنّه قد عُرّف بمعرِّفين هما: (الشيخ)، و(أبا الطيِّب) وإنما حصل ذلك بسبب وقعه الإيجابي في نفس التوحيدي، وأهميته في نص المقابسة، فقد جاء نكرة في أول المقابسة بسبب جهل التوحيدي بشخصه وعمله قبل مذاكرته؛ أمّا بعد أن سمع منه، وأخذ منه العلم؛ ولأثر ذلك الشخص في حياته لاحقاً وعلمه فقد عرّفه بمعرّفين تثميناً لأثره الكبير في شخص التوحيدي في قابل أيامه بعد حدوث تلك المعرفة والمذاكرة، وقد كان للتحديد أيمّا أثر في بناء نص هذه المقابسة، وتماسكه بهذا النمط المكثّف والتحديد المكرر.

وفي مثال آخر يؤكد وجهة نظر دي بوجراند في أنّ المذكور أولاً لا يكون إلا نكرة، وإن

---

(١) الأصل: (أطراف)، وأثبتّ: (طُرَّاق) من نسخة المقابسات بتحقيق حسن السندوبي؛ لما رجّحه السياق، المقابسة التاسعة عشرة: ١٦٣.

(٢) المقابسات، المقابسة التاسعة عشرة: ١٠٠ – ١٠١.

(٣) أثبتّ لفظ (أبا) من نسخة المقابسات التي حققها حسن السندوبي؛ لما رجّحه السياق في ذلك، المقابسة الخامسة والأربعون: ٢١٤.

(٤) المقابسات، المقابسة الخامسة والاربعون: ١٥٨.

جاء مع أداة التعريف؛ بل إذا ذُكر ثانية صار معرّفاً بإحالته على اللفظ الأول، في قوله: «**وقد سُئل عن الواحد، فقال: الواحد اسم مشترك يدلُّ على معانٍ كثيرة، وأحدها، وهو أحقها بهذا الاسم، واحد بالعدد**»[1]، فمع انعدام المسافة النصية بين اللفظين إلا أن الأول نكرة، والثانية معرفة بحسب مبدأ التحديد لدى دي بوجراند.

وهكذا أفاد التوحيدي كثيراً من مبدأ التحديد في بناء مقابساته، والإسهام في تماسكها النصيّ.

(١) نفسه، المقابسة الثانية والثمانون: ٢٥٣.

الإحالة:

الإحالة مصطلح يستعمل في اختصاصات متنوعة منها: علم الدلالة، والتداولية، وفلسفة اللغة، والأدب، ولسانيات النص، وينظر إلى النص بعامة على أنه نظام إحالي[١].

وتنظم الإحالة العلاقة ما بين العبارات، والأشياء، والأحداث، والمواقف، ففي الحين الذي تكون فيه الإحالة هي العلاقة بين العبارات، والأشياء (Objects)، والأحداث (Events)، والمواقف (Situations) في العالم الذي يُدل عليه بالعبارات ذات الطابع البدائلي (Alternative) في نص ما، إذ تشير إلى شيء ينتمي إلى نفس عالم النص؛ أمكن أن يقال عن هذه العبارات إنها ذات إحالة مشتركة (Co-Reference)[٢].

الإحالة، لغة:

الجذر اللغوي للإحالة في العربية (ح، و، ل)، ومن معانيه اللغوية: «أحَلْت عليه بالكلام: أقبلت عليه»[٣]، وكذلك تأتي بـ«معنى انصبَّ، وحال الماء على الأرض يحول عليها حَوْلاً، وأحلته أنا عليها أُحيله إحالة، أي: صببته، وأحال الماء من الدلو، أي: صبَّهُ، وقَلَبَهُ»[٤]، في حين أن من المعاني المجازية للاتباع الإحالة «يقال: أُتْبِعَ فلان بفلان، أي: أحيل عليه، وأتبعه عليه: أحاله وهو مجاز»[٥].

ومن الملاحظ على المعنى المعجميّ المذكور سابقاً؛ وجود طرفين في الحدث اللغوي: طرف قريب ينتهي إليه الحدث اللغوي، وطرف أبعد يقوده إلى الأول قوة محركة هي ما تعرف بالإحالة في اصطلاح اللسانيين و كما سنرى.

---

(١) ينظر: نظرية النص، د. حسين خمري: ٤٣.

(٢) ينظر: النص والخطاب والإجراء: ٣٢٠.

(٣) لسان العرب، مادة (ح، و، ل): ١٣/ ١٠٥٩.

(٤) نفسه: ١٣/ ١٠٥٩.

(٥) تاج العروس، الزبيدي ، مادة (ت، ب، ع): ٣٨٣/٢٠.

الإحالة في الدرس اللغوي العربي:

سلط الدرس اللغوي العربي الضوء على الإحالة بوصفها ظاهرة لغوية؛ ولاسيما عند النحويين، والمفسرين، والبلاغيين في عصر دارت فيه رحى العلوم والمعارف حول كتاب الله العزيز القرآن الكريم الذي طرحت معجزته بإطار لغوي خالص ليتضمن كنوز الأسرار من البدائع الإلهية فصار البحث في ميدان اللغة منصباً عليه؛ ولخدمته واستظهار معانيه ووجوه إعجازه ونكته اللغوية والبلاغية والأسلوبية.

فجاء الاهتمام بالإحالة من المشتغلين بالتفسير، واللغة، والبلاغة، والأدب في جملة بحوث معمقة لسبر غور لغة القرآن الكريم، لذا سنسلط الضوء على جوانب من تلك الاهتمامات وبإيجاز.

أولاً: النحويون:

برع النحويون القدماء في دراسة العديد من أساليب اللغة، وبسطوا البحث في جوانب متعددة منها إذ أصبحت فيما بعد تدرس في ضمن نظريات لسانية حديثة، ومن ذلك اهتمامهم بالإحالة.

فقد أشار سيبويه على وظيفة المعوضات، أو الأسماء المبهمة التي تمتلك سمة الإحالة، إذ يقول: «فأما المبني على الأسماء المبهمة فقولك: (هذا عبد الله منطلقاً)... فهذا اسم مبتدأ يبنى عليه ما بعده وهو: (عبد الله). ولم يكن ليكون هذا كلاماً حتى يبنى عليه أو يبنى على ما قبله. فالمبتدأ مسند والمبني عليه مسند إليه فقد عمل هذا فيما بعده»[(١)]، ويعد كلامه هذا إشارة إلى (الإحالة المقالية البعدية)، كما وأن له كلاماً يخص الإحالة البعدية في قوله: بدؤوا بالإضمار؛ لأنهم شرطوا التفسير وذلك نووا، ومثل ذلك: (رُبَّه رجلاً)، و(نعم رجلاً)، ولا يجوز أن تقول: (نعم)، ولا (ربه) وتسكت؛ لأنهم إنما بدؤوا بالإضمار على شريطة التفسير، وإنما هو إضمار مقدم قبل الاسم، والإضمار الذي يجوز عليه السكوت نحو: (زيد ضربته) إنما أضمر بعد ما ذكر الاسم مظهراً صريحاً، فالذي تقدم من الإضمار لازم له التفسير حتى يبينه، ومما يضمر لأنه يفسره ما بعده، ولا يكون في موضعه مظهر قول من قال من العرب: (إنّه كِرامٌ قومُك)، فالهاء

(١) الكتاب، سيبويه: ٢/٧٨.

إضمار الحديث الذي ذكرت بعد الهاء، وهذا من أساليب العرب في مأثور كلامهم[١]، ومن «الملاحظ أن النحو العربي تناول هذه القضية من منظور آخر يعتمد على تصنيف الألفاظ إلى ألفاظ غير مبهمة وهي الألفاظ التي لها دلالة، والتي تحيل بمفردها على خارجها في الواقع، وألفاظ مبهمة لها دلالة لكنك لا تعرف لها خارجاً إلا متى توفر مفسرها، وهذا المفسر قد يكون مقامياً وقد يكون مقالياً»[٢]، فيما تكلموا عن الضمير وعائديته، وعن قرينة الرتبة في تحديد عائده المتقدم أو المتأخر، إذ يرى الرضي الإسترابادي عند كلامه عن الضمير في مثل: (ضرب غلامه زيد) «لابد من متقدم يرجع إليه هذا الضمير تقدماً لفظياً، أو معنوياً وهو راجع إلى (زيد) وهو متأخر لفظاً، فلولا أنه متقدم عليه من حيث المعنى لم يجز، فجعله من باب المتقدم معنى لا لفظاً، وهو الحق»[٣].

وبعد ذاك؛ فقد تنبه علماء النحو العربي إلى أهمية الضمير في عملية ربط الكلام وما يقوم به من وظيفة في تماسك الكلام وربط أجزائه، ومن النحويين الذين أشاروا إلى عمل الضمير هذا؛ ابن مالك، وابن يعيش، والرضي الاسترابادي وابن هشام... وغيرهم، وقد فصّل ابن هشام في وظيفة الضمير في ربط الجمل فذكر سبعة أبواب يعود فيها اللفظ على لاحق، وهي:

أولاً: أن يكون الضمير مرفوعاً بـ(نعم)، أو (بئس)، و لا يفسر إلا بالتمييز، نحو: (نعم رجلاً زيد).

ثانياً: أن يكون الضمير مرفوعاً بأول المتنازعين المُعْمَل ثانيهما، نحو:

جفوني ولم أجفُ الأخلاءَ؛ إنني لغير جميل من خليليَّ مهمِلُ

ثالثاً: أن يكون مخبَراً عنه فيفسره خبره، نحو قوله تعالى: ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا﴾[الأنعام:٢٩].

رابعاً: ضمير الشأن والقصة، نحو قوله تعالى: ﴿قل هو الله أحد﴾[الإخلاص: ١].

خامساً: أن يجر برُبَّ مُفَسَّراً بتمييز، وحكمه حكم ضمير نعم وبئس في وجوب كون مفسره تمييزاً وكونه هو مفرداً، نحو: (رُبَّهُ امرأةً).

---

(١) ينظر: الكتاب: ٢/١٧٥ - ١٧٦.

(٢) أصول تحليل الخطاب: ١/١٢٥.

(٣) شرح الرضي على الكافية: ٢/ ٤٠٤.

سادساً: أن يكون مبدلاً منه الظاهر المفسر له، نحو: (ضربته زيداً).

سابعاً: أن يكون متصلاً بفاعل مقدم، ومفسره مفعول مؤخر، نحو: (ضَرَبَ غُلَامُه زَيْداً)[١].

فيما ذكر عشرة أبواب للحديث عن ربط الضمير العائد على متقدم رتبة، أو ما نطلق عليه الإحالة على السابق[٢]، وكذلك عد الأشياء التي تحتاج إلى الربط في أحد عشر صنفاً[٣].

وقد أشاروا إلى وجه الشبه بين اسم الإشارة والضمير في الإحالة، ومنهم ابن يعيش بقوله: «إنما بني اسم الإشارة لشبهه بالمضمر؛ وذلك لأنك تشير به إلى ما بحضرتك ما دام حاضراً فإذا غاب زال عنه ذلك الاسم، والأسماء موضوعة للزوم مسمياتها؛ وبما كان هذا غير لازم لما وضع له صار بمنزلة المضمر الذي يُسمّى به إذا تقدم ظاهر ولم يكن اسماً له قبل ذلك فهو اسم المسمّى في حالٍ قلّما وجب بناء المضمر وجب بناء المبهم كذلك»[٤]، فيما يرى الرضي الاسترابادي أن لفظ الإشارة الموضوع للبعيد «(ذلك) ونحوه، كضمير الغائب، يحتاج إلى مذكور قبلُ، أو محسوس قبلُ، حتى يشار إليه به، فيكون كضمير راجع إلى ما قبله»[٥]، وجعل الرضي الاسترابادي كذلك الجملة في الأصل كلاماً مستقلاً، فإذا أردنا جعلها جزء الكلام فلابد من رابطة تربطها بالجزء الآخر، وتلك الرابطة هي الضمير، وهو الموضوع لمثل هذا الغرض[٦].

---

(١) ينظر: مغني اللبيب، ابن هشام الأنصاري: ٢/ ٤٨٩ – ٤٩٢.

(٢) ينظر: نفسه: ٢/٤٩٨ – ٥٠٢.

(٣) ينظر: نفسه: ٢/ ٥٠٢ – ٥١٠.

(٤) شرح المفصل، ابن يعيش: ٣/ ١٢٦.

(٥) شرح الرضي على الكافية: ٢/٤٧٩.

(٦) ينظر: نفسه: ١/٢٣٨.

ثانياً: البلاغيون:

أفاد البلاغيون كثيراً من وجهة نظر النحاة في وجوب المطابقة في الضمائر، وأقاموا حديثهم في الالتفات، فأسلوب الالتفات تتنازعه علوم البلاغة الثلاثة المتمثلة في: المعاني، والبيان، والبديع، وهذا وجه من وجوه وحدة علوم البلاغة وارتباطها فيما بينها ارتباطاً وثيقاً(١).

ويقصد بالالتفات العدول من الغيبة إلى الخطاب، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وقالوا اتخذَ الرحمنُ ولداً، لقد جِئتُم شيئاً إِدّاً﴾[مريم: ٨٨- ٨٩]، ولو أراد الغيبة لقال: لقد جاؤوا شيئاً إِدّاً؛ وإنما عدل عنه إلى الخطاب لإيقاظ السامع وتنشيطه.

وكذلك يقصد بالالتفات العدول من الخطاب إلى الغيبة كما في قوله تعالى: ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة﴾[يونس: ٢٢]، فالالتفات هنا يتم بالانتقال من خطاب جماعة الحضور في قوله تعالى: (كنتم)، إلى خطاب جماعة الغائبين في قوله تعالى: (بهم)(٢).

في حين عرض عبد القاهر الجرجاني إلى القسم الثاني من الإحالة ألا وهو(الإحالة المقامية) إذ كان له عناية كبيرة بسياق المقام، ولاسيما في محاولته الوقوف على تفسير النصوص متوخياً مبدأ التحليل اللغوي الذي برع فيه وفي ضوء رصد علاقة اللغة بالسمات والتغيرات في العالم الخارجي الذي تجري فيه، فأطل علينا بكلامه في المعنى ومعنى المعنى، ما نصل إليه بظاهر اللفظ وهذا هو المعنى، نحو: (خرج زيدٌ)، فإذا لم نصل إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده بل وجِدَ لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض؛ فذاك معنى المعنى، أولا ترى أنك إذا قلت: (هو كثير رماد القدر)، فإنك لا تفيد غرضك الذي تعني من مجرد اللفظ، ولكن يدلّ اللفظ على معناه الذي يوجبه ظاهره، ثم يعقل السامع من ذلك المعنى، وعلى سبيل الاستدلال معنى ثانياً هو غرضك، كمعرفتك من (كثير/القدر) أنه مضاف، وكذلك تعلم من قوله: (بلغني أنك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى) أنه أراد التردد في أمر البيعة، واختلاف العزم في الفعل وتركه؛ لا المعنى

(١) ينظر: الإيجاز في علم المجاز، الظفيري: ٤٢، والإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني: ٧٢ – ٧٥.

(٢) ينظر: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة، اليمني: ٢٦٥ – ٢٦٧، والإحالة، شريفة بلحوت: ٤٥ – ٤٦.

الظاهر من التقديم والتأخير لقدميه[١].

ثالثاً: المفسرون:

اهتم المفسرون بالضمائر كثيراً، وبخاصة بما تؤديه من وظائف في الجملة القرآنية متمثلة بالإحالة، وجار الله الزمخشري في(كشافه) كان خير من اعتمد هذا المنهج، فقد ذكر بوصفه لغوياً ومفسراً وبلاغياً مباحث في علم المعاني وعلم البيان تتضمن – على سبيل المثال – أسرار التعبير باسم الإشارة، واسم الموصول، وأنواع الالتفات فيما يخص استعمال الضمير.

وتنبه العرب القدماء إلى الوظيفة التي تقوم بها (الإحالة) في الكشف عن المعاني عن طريق ربط أجزاء الخطاب، وتميز هذا التنبه إلى احتمال تعدد ما يحيل إليه الضمير وما يشير إليه اسم الإشارة[٢]، فحينما وصل إلى قوله تعالى: ﴿واستعينوا بالصبرِ والصلاةِ وإنَّها لَكَبيرة إلا على الخاشعين﴾[البقرة: ٤٥]، قال معقباً: «و(إنها) الضمير للصلاة أو للاستعانة، ويجوز أن يكون لجميع الأمور التي أُمر بها بنو إسرائيل ونُهوا عنها من قوله: (اذكروا نعمتي) إلى (واستعينوا)»[٣]، ومن تعدد الإحالة ما أشار إليه الفخر الرازي في قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنَزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالحَقِ لِيَحْكُمَ بَينَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[البقرة:٢١٣] إذ قال: . فعلم أن قوله (ليحكم) فعل لابد من استناده إلى شيء تقدم ذكره، وقد تقدم ذكر أمور ثلاثة، فأقربها إلى هذا اللفظ: الكتاب، ثم النبيون، ثم الله، فلا جرم كان إضمار كل واحد منها صحيحاً، فيكون المعنى: ليحكم الله (جلّ جلاله)، أو النبي المنزل عليه، أو الكتاب، ثم إن كل واحد من هذه الاحتمالات يختص بوجه ترجيح، أما الكتاب؛ فلأنه أقرب المذكورات، وأما الله (جلّ جلاله)؛ فلأنه سبحانه هو الحاكم في الحقيقة لا الكتاب، وأما النبي؛ فلأنه هو المظهر فلا يبعد أن يقال: حمله على الكتاب أولى، أقصى ما في الباب أن يقال: الحاكم هو الله، فإسناد الحكم إلى الكتاب مجاز إلا أن نقول: هذا المجاز يحسن تحمله لوجهين:

---

(١) ينظر: دلائل الإعجاز: ٢٦٢ – ٢٦٣.

(٢) ينظر: لسانيات النص، خطابي: ١٧٣.

(٣) الكشاف، الزمخشري: ٧٥ .

الأول: أنه مجاز مشهور، يقال: حكم الكتاب بكذا، وقضى كتاب الله بكذا، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا القُرآنَ يَهدِي لِلَّتِي هِيَ أَقوَمُ وَيُبَشِّرُ المُؤمِنِين﴾[الإسراء:٩]؛

والثاني: أنه يفيد تفخيم شأن القرآن وتعظيم حاله»[(١)]، وهنا نلاحظ أن تعدد الإحالة أمر مسوغ لدى الرازي بقرينتين: إحداهما: نحوية، وهي عود الضمير على الأقرب، والثانية: بلاغية، تعتمد على عاملي(الحقيقة والمجاز)، ففي حال عود الضمير على لفظ الجلالة (الله) كانت الإحالات حقيقية، ذلك أن بعث النبيين وإنزال الكتب أفعال صادرة منه جلّ شأنه.

وإذا أحيل إلى الكتاب كان الإسناد مجازياً بحكم الاستعمال المتعارف عليه، والحقّ أن الذي جعل إحالة الضمير المستتر متعددة هو ورود الفعل حراً غير مقيد بأي قرينة[(٢)]، وهذا قد أسهم من جانبه في إثراء الجانب الدلالي الذي يؤديه النص القرآني في هذه الآية الكريمة.

ومنه أيضاً ما ذهب إليه ابن عاشور في تعدد المحال إليه، وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿الذين آتينَاهُم الكِتَابَ يعرفونُهُ كَمَا يَعرِفُون أَبنَاءهُم وإنّ فريقاً مِنهم لَيكتِمُون الحقَّ وَهُم يَعلَمُون﴾[البقرة: ٤٦] إذ يقول: «فالضمير المنصوب في(يعرفونه) لا يعود إلى تحويل القبلة؛ لأنه لو كان كذلك لصارت الجملة تكريراً لمضمون قوله تعالى: ﴿وإن الذين أوتُوا الكتَابَ لَيعلمُون أنَّه الحقُ مِن رَبِّهم﴾[البقرة: ١٤٤] ، بل هو عائد إما إلى الرسول إن لم يسبق ذكر مناسب لضمير الغيبة لكنه قد علم من الكلام السابق وتكرر خطابه فيه من قوله: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها﴾[البقرة: ١٤٣]، وقوله: ﴿قد نرى تقلب وجهك﴾[البقرة: ١٤٤]، وقوله: ﴿فلنولينك قبلة﴾[البقرة: ١٤٤]، وقوله: ﴿فول وجهك﴾[البقرة: ١٤٤]، فالإتيان بالضمير بطريق الغيبة من الالتفات، وهو على تقدير مضاف، أي يعرفون صدقه، وإما أن يعود إلى الحق في قوله السابق: ﴿ليكتمون الحق﴾[البقرة: ١٤٦] فيشمل رسالة الرسول وجميع ما جاء به، وإما إلى العلم في قوله: ﴿من بعد ما جاءك من العلم﴾[البقرة: ١٤٥][(٣)]، وقد توضح لنا كيف يرى ابن عاشور أن هناك ثلاثة احتمالات لما يعود إليه الضمير المنصوب في (يعرفونه).

وقد توقف الباحث محمد خطابي عند كلام ابن عاشور، فقال: «واضح من هذه

---

(١) مفاتيح الغيب، الرازي: ١٥/٦ – ١٦.

(٢) لسانيات النص، خطابي: ١٧٤.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٣٩/٢ – ٤٠.

الاحتمالات أن الضمير يحيل إلى سابق مذكور صراحة، فإذا جعل الضمير محيلاً إلى الرسول فقد جاء ظاهراً مرة واحدة في الآية (١٤٣)، ومستمراً، في الآيات اللاحقة، بضمير الخطاب المتصل، والضمير في هذه الحالة محيل إلى عنصر فقط. وإذا كان محيلاً إلى الحق يصبح عنصراً محيلاً إلى خطاب. وهكذا تكون الضمائر، حسب المفسرين، محيلة إحالة مزدوجة، مرة إلى عنصر واحد في خطاب سابق، ومرة أخرى إلى خطاب بأتمه، وهذا ما يمثله الرسم التالي:

اسم ⟵ ض

خطاب ⟵ ض

بناء عليه فإن الضمير، كما يبرز ذلك من خلال تخريجات المفسرين يساهم بشكل فعال في اتساق الخطاب القرآني»[1].

وقد توقف المفسرون عند أحادية الإحالة للضمير في القرآن الكريم، ونكتفي هاهنا بهذا القدر مراعاة للمقام الذي يسمح به البحث.

(١) لسانيات النص، خطابي: ١٧٥.

الإحالة في المنظور اللساني:

تعرف الإحالة بأنها العلاقة بين العبارات والأشياء (Objects)، والأحداث (Events)، والمواقف (Situations) في العالم الذي يستدل عليه بعبارات ذات طابع استبدالي(Alternative)، في نص ما من النصوص، إذ تشير إلى شيء ينتمي إلى عالم النص نفسه[١]، ولابدّ من تحقق تطابق الشيء الذي يتصوره المخاطب محيلاً عليه في التعبير الإحالي مع ما يقصده المتكلم باستعماله لهذا التعبير، وهذا التطابق هو أساس التواصل بين مستخدمي اللغة الواحدة، والدافع وراء استمرار العملية اللغوية بالكامل؛ لذا قيل: «إنّ العناصر المحيلة كيفما كان نوعها لا تكتفي بذاتها من حيث التأويل، إذ لابد من العودة إلى ما تشير إليه من أجل تأويلها. وتتوفر كل لغة طبيعية على عناصر تملك خاصية الإحالة، وهي... الضمائر وأسماء الإشارة وأدوات المقارنة. تعتبر الإحالة علاقة دلالية، ومن ثم لا تخضع لقيود نحوية، إلا أنها تخضع لقيد دلالي، وهو وجوب تطابق الخصائص الدلالية بين العنصر المحيل والعنصر المحال إليه»[٢]، في حين يرى الأزهر الزّنّاد أنّ «الإحالة رابط دلالي إضافي لا يطابقه أي رابط بنيوي... ويتعلق الأمر عند (تانيار) بالتفريق بين البنية من جهة وبين المعنى من جهة ثانية في الكلام، وهما مستويان، الواحد منهما منفصل عن الآخر في الدرس اللساني، ولكنهما متوازيان في اللغة؛ إذ تحمل المعنى وتؤديه، وبين الاثنين ترابط يقوم على التعارض في الاتجاه، فمن الناحية البنيوية يعمل المكون الوارد في مستوى أرقى من التركيب في المكون، أو المكونات الواردة في مستوى هو دون ذلك الأول؛ وهذا ترابط نازل؛ أما الترابط الدلالي فيأخذ اتجاهاً صاعداً من المكون أو المكونات المعمولة في اتجاه المكون العامل»[٣].

ويُمَيَّز في العبارة اللغوية بين ثلاثة أبعاد: (الدال) وهو سلسلة أصوات العبارة، و(المدلول) أو المعنى وهو المفهوم المجرد الذي ينتظم طبقة الأشخاص، أو الأشياء التي تحيل عليها العبارة

(١) ينظر: النص والخطاب والإجراء: ٣٢٠.

(٢) لسانيات النص، خطابي: ١٦ – ١٧.

(٣) نسيج النص: ١٢١.

اللغوية، و(المدلول عليه) أو المرجع وهو ما تحيل عليه العبارة في العالم الخارجي[١]، ولكي تتم هذه الإحالة لابد من وجود عناصر تسهم في حصول ذلك، وغالباً ما عرفت هذه العناصر بالعناصر الإحالية، إذ يطلق على الضمائر، والإشارات، والموصولات تسمية (العناصر الإحالية) ، وهي:«قسم من الألفاظ لا تمتلك دلالة مستقلة، بل تعود على عنصر، أو عناصر أخرى مذكورة في أجزاء أخرى من الخطاب، فشرط وجودها هو النص، وهي تقوم على مبدأ التماثل بين ما سبق ذكره في مقام ما؛ وبين ما هو مذكور بعد ذلك في مقام آخر؛ وهي لذلك تتميز بالإحالة على المدى البعيد»[٢]، ويبدو لي أن وظيفة العناصر الإحالية تقع تحت باب بلاغة الأسلوب الذي يتجنب التكرار، والإفراط اللفظي، فضلاً عن الاقتصاد اللغوي وتأييد مسلمة اللغة (خير الكلام ما قل ودل)، وهذا عينه هو وظيفة الإحالة «داخل النص إنها تشير إلى ما سبق والتعويض عنه بالضمير تجنباً للتكرار؛ فتحقق الاقتصاد في اللغة إذ تختصر هذه الوحدات الإحالية العناصر الإشارية، وتجنب مستعملها إعادتها»[٣]، وهاهنا يتدخل العقل البشري في رفد عملية التواصل من خلال الذاكرة البشرية التي يمكنها أن تختزن آثار الألفاظ السابقة، وتقرن بينها وبين العناصر الإحالية الواردة قبلها، أو بعدها فتحللها بنجاح، وتحسن الربط فيما بينها من دون ضير بالتواصل، وعلى وفق هذا تقوم شبكة من العلاقات الإحالية بين العناصر المتباعدة في فضاء النص فتجتمع في كل واحد عناصره المتناغمة؛ وهذا هو مبدأ الاقتصاد اللغوي في نظام المعوضات إذ تختصر هذه الوحدات الإحالية العناصر الإشارية وتجنب مستعمليها إعادتها وتكرارها من دون أن يختل النص أو أن يتسلل الخلل إلى جانبه المعنوي[٤]، ولذا تكون غاية الاقتصاد اللغوي هي«أن يبلغ المتكلم أكبر عدد ممكن من الفوائد بأقل كمية من الجهود الذهنية والعلاجية لآلة الخطاب»[٥]، بل إنه أداء مكثّف مختزل ينقل الفوائد الكثيرة بوسائل تعبيرية ميسرة تخفف القدر الكبير مما تطلبه المعنى للإبلاغ إبان المعاناة في التفكير والصياغة، واستخدام جهاز النطق والتعبير، أي: جهاز التواصل اللساني، وهذا ما يعبر عنه

(١) ينظر: اللسانيات الوظيفية، د. أحمد المتوكل: ١٩.

(٢) نفسه: ١١٨.

(٣) علم لغة النص، عزة شبل: ١٢٠.

(٤) ينظر: نسيج النص: ١٢١.

(٥) الاقتصاد اللغوي، فخر الدين قباوة: ٣١.

بقانون (الجهد الأدنى)[١]، وتقف الإحالة في طليعة الوسائل التواصلية في سبيل إنجاز كل هذا في اللغة.

فيما عدّ (فان دايك) الإحالة من وسائل ربط النص بالسياق، فإن«سلسلة من أوجه الربط بين الجملة (النص) والسياق، التي تندرج ضمن مجال الدلالة – الدلالة السياقية – وهي التعبيرات الإشارية... ويقصد بذلك تعبيرات تحيل إلى مكونات السياق الاتصالي(يستقي تفسيره منه)؛ وهي: المتكلم، والسامع، وزمن المنطوق، ومكانه...إلخ، وهذا يعني أن هذه التعبيرات غير مستقلة عن السياق (المتغير)، ولها دائماً محيلات أخرى، أما التعبيرات الإشارية فهي: أنا، أنت، هنا، هناك، وكل ما هو مركب مع: هنا وهناك، مثل: من هنا، ومن هناك...إلخ، وكذلك: الآن، واليوم، وأمس، وغداً، وكذلك: أدوات (التعريف والتنكير)، وضمائر الإشارة: أل، هذا، هذه، تلك، أولئك، ...إلخ»[٢].

إن ما تدل عليه عناصر الإحالة هو التأكيد «على ضرورة استعادة المعلومة من مكان آخر، وهذا ما تشترك فيه إلى حد ما مع باقي العناصر الاتساقية»[٣]، وهكذا يتبين لنا أهمية الإحالة في اتساق النص، وما تضفيه على المعنى من محسنات الأداء التواصلي، ومَن ثمَّ أثرها الكبير في العملية التواصلية.

وتنقسم الإحالة على قسمين رئيسين هما:

أولاً: الإحالة النصية (الداخلية) (Endophora)، وتنقسم على قسمين:

أ. الإحالة على السابق (Anaphora)؛ وتعني أن المفردة تحيل على كلام قد مرَّ ذكره من قبل في النص.

ب. الإحالة على اللاحق (Cataphora)؛ وتعني: أن المفردة تحيل على كلام لاحق لها سيأتي ذكره، أي: أنها تستمد تأويلها من كلام يأتي بعدها.

ثانياً: الإحالة المقامية(الخارجية) (Exophora)، وتعني: أن المقام الذي يقال فيه النص يسهم في تماسك النص، بالاستعانة بفهم كلِّ ما يحيط بالنص من أمور تعين على إدراك معناه،

---

(١) ينظر: علم اللغة العام، دو سوسير: ١٨٠ – ١٨١.

(٢) علم النص، مدخل متداخل الاختصاصات: ١٣٥ – ١٣٦.

(٣) الإحالة (أطروحة دكتوراه)، شريفة بلحوت: ١٢٠.

وتمكن المتلقي (المستمع، القارئ) من فك رموز النص المغلقة بالاستعانة بما يوفره المقام من معونة في ذلك، وقد وضع الباحثان هاليداي ورقية حسن مخططاً يوضح هذا التقسيم، وهو على النحو الآتي[١]:

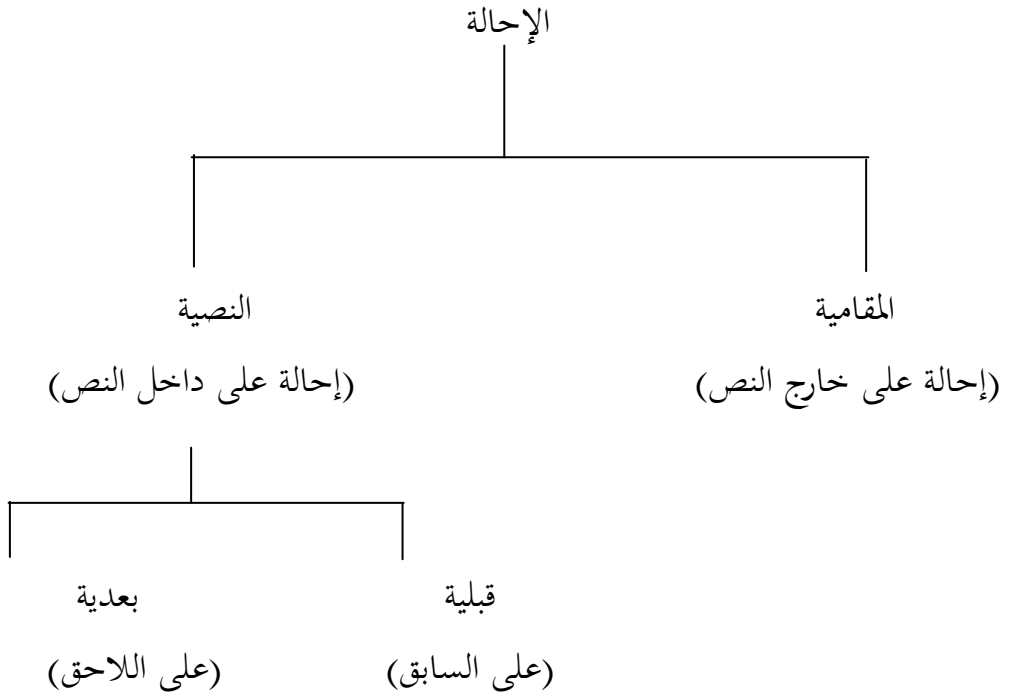

وقد أوضح دي بوجراند سبب اختياره الألفاظ الكنائية: الضمائر، وأسماء الإشارة، والأسماء الموصولة[٢] من بين أنواع كثيرة من الإحالات المشتركة؛ كـ(المترادفات والألفاظ

(١) See: Cohesion In English: ٣٣.

(٢) وصف ابن مالك الضمير بأنه: ((الموضوع لتعيين مسماه، مشعراً بتكلمه، أو خطابه، أو غيبته)) (شرح التسهيل: ١٢٠/١)، وقد جمع بهذه الكلمات اليسيرة بين تعريفه، وأنواعه بحسب الحضور، في حين أن الضمير في العربية ينقسم على ثلاثة أقسام، وهي: منفصل، ومتصل، مستتر.

وقد تنبه النحويون على أهمية الضمير في عملية ربط الجمل بعضها ببعض الآخر الذي يؤدي إلى تماسك النص، إذ وقف سيبويه عند الضمير في العربية وهل هو من المعارف أم من النكرات؟ ((وإنما صار الإضمار معرفة؛ لأنك تضمر اسماً بعدما تعلم أن من يحدّث قد عرف من تعني، وما تعني وأنك تريد شيئاً يعلمه))(الكتاب: ٦/٢)، وورد عن الرضي قوله: ((وإنما احتاجت إلى الضمير لأن الجملة في الأصل كلام مستقل فإذا قصدت جعلها جزء الكلام فلابد من رابطة تربطها بالجزء الآخر، وتلك الرابطة هي الضمير))(شرح الرضي: ٢٣٨/١)؛ وهذا عينه ما يقوم به الضمير من عمل في الإحالة. وقد التفت ابن يعيش إلى الشبه بين اسم الإشارة والضمير فقال: ((إنما بني اسم الإشارة لشبهه بالمضمر، وذلك لأنك تضير به

الشارحة)، بقوله: «الألفاظ الكنائية من حيث المحتوى في الاستعمال مأخوذة من العبارات التي تشترك معها في الإحالة؛ وبهذا تختلف الألفاظ الكنائية عن هذه العبارات بطرق نظامية»[(١)]، ويمضي دي بوجراند في سرد أهم ما يميز الألفاظ الكنائية من الأنواع الأخرى التي يتم فيها حصول الإحالة المشتركة[(٢)]:

١. الألفاظ الكنائية من حيث إمكان التطبيق لها مدى أوسع.
٢. وهي من الناحية النسبية خالية من أي محتوى ذاتي(Inherent).
٣. وهي في العادة أقصر مما يشاركها في الإحالة؛ وهي حقيقة يراها(دريسلر) متفقاً في ذلك مع قانون (زيف ١٩٣٥) والذي مفاده: كلما كثر استعمال الكلمة تعرضت لتكون أقصر.
٤. تخضع الألفاظ الكنائية لقيود على ورودها؛ حتى لا يتحول الفهم لدى المتلقي (السامع، القارئ) إلى إشكال لا ضرورة له.
٥. وتحتاج الألفاظ الكنائية إلى شكل خارجي متميز، فالضمائر (Pronouns) هي الطائفة الوحيدة التي تشتمل من بين الإسميات من أقسام الكلم على صيغ مختلفة للدلالة على النوع (مذكر، ومؤنث) والحالة (مؤثر، ومتأثر).

وفيما يخص الإحالة الخارجية فإن دي بوجراند – أيضاً – يصفها بالإحالة لغير مذكور في النص، إذ تعود الكنائيات على «غير مذكور في النص؛ إلى أمور تستنبط من الموقف لا من عبارات تشترك معها في الإحالة في نفس النص أو الخطاب... وللإحالة إلى غير مذكور على وجه الخصوص كفاءة من حيث تجاوزها للخطوة البينية التي تتمثل في تسمية المفهوم. وتعتمد الإحالة لغير مذكور في الأساس على سياق الموقف (Context) شأنها في ذلك شأن الإحالة لمذكور سابق (Anophora)، والإحالة لمتأخر (Cataphora)، وإذا كان معنى مفهوم ما هو موقعه في عالم النص فإن معنى المرجع في الإحالة لغير مذكور(Exophora) هو مكانه في عالم النص مع التركيز على عالم الموقف الاتصالي»[(٣)].

ولو نظرنا في المقابسات لنستشرف الأثر الإحالي للكنائيات في تماسك النص طالعتنا

إلى ما بحضرتك ما دام حاضراً فإذا غاب زال عنه ذلك الاسم» (شرح المفصل: ٣/ ١٢٦)، ومثله فعل الرضي الإسترابادي حينما تحدث عن اسم الإشارة الموضوع للبعيد «ذلك ونحوه، كضمير الغائب يحتاج إلى مذكور قبل، أو محسوس قبل حتى يشار إليه به فيكون كضمير راجع إلى ما قبله» (شرح الرضي: ٢/٤٨٠).

(١) النص والخطاب والإجراء: ٣٢٠.

(٢) ينظر: نفسه: ٣٢٠ – ٣٢١.

(٣) النص والخطاب والإجراء: ٣٣٢.

المقابسة الثانية بقوله: «**هذه مقابسة دارت**»[١]، فاسم الإشارة (هذه) وهو من ضمائر الحضور قد أحال على لفظ (مقابسة) وهو اسم لاحق له، فكانت إحالة نصية/ داخلية، بعدية.

ثم إذا أخذنا قول التوحيدي: «**جرى عند ابن سعدان يوماً كلام في الأخلاق، وحضره جماعة، منهم عيسى بن ثقيف الرومي، وابن السمح، وغير هؤلاء من مشايخ النصارى، وكانوا متحزمين بالفلسفة ومحبين لأهلها**»[٢]، نجد أن الضمير (الهاء) في (حضره) وهو من ضمائر الشخصية الغائبة يحيل على مذكور في النص يتوجب على القارئ، أو المستمع أن يدركه بما يتوافر لديه من مهارة التلقي بالاعتماد على النص نفسه، وهنا تتجلى العملية التواصلية بكل أركانها من: المرسل، والرسالة، والمتلقي، وقد كان هذا النوع من الإحالة هو إحالة داخلية.

وتبرز أهمية الإحالة في توطيد أواصر السبك في النص، ولا سيما في بحث الموضوعات الفلسفية والفكرية والميتافيزيقية؛ فيعتمد التوحيدي حينها على تكثيف استعماله للإحالة في مقابساته، وبأنواعها المختلفة لتنويع أساليب السبك من داخل النص وخارجه، فهو يخاطب عقول سامعيه وقارئيه طارحاً بين أيديهم تجربته الفلسفية وموقفه من قضايا فلسفية كثيرة كالخالق، والخلق، والوجود، والفناء، والتدين، والتقوى، والعبادة، والتوحيد، والشرك، والأدب، والنحو، والفنون، والأخلاق، والصداقة، والصراحة، والوفاء، والإيثار، والعلوم، والمعرفة...وغيرها كثير.

وفي مقابسةٍ موضوعها: في فعل الباري تعالى وهل هو ضرورة أو اختيار؟[٣] عالج موضوعاً عقائدياً غاية في الخطورة في الدرس العقائدي الإسلامي، حافلاً بالاختلافات في وجهات النظر، وفي مثل هذه الموضوعات الشائكة يكون للإحالة أثر مضاعف ورئيس في جمع الأفكار والربط فيما بينها في توليف خاص بالنص يعود بالفائدة على القيمة السبكية له، لذا نجده قد عمد ومنذ الوهلة الأولى في صدر المقابسة إلى استعمال ضمير الشخص الغائب المنفصل (هو) في الإحالة النصية/ الداخلية القبلية؛ إذ أحال على (فعل الباري تعالى).

فممّا جاء في هذه المقابسة: «**فإنه إن كان كاستنارة الهواء عن الشمس فهو ضروري،**

---

(١) المقابسات، المقابسة الثانية: ٥٧.

(٢) نفسه، المقابسة الثالثة: ٨٠.

(٣) المقابسات، المقابسة العاشرة: ٨٩.

وإن كان كفعل أحدنا فهو اختياري، وما خلا هذين فغير معقول، وما لا يعقل فغير مقبول»[١]، فالنّصّ حافلٌ بالإحالة، وهو في مجمله يحيل على القضية الرئيسة في المقابسة، وهي: (فعل الباري تعالى)، فالضميران المنفصلان للشخصية الغائبة (هو)، ومثلها الضميران المستتران في (كان).

ونجد في النص كذلك الضمير المستتر (هو) في قوله: (معقول، ويعقل، ومقبول) الذي يحيل في الكلمات الثلاث على فعل الباري.

ويقول في مقابسة آخرى: «**على أنك، أدام الله حياطتك، لو علمت على أي حال نقل هذا القدر، وفي أي وقت، وبأي قلب، ومع أي شغل، لاستكثرت قليله، وحمدت الموفق له. وما أكثر ما أخذت نفسي بتحويل ذلك كله إلى نمط آخر، بطراز آنق من هذا الطراز، واحتراز أشد من هذا الاحتراز**»[٢]، فالنص حافل بالإحالة، ومنها الإحالة الخارجية في (ما أخذت نفسي) فـ(ما) يحيل إحالة مقامية خارجية على ما يفهم من السياق.

(١) نفسه، المقابسة العاشرة: ٩٠.

(٢) نفسه، المقابسة الخمسون: ١٧٩.

الحذف:

الحذف لغة:

حذف الشيء: قطعه من طرفه، وحذف الشيء إسقاطه، ومنه حذفت من شعري ومن ذنب الدابة؛ أي: أخذت[١].

الحذف من نظر اللغويين العرب:

كان الحذف مادة أساسية في مباحث علماء النحو، وقد عقد سيبويه باباً سماه: (هذا باب ما يكون في اللفظ من الأعراض)، وقد قال في مستهلِّه: «اعلم أنهم مما يحذفون الكلم وإن كان أصله في الكلام غير ذلك، ويحذفون ويعوضون، ويستغنون بالشيء عن الشيء الذي أصله في كلامهم أن يستعمل حتى يصير ساقطاً»[٢]، وقد عقد باباً آخر سماه: (هذا باب يحذف فيه الفاعل لكثرته في كلامهم حتى صار بمنزلة المثل)، ومما جاء فيه: «وذلك قولك: (هذا ولا زَعَماتك)، أي: ولا أتوهم زعماتك»[٣]، ومن الأبواب الأخرى التي عقدها سيبويه في كتابه معالجاً فيه الحذف باباً سماه: (هذا باب يحذف المستثنى فيه استخفافاً)، يقول في مطلعه: «وذلك قولك: (ليس غير)، و(ليس إلا)؛ كأنه قال: ليس إلا ذاك، وليس غير ذاك؛ ولكنهم حذفوا ذلك تخفيفاً واكتفاء بعلم المخاطب ما يعني»[٤]، وقد واصَلَ النحاة اهتمامهم بالحذف في اللغة؛ إذ أفرد المبرد باباً سماه: (ما يحذف استخفافاً؛ لأنّ اللبس فيه مأمون)؛ وما ورد فيه قوله: «وذلك أن للأشياء أصولاً، ثم يحذف منها ما يخرجها عن أصولها فمن هذا المحذوف ما يبلغ بالشيء أصله»[٥]، في حين يرى ابن السراج أن «المحذوفات في كلامهم كثيرة والاختصار في كلام الفصحاء كثير موجود إذا آنسوا بعلم المخاطب ما يعنون»[٦]، وذهب الرضي إلى

---

[١] ينظر: لسان العرب، مادة (ح، ذ، ف): ٢/ ٨١٠ – ٨١١، وتاج العروس، مادة (ح، ذ، ف): ١٢١/٢٣.

[٢] الكتاب: ١/ ٢٤ – ٢٥.

[٣] نفسه: ٢٨٠/١.

[٤] نفسه: ٢/ ٣٤٤ – ٣٤٥.

[٥] المقتضب، المبرد: ١/ ٣٨٣

[٦] الأصول في النحو، ابن السراج: ٢/ ٣٢٤.

ضرورة وجود قرينة مع المحذوف؛ إذ «لا يحذف شيء لا وجوباً ولا جوازاً إلا مع قرينة دالة على تعيينه»[١]، ونجد أن في هذا الكلام مطابقة لشروط تحقق السبك بالاعتماد على النص نفسه.

وقد أفرد عبد القاهر الجرجاني فصلاً بعنوان: (القول في الحذف)، استهله بقوله: «هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تُبِنْ»[٢]، وهذا الحذف الذي تحدث عنه عبد القاهر يحصل في داخل سلسلة الكلام، وليس ابتداءً، ويستعان به فيما تقدم من نص الكلام، أو بسياق الموقف وكل ذلك يتكئ على ثقافة المتلقي، وقال أيضاً: «أفيكون دليلاً أوضح من هذا وأبين وأجلى في صحة ما ذكرت لك، من أنك ترى ترك الذكر أفصح من الذكر، والامتناع من أن يبرر اللفظ من الضمير أحسن للتصوير»[٣]، وفي كلامه هذا يؤيد الحذف؛ ويفضله على ذكر ما هو محذوف – في بعض المواطن – لفوائد تتعلق ببلاغة الكلام وجودة أسلوبه.

ومن رصانة البحث العلمي لدى القدماء توافق آراء علماء العربية القدماء على آراء علماء لسانيات النص الذي جاؤوا بعدهم بقرون بعيدة؛ ويتجسد ذلك في رأي ابن هشام الذي يقول فيه: «إذا دار الأمر بين كون المحذوف أولاً أو ثانياً؛ فكونه ثانياً أولى»[٤]، وتتوافق آراء علماء اللسانيات النصية مع كلام ابن هشام هذا؛ في كون المحذوف متأخراً أفضل من مجيئه في أول الكلام.

وقد استحسن ابن مضاء القرطبي الحذف في كتاب الله (جل جلاله) ووصفه بالكثرة لعلم المخاطبين به؛ وهو إذا ظهر تم الكلام به، ولا بأس بذلك، ولكن حذفه أوجز وأبلغ وأكثر فائدة[٥].

في حين انشغل النحاة كثيراً في تقدير المحذوف وتفهم الإيجاز؛ إذ إن فهم الكثير من العبارات الموجوزة يعتمد على تقدير الألفاظ غير منطوقة في لغة الحديث أو غير المكتوبة فيما

---

[١] شرح الرضي على الكافية: ٢٧٢/١.

[٢] دلائل الإعجاز: ١٤٦.

[٣] نفسه: ١٧٢.

[٤] مغني اللبيب: ٢/ ١٦٣.

[٥] ينظر: الرد على النحاة، ابن مضاء: ٧٢.

يُقرأ، وهنا تبرز القيمة الجمالية لهضم النصوص وفهمها، فبين اتفاق الجمهور على بعض مقاطع نصوص معينة تتباين آراؤهم في فهم غيرها وهكذا يصبح النص مثار اهتمام وتحليل جماعة المتلقين.

ومن هنا درس «علماء العربية القدماء هذه الظاهرة بالدراسة ونعتوها بمصطلحين هما (الحذف) و (الاضمار) ووقع استعمال كل منهما معاقباً للآخر بحيث يبدو للناظر أن لهما دلالة واحدة»[١]، على أن أنماط الحذف تتنوع بحيث تبدأ من حذف الحركة، أو الصوت، ثم الحرف؛ وهذا كله جزء من الكلمة، ثم العبارة، ثم الجملة، ثم بعد ذلك ما هو أكثر من جملة، في حين أن الكلمة قد تكون اسماً أو فعلاً مفرداً.

ويقع الحذف في العربية في قسمين رئيسين، هما[٢]:

أولاً: حذف يقع في صيغة / بنية الكلمة، كحذف حرف من الكلمة، أو حركة، ويمكن أن نسمي هذا النوع من الحذف بالحذف الصرفي، أو الصوتي.

ثانياً: حذف يتصل بالتراكيب حيث يحذف عنصر من الجملة، أو أكثر، أو تحذف جملة بكاملها، أو أكثر من الكلام، ويمكن أن نجده في الأنواع الآتية:

حذف الأسماء.

حذف الأفعال.

حذف الحروف.

حذف الجمل.

وهنا لابدّ من القول إنه من بين أنواع كثيرة من الحذف التي أصل لها علماء اللغة القدامى لا يؤدي وظيفة السبك النصي غير نوع واحد منها فقط هو(الاحتباك) الذي سماه الزركشي بـ(الحذف المقابلي) ومفاده أن يجتمع في الكلام متقابلان؛ فيحذف واحد منهما مقابله لدلالة الآخر عليه، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿أم يقولونَ افتراهُ، قُلْ إنِ افتريتُه فَعَلَيَّ إجرَامي وأَنَا بَريءٌ ممَّا تُجرِمون﴾[هود:٣٥]، والأصل – كما يراه الزركشي:

---

[١] ظاهرة الحذف، طاهر حمودة: ١٩.

[٢] ينظر: ظاهرة الحذف: ١٧٣.

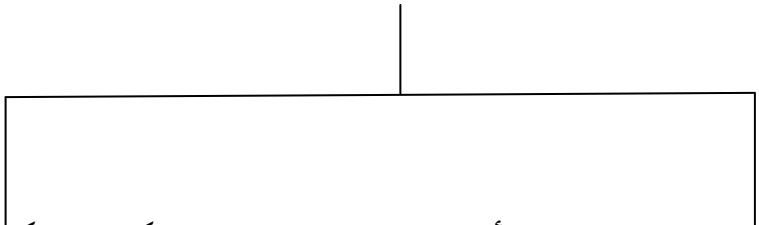

(١) فعلي إجرامي (٢) (وأنتم براء منه) (٣) (وعليكم إجرامكم) (٤) وأنا بريء مما تجرمون

فنسبة: (إجرامي)، وهو الأول إلى (وعليكم إجرامكم)، الثالث، كنسبة قوله (وأنتم براء مما تجرمون)، وهو الرابع، وقد اكتفى من كل متناسبين بأحدهما[١].

وفضلاً عن ذلك تتمحور عملية السبك بالحذف علاوة على كونها اقتصاد في اللغة، وجمالية في الأسلوب، ولون من ألوان البلاغة ليكون الحذف وسيلة من وسائل الربط؛ ويتم ذلك عن طريق محورين، هما:

أولاً: التكرار، فعند تقدير المحذوف يعمل في استمرارية المعنى؛ إذ يقع الحذف في سطح النص ولكنه يعامل معاملة المذكور من حيث المعنى.

ثانياً: يتمثل في العلاقة ما بين العنصر المحذوف والعنصر المذكور عبر ما يحيل به المحذوف على المذكور، أي: المرجعية، وبخاصة إذا وجد دليل عليه؛ ولذا كان تأكيد علماء اللغة القدماء والمحدثين على أهمية وجود الدليل أمر له دلالته وأثره البالغ في دعم الحذف في النص، ومن ثم إذا عُدَّت العناصر المحذوفة كأنها مذكورة في الكلام فإنه يطبق عليها مثل الذي يطبق على النص كامل العناصر[٢].

---

[١] ينظر: البرهان: ١٢٩/٣.

[٢] ينظر: علم اللغة النصي، صبحي الفقي: ٢٢١/٢.

الحذف في لسانيات النص:

الحذف ظاهرة لغوية مشتركة بين اللغات الإنسانية كافة؛ مع تفاوت في شيوعها بين لغة وأخرى، ولكن «ثبات هذه الظاهرة في العربية ووضوحها يفوق غيرها من اللغات لما جبلت عليه العربية في خصائصها الأصيلة من ميل إلى الإيجاز»[١].

والحذف يعد سمة من سمات التفاهم العالي بين مستعملي اللغة، أو بين طبقة لغوية معينة؛ إذ تسهل عملية الحذف وتتوسع مدياتها، «ويؤدي البحث في أبنيته وصوره إلى الكشف عن بعض أسرار النظم، غير أن قيمة هذه الظاهرة اللغوية التي تستلزم الوقوف على دقائقها، تتطلب قدرة خاصة لدى المفسر»[٢]، واللجوء إلى الحذف ينبع من دواعي جمالية، وبلاغية؛ تزيد النص رصانة وتجعله أكثر اتساقاً[٣]

هذا ولأثر الحذف في العملية التواصلية فإن البحث فيه «يعد من البحوث البينية التي تقع بين دراسات النحو والبلاغة من حيث أنواع المحذوف وحكمه وأغراضه؛ ولكن هذه الظاهرة اللغوية قد أخذت بعداً لغوياً آخر مع لسانيات النص؛ إذ أصبح التركيز عليها باعتبارها إحدى الأدوات التي تحقق تماسك النص»[٤]، وهكذا طالما حفل الدرس اللساني النصي بالخلاف في نقاشاته التي تخص الحذف؛ أو ما يسمى أحياناً بالاكتفاء بالمبنى العدمي حيث أمكن التعبير عن هذا الجدل النحوي بأن البنيات السطحية في النصوص غير مكتملة غالباً بعكس ما قد يبدو في تقدير الناظر، وفي النظريات اللغوية التي تضع حدوداً واضحة للصواب النحوي أو المنطقي يتكاثر بحكم الضرورة نظرها إلى العبارات بوصفها مشتملة على حذف بحسب ما يقتضي مبدأ حسن السبك[٥].

وفي الوقت الذي جعل (هاليداي ورقية) الحذف محصوراً فيما يعوض من سياق النص في حين أنهما قد سلطا الضوء على عملية الإبدال التي تحدث في الحذف، والتي تتم بدرجة الصفر

---

[١] ظاهرة الحذف: ٩.

[٢] دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنيّة والدلالة ، د. سعيد بحيري: ٢٤٧.

[٣] ينظر: نحو النص، عثمان أبو زنيد: ١٢٧.

[٤] علم لغة النص، عزة شبل: ١٦٩.

[٥] ينظر: النص والخطاب والإجراء: ٣٤٥.

إذ إن العنصر المبدل لا يعوض بعنصر بديل، بل يترك تعويض الفراغ الذي يخلفه الحذف على المتلقي بالاعتماد على ما سبق من النص؛ فالمادة المحذوفة تخلق فراغاً في التركيب يملأ من مكان آخر من النص؛ وهو يشبه افتراض الإبدال، إلا أن الإبدال واضح المقابل وهو مستعمل[١].

ويبدو لي أن مثل هذه العمليات التي يكون فيها دور بَيِّنٌ للمتلقي في العملية التواصلية – وذلك في تقدير المحذوف في النّصّ – تُعد من أكثر عمليات التواصل وثاقة وفاعلية، فغاية العملية التواصلية هي تأثير المرسل بالمرسل إليه عبر الرسالة؛ وهنا أقول: هناك أكثر من هذا التأثير الذي يشرك فيه المرسلُ المرسلَ إليه؟

ومن هنا يعرّف (دي بوجراند) الحذف بقوله: «هو استبعاد العبارات السطحية التي يمكن لمحتواها أن يقوم في الذهن أو أن يوسع أو أن يعدل بوساطة العبارات الناقصة»[٢]، وعليه فإن هذه العبارات الناقصة يطلق عليها هذا المصطلح من حيث بنائها التكويني؛ ولكنها في حقيقة الأمر عبارات مكتنزة المعنى والدلالة؛ وأداتها في ذلك الحذف.

ومن هنا تنبع أهمية الحذف «من حيث أنه لا يورد المنتظر من الألفاظ ومن ثم يفجر في ذهن المتلقي شحنة توقظ ذهنه، وتجعله يفكر فيما هو مقصود، ويتحدد الحذف بأنه علاقة تتم داخل النص، فمعظم أمثلته تبين أن العنصر المحذوف موجود في النص السابق مما يعني أن الحذف ينشأ علاقة قبلية، ولا يختلف الحذف عن الاستبدال إلا بكونه استبدالاً بالصفر، بمعنى أن علاقة الاستبدال تترك أثراً في النص، وأن العنصر البديل يبقى مؤشراً يهتدي به المتلقي في البحث عن العنصر المستبدل، في حين يختلف الأمر مع الحذف فلا يحل محل المحذوف، أي شيء، مما يترك في الجملة التالية فراغاً في البنية يهتدي المتلقي إلى ملئه بالعودة إلى ما ورد في الجملة السابقة»[٣]، وهذا ما كنا نعنيه من عملية إشراك المتلقي في إظهار مهاراته واستعمالها في محاولة تعويض المحذوف الذي يسهم بصورة كبيرة في عملية التواصل؛ إذ «إنه من غير المعقول بالنسبة للناس أن يحولوا كل شيء يقولونه، أو يفهمونه إلى جمل كاملة، فلو فعلوا ذلك لكان أولى بهم أن يفضلوا أن يتكلموا بجمل تامة أكثر كثيراً مما يفعلون، فالاكتمال النحوي ينتج

---

[١] See: Cohsion In English: ١٤٣.

[٢] النص والخطاب والإجراء: ٣٠١.

[٣] المصطلحات الأساسيَّة في لسانيات النَّصِّ وتحليل الخطاب، نعمان بوقرة: ١٠٦ – ١٠٧.

تراكيب لا فائدة فيها ولا وضوح»[١]؛ ولذا نجد أبواب النحو قد حفلت بمباحث كثيرة تهتم بالجمل الناقصة والكلام الناقص، ومحاولة تقدير المحذوفات: كالأدوات، والأفعال، والمفعولات، والفاعلين.. إلخ.

ويرى (دي بوجراند) أن من الممكن أن نعد ظاهرة(التفجي، أو الفجوة) من قبيل الحذف؛ وحينها تمنح فرصة للقارئ ليتوقع ويضيف معلومات جديدة لردم تلك الفجوة[٢]، وبالطبع فإن مثل هذا الحدث يعد تجربة نادرة للقارئ إذ تفتح الآفاق على خبراته ومخزونه الثقافي؛ بل إنها تحول العمل الإبداعي إلى عملية شراكة بين المتلقي والمنشئ الذي بادر أصلاً إلى التمهيد لهذه التجربة عبر إحداث تلك الفجوة.

ويصف (هاليداي ورقية حسن) الحذف المقصود الذي يحقق حالة التماسك للنص بالحذف الداخلي، أي: الذي يستمد تعويضه من النص نفسه؛ على عكس الحذف الخارجي الذي يعتمد على سياق الموقف، حينها يجب توافر المواد اللغوية التي يُستندُ إليها في عملية التعويض من مادة لغوية مذكورة في النص سابقاً[٣]، ونجد مثل هذه النماذج في المقابسات بكثرة، ففي قوله: «**وإنّما وجب ذلك؛ لأنّ الناس في أصل جبلتهم، وبدء خلقهم، وأول سنخهم، قد افترقوا مجتمعين، واجتمعوا مفترقين، واختلفوا مؤتلفين، وائتلفوا مختلفين، وأحساسهم متوقدة، وظنونهم جوالة، وعقولهم متفاوتة، واذهانهم عاملة، وآراؤهم سانحة. وكل متفرد بمزاج وشكل، وطباع وخلق، ونظر وفكر، وأصل وعرق، واختيار وإلف، وعادة وضراوة ونفرة، واستحسان واستقباح، وتوق ووقفة، وإقدام وجسارة، واعتراف وشهادة، وبهت ومكابرة، هذا سوى أغراض كثيرة مختلفة لا أسماء لها عندنا خالصة، ولا بصفات متميزة**»[٤]، فقد توصل باسم الإشارة (ذلك) حذف أشياء كثيرة قبلية، والتي هي من المستلزمات التي فرضتها الحكمة الإلهية لصلاح عيش البشر.

إن أسماء الإشارة تزيد من بيان المشار إليه في دعوة المخاطب إلى استحضاره، وهذا أقوى

---

[١] النص والخطاب والإجراء: ٣٤١.

[٢] ينظر: نفسه: ٣٤٢.

[٣] See: Cohsion In English: ١٤٤.

[٤] المقابسات، المقابسة الرابعة: ٨٣ – ٨٤.

من الإخبار عنه بالضمير؛ فيكتسب المشار إليه باسم الإشارة صفة البيان والكشف الزائد، ثم إن وظيفة اسم الإشارة تنبيه المتلقي إلى اختلاف شيء يجعله موضع عناية، وهذا مدعاة للاحتفال بما سيتم حذفه فيتمكن المخاطب حينها من تعيين وتخصيص وتحديد المشار إليه؛ مما يسهل حذفه وتعويضه باسم الإشارة[١].

تتجلى قيمة اسم الإشارة في الإشارة إلى المحذوفات فيما يحمله من وجهات مكثفة في المخزون الإشاري والدلالي مما يجعله من المركبات المكتنزة التي تسهم بصورة كبيرة في إثراء عملية التواصل ومنحها بعداً أكبر، وخيارات أوسع، ومرونة أكثر في الوسط التواصلي بين متفاهمي اللغة.

ثم إننا بالعودة إلى المحذوف نجد جملاً كثيرة قد حُذِفت وعُوِضت بكلمة واحدة، أو مجموعة مركبات عوضت بكلمة واحدة أو أداة أو حرف.. إلخ، وهذه الإمكانية تسهم كثيراً في عملية اختزال الزمن والجهد، وإعمال ذهن المخاطب في النص مما يمنح عملية التواصل مديات أبعد بالارتقاء في التفاعل وتبادل الكم المعرفي الذي يوفره النص ويكتنز عليه، على أننا نجد في المقابسات مثل هذا كثيراً، كما جاء في قوله: «**ولو أمكن ذلك لوجد**»[٢]، إذ عوض اسم الإشارة (ذلك) عن قوله: «**ولا سبيل مع ذلك إلى اتفاق الناس في حال من الأحوال، ولا سبيل من السبل، ولو أمكن ذلك لوجد**»[٣]، وكذلك حدث في قوله: «**لأنّ الطريق إلى تبين ذلك وتحصيله مسلوك، والشاهد على ثمره المطلوب قائم**»[٤]، في الإشارة إلى كلام سابق حُذِفَ «**ليس النظر في حال النفس بعد الموت مبنياً على الظن، وإن كان شبيهاً به. وليس يجب أن يثبت القضاء في هذا المعنى بالظن للمشابهة القائمة بينه وبين غيره، لأنّ الفصل حاضر والفرق ظاهر. وذلك أن الإنسان لم يجهل حاله قط فيما سلف، لأن الطريق إلى تبين ذلك وتحصيله مسلوك، والشاهد على ثمره المطلوب قائم**»[٥]، أي أن بيان ما سيحل به معلوم من سيرته التي مرت.

---

[١] ينظر: أسماء الإشارة في القرآن (أطروحة دكتوراه)، عمر النعيمي: ٣١ – ٣٤.

[٢] المقابسات، المقابسة الحادية عشرة: ٩٢.

[٣] نفسه، المقابسة الحادية عشرة: ٩٢.

[٤] نفسه، المقابسة العشرون: ١٠٤.

[٥] نفسه: ١٠٤.

والإشارة باسم الإشارة يمنح إمكان التقديم بكلام ينتهي بديهة بحذفه والاكتفاء بالإشارة إليه، كما جاء في قوله: «**وهكذا عزّة كل شيء شَرُفَ بنفسه، وعز في جوهره**»[١]، فقد صدّر كلامه بقوله: «**إنّما صار العلم، والمعرفة، واليقين، والفضائل باسرها، قليلة في هذا العالم، لشرفها في أنفسها، واتصالها بعالمها**»[٢]، ومثله أيضاً قوله: «**وبحسب ذلك تُوْلَى أسماء مختلفة**»[٣]، أي بحسب الكلام الذي مر ذكره، وهو: «**الحركة واحدة، لكنها توجد في مواد كثيرة، ومحال مختلفة**»[٤]، ثم نطالع قوله: «**من التمس الرخصة من الاخوان عند المشورة، ومن الفقهاء عند الشبهة، ومن الاطباء عند المرض، اخطأ الرأي وتحمل الوزر، وازداد سقماً**»[٥]، نجده قد عمد إلى حذف بعض جملة وذلك قوله: (من التمس الرخصة)، وهي بعض جملة الشرط، وقد استعان في ذلك بالعطف بواو العطف الذي أغناه عن تكرار ما حذفه، وأمكن المتلقي من تقديره بسهولة ويسر لوروده في النص سابقاً، وكذلك أعانه تكرار العطف في ذلك إذ قيد التكرار استمرارية المعنى، فقد وقع الحذف في سطح النص؛ ولكنه يعامل معاملة المذكور من حيث المعنى.

أما في المقابسة الخامسة والسبعين فقد عمد إلى حذف يطول شرحه، إذ يقول: «**وَحَّدَ الفعل أنّه كيفية صادرة عن ذات، والانفعال كيفية واردة على ذات. فالفعل يقال على التحقيق على هذا المعنى، وهو الذي أنّه مقولة من المقولات العشر**»[٦]، فقوله: (مقولة من المقولات العشر) كلام أشار فيه إلى مقولات أرسطو(٣٨٤-٣٢٢ ق. م) المشهورة، فقد درس أرسطو أهم مظاهر المعرفة؛ فوجدها تقوم على عشرة أسس ينبني عليها الفكر السليم في اتجاهه نحو التعميم، وقد جمعها، وشرحها، وسماها بـ(المقولات)، وهي[٧]:

أولا: جوهر.

---

[١] نفسه، المقابسة الثانية والتسعون: ٣٠٠.

[٢] نفسه: ٣٠٠.

[٣] نفسه، المقابسة التاسعة والأربعون: ١٧١.

[٤] نفسه: ١٧١.

[٥] المقابسات، المقابسة السبعون: ٢٣٦ – ٢٣٧.

[٦] نفسه: ٢٤٥ – ٢٤٦.

[٧] منطق أرسطو: ٣٥/١، وللاستزادة ينظر: نفسه: ٣٥/١ – ٧٦.

ثانيا: كم.

ثالثا: كيف.

رابعاً: إضافة.

خامساً: أين.

سادساً: متى.

سابعاً: موضوع.

ثامناً: أن يكون له.

تاسعاً: يفعل، أي: الفعل.

عاشراً: ينفعل، أي: الذي يقع عليه الفعل.

وهكذا فقد قرر أرسطو أنه ومن دون هذه المقولات أو مفاهيمها لا يمكن لأي معرفة أن توجد أو تنطلق وتتفاعل مع محيطها الذي حولها.

وعليه فقد عمد أبو حيان التوحيدي إلى حذف هذا الكلام الذي أوضحناه بأسطر يسيرة فيما يطول شرحه، وقد يحتاج إلى مؤلفات طوال، في حين اعتمد على ثقافة المتلقي في سد الفجوة والاستعانة بالمخزون الثقافي المكتسب لفهم ما تعنيه الإشارة إلى المقولات العشر في نص كلامه.

ويمضي التوحيدي إلى الاستعانة بالحذف في مقابساته كلما وجد إلى ذلك سبيلاً إذ يقول في موضعٍ آخر: «**وقد أتت المقابسات الأول على فِقَر بليغة في تحقيق شأن النفس، وإثبات أمرها، وما خصت به من دون البدن والمزاج وتوابعهما ولواحقهما، ولا وجه للولع بالإكثار، فإن ذلك ربما جرّ إلى التقصير، وحمل على الاعتذار. وهذا علم كلما قلّت الحروف فيه كان المعنى بها أتمّ واخلص، وكلما أكثر اللفظ كان ما يراد به ويعنى فيه أنقص، وليس كذلك باقي العلم**»[1]، فقد اكتفى بالإشارة بقوله: (المقابسات الأول)؛ ليحذف تلك المقابسات التي جاءت في صفحات كثيرة، وما علينا إلا الاستعانة بالمرجعية التي تتمثل في إحالة المحذوف على المذكور لنعود إلى نصوص تلك المقابسات ونستوفي المعنى المحذوف في تحقيق شأن المعنى.

---

[1] المقابسات، المقابسة الرابعة والتسعون: ٣٠٢ – ٣٠٣.

الربط:

يعد الربط من الوسائل البديهية في عملية السبك النحوي، ومِن ثمَّ إسهامه في عملية تماسك النص.

وقد وقع اختيارنا على تسمية المصطلح بـ (الربط) لما رجحه دي بوجراند في قوله:«هذه العلاقات المختلفة بين صور المعلومات يمكن في الغالب أن تقع دون التصريح بوسيلة الربط، ذلك بأن للناس طرقاً تنبؤية لتنظيم المعلومات. ويبدو من المقبول أن نستعمل مصطلح الربط حيث تكون هناك روابط ملفوظة فقط»[١]، فقد بين الفرق بين الربط، ووسائل التماسك النحوية الأخرى (التكرار، والإحالة، والحذف)، فهذه الثلاثة: «تحافظ على بقاء مساحات المعلومات فإن الربط يشير إلى العلاقات التي بين المساحات، أو بين الأشياء التي في هذه المساحات»[٢]، ومن هنا جاءت تسميته بالربط أكثر واقعية لدوره الذي يؤديه في النص، وهذا عين الذي ذهب إليه هاليداي ورقية حسن في أنه تحديد للطريقة التي يترابط بها اللاحق مع السابق بشكل منظم[٣]، فيما بيَّن محمد خطابي الفرق بين الربط، والإحالة، والحذف، إذ إنّه لا يتضمن إشارة موجّهة نحو البحث عن المفترض فيما تقدم، أو ما سيلحق، كما هو شأن الإحالة، والحذف، فكون النص جملاً متتالية خطياً تدرك كوحدة متماسكة تحتاج إلى عناصر رابطة متنوعة تصل بين اجزاء النص[٤].

وتقع أنواع الربط في أربعة أنماط:

أولاً: الربط بمطلق الجمع، ويحدث بين صورتين، أو أكثر من صور المعلومات، بالجمع بينهما معتمداً في ذلك على اتحاد بيئتهما، أو تشابهها، وأدواته هي: حروف العطف، وتندرج في ضمن المقولة العامة للوصل الإضافي في علاقات أخرى، مثل: التماثل الدلالي المتحقق

(١) النص والخطاب والإجراء: ٣٤٧.

(٢) نفسه: ٣٤٦.

(٣) ينظر: لسانيات النص، خطابي : ٢٢ – ٢٣.

(٤) ينظر: نفسه: ٢٢ – ٢٣.

بأدوات من نوع: (مثل)، أو علاقة الشرح التي تتم بعبارات مثل: (أعني)، أو (بتعبير آخر).

وعلاقة التمثيل المتجسدة في تعابير من مثل: (مثلاً)، و(نحو).

ثانياً: ربط التخيير، أو العكس: حيث ربط صورتين أو أكثر من صور المعلومات على سبيل الاختيار، إذ تكونان متحدتين من حيث البيئة، أو متشابهتين مع ملاحظة ما إذا كانت المحتويات جميعاً عن مطلق الجمع صادقة في عالم النص، فإنّ الصدق لا يتحقق إلاّ في محتوى واحد في حال التخيير، ويتفق الباحثون على أنّ الأداة التي تعبر عن الربط العكسي هي (Yet) (مع ذلك)، وكذلك الأداة (But) (لكن).

ثالثاً: ربط الاستدراك، الذي يربط بين المتضادين المتعارضين من صور المعلومات اللذين يكونان متحدين فيما بينهما، أو متشابهين، أو أن يكون تناولهما لموضوعات بينها علاقة لكن من خلال تجمع غير متوقع، وقد يكون كل من الصورتين صادقاً نسبة لعالم النص، ولكن تعلق كل منهما بالآخر غير متوقع، ولربط الاستدراك أدوات منها: (لكن، غير أن، بل...الخ).

رابعاً: ربط التفريغ، أو التتابعي، ويعتمد بشكل كبير على الزمن في تتابعه، فالعلاقة بين صورتين من صور المعلومات، هي علاقة التدرج، أي أنّ تحقق إحداهما يتوقف على حدوث الأخرى؛ لذا فالصورة الفرعية لها وضع أدنى في التدرج من حيث التعلق بالموضوع، وليس من الضروري للتفريغ- بخلاف وسائل الربط الأخرى-أن يكون له تركيب مشابه للبنية السطحية[١].

وتتنوع وظائف كل نوع من أنواع الربط في داخل النص، فإذا كانت وظيفة هذه الأنواع المختلفة من الوصل متماثلة[٢] فإنّ معانيها داخل النص مختلفة، فقد يعني الوصل تارة معلومات مضافة إلى معلومات سابقة، أو معلومات مغايرة للسابقة، أو معلومات (نتيجة) مترتبة عن السابقة (سبب)، إلى غير ذلك من المعاني.

«ولأنّ وظيفة الوصل هي تقوية الأسباب بين الجمل، وجعل المتواليات مترابطة متماسكة؛ فإنّه لا محالة يعتبر علاقة اتساق أساسية في النص»[٣].

---

(١) ينظر: النص والخطاب والإجراء: ٣٤٦ - ٣٤٧، ولسانيات النص، خطابي: ٢٣ - ٢٤.

(٢) ونقصد بالوظيفة هنا الربط بين المتواليات المُشكِّلة للنّصِّ.

(٣) ينظر: لسانيات النص، خطابي: ٢٤.

وتعتمد المقابسات على الربط، وأدواته اعتماداً كبيراً في تماسك نصها؛ وذلك لأنّ أكثر نصوصها متوسطة الطول، أو قصيرة ما عدا بعض المقابسات الطوال، ومع سمة قصر نصوصها نسبياً إلا أنّها تحتوي على فِكَرٍ مركزة، ومتنوعة كثيرة؛ لذا تبرز أهمية الربط في تنظيم الأواصر بين الأفكار المتعددة والمتنوعة، واختلاف معالجة الموضوعات في المقابسات، فمِمّا جاء بالربط بمطلق الجمع، قوله: «**قيل: لم خلا علم النجوم من الفائدة والثمرة وليس علم من العلوم كذلك؟ فإنّ الطب ليس على هذا، بل الناظر فيه، والشادي منه، والكامل من أهله، يقصد بالطب استدامة الصحة ما دامت الصحة موجودة، وصرف العلة إذا كانت العلة عارضة. وكذلك النحو الذي قصد به الماهر فتق المعاني، وصحة الألفاظ، وتوخي الإعراب، واعتياد الصواب، ومجانبة اللحن، على حدود ما في غرائز العرب وطبائعها وسلائقها. وكذلك الفقه الذي قصد صاحبه فيه إصابة الحكم، واقتضاب الفتيا، وإيجاب الحق، ورفع الخلاف، وإقناع الخصم، وحسم مواد التنازع، ورد أهله إلى الرضا والتسليم. وكذلك الشعر الذي منتهاه قائم في النفس من صاحبه، ثابت في قريحته، يجيش به صدره، ويجود به طبعه، ويصح عليه ذوقه، من مدح مأمول، وترقيق غزل، وهجو مسيء، واستنزال كريم، وتوشية لفظ، وتحلية وزن، وتقريب مواد، واحضار خدعة، واستمالة عزيز، وضرب مثل، واختراع معنى، وانتزاع تشبيه، مع تصرف في الأعاريض بيّن، وقيام بالقوافي ظاهر. وكذلك الحساب الذي نفعه ظاهر، ومحصوله حاضر، وفائدته عامة، ونتيجته مجدية، وثمرته دانية، وغبّه محمود، وجدواه موجود، به صحت المعاملة، وقامت الدولة، وحرس الملك، وجبي المال، وأمن الغُبن، وقام الديوان، وقوي السلطان، وقرّت الرعية، واستفاضت السويّة، واستمرت القضية. هذا إلى أسرار فيه عجيبة، وغوامضَ ترجع إليه شريفة، وخواصَّ لا توجد لغيره غريبة**»[1]، ولا يخفى علينا كيف يطرح نص المقابسة أطرافاً متباعدة من العلوم في أثناء مناقشة خلو علم النجوم من الفائدة والثمرة، في الوقت الذي تظهر لنا جلياً فوائد علوم أخرى كالطب، والنحو، والفقه، والشعر، والحساب. وبمساعدة أدوات الربط العاطفة كالواو، والفاء؛ يبدو النص أكثر وحدة في موضوعه، فمع تنوع الأفكار ودواعي طرحها يرتكز النص على رصانة الربط بأدوات العطف ليبدو طرح هذا التنوع

(١) المقابسات، المقابسة الثانية: ٥٨ – ٥٩.

أكثر استساغةً ووحدة في نسيج النص.

ونلحظ في المقابسة الخامسة كيف توصل بالربط بالفاء على شبه انعدام الفارق الزمني بين سؤال أبي حيان التوحيدي وجواب أبي بكر القومسي: «**قلت لأبي بكر القومسي، وكان كبيراً في علم الأوائل: بأي معنى يكون هذا الزمان أشرف من هذا الزمان، وهذا المكان أفضل من هذا المكان، وهذا الإنسان أشرف من هذا الإنسان فقال: هذا يسوغ بإفاضة الزمان إلى سعادة سابغة، وخير غامر، وبركة فائضة، وخصب عام، وشريعة مقبولة، وخيرات مفعولة، ومكارم مؤثرة، من جهة شكل الفلك بما يقتضيه بعض أدواره. وكذلك المكان إذا قابله أثر من هذه الاجرام الشريفة والأعمال المنيفة. فأما الزمان، الذي هو رسم الفلك بحركته الخاصة، فليس فيه جزء أشرف من جزء. وكذلك المكان لأنه رديف الزمان. ولا سبيل في مثل هذه المسائل إلى معرفة الحقائق إلا بالإضافة التي هي شاملة للعالم، غالبة عليه، من محيطه إلى مركزه. فأما الإنسان فلا شرف له أيضاً على إنسان آخر من جهة حده الذي هو الحياة والنطق والموت، لأن الحد في كل واحد واحد. فإذن لا شرف من هذا الوجه. فإن اعتبر بعد هذا فعل هذا، وفعل هذا، من جهة الاختيار والإيثار والاكتساب والاجتلاب، فذاك يقف على الأشرف فالأشرف، والأعلى فالأعلى، بحسب ما يوجد منظوماً فيه، نافعاً لغيره، واقعاً موقعه الأخص به**»[1].

وما نزال في النوع الأول من أنواع الربط، ومنه ما جاء في قوله: «**قلت لأبي سليمان: إني اجد بين المنطق والنحو مناسبة غالبة، ومشابهة قريبة. وعلى ذاك فما الفرق بينهما، وهل يتعاونان بالمناسبة، وهل يتفاوتان بالفرق؟ فقال: النحو منطق عربي، والمنطق نحو عقلي. وجل نظر المنطقي في المعاني، وإن كان لا يجوز له الاخلال بالألفاظ التي هي كالحلل والمعارض. وجل نظر النحوي في الألفاظ، وإن كان لا يسوغ له الاخلال بالمعاني التي هي لها كالحقائق والجواهر. ألا ترى أن المنطقي يقول: ينحرق وهو ينفعل، والنحوي يقول: يحترق وهو يفتعل؟ لأن نظر المنطقي فيما حلاه العقل، ونظر النحوي فيما حلاه اللفظ. ونظائر هذا المثال شوائع وذوائع في غرض الفنين والنمطين، أعني:**

(١) المقابسات، المقابسة الخامسة: ٨٤ – ٨٥.

المنطق والنحو»[١]، فقد استعان بـ(أعني) في الربط بين جمل النص من أجل تحقيق وحدتها.

أمّا النوع الثاني من الربط، فهو: ربط التخيير، أو العكس، فمما جاء منه قوله: «**من أراد أن يُكسب نفسه هيئة جميلة، وسجية محمودة، بتهذيب الأخلاق وتقويمها، وتطهيرها من الأدناس التي تعتريها، تقسّمه أمران متباينان: أحدهما عسر ذلك وإباؤه، وتعذره والتواؤه، فيظن لذلك أن الأمر الذي يحاوله معجوز عنه، وأنه غير مقدور عليه، وأنّه مُؤيَس منه، وأنّ الوصول إليه محال. والآخر استجابة ذلك وانقياده ومطاوعته وإمكانه، فيظن لذلك أن العناية التي يؤمها باجتهاده وقصده ورأيه وعزمه، دانية معرضة سهلة قريبة**»[٢]، فإحراز تهذيب الأخلاق، وتقويمها ، وتطهيرها من عدمه أمر مردد بين العسر و اليسر؛ لذا ربط الأمرين بـ(لذلك)، وقد كرر استعمال(لذلك) تأكيداً على قيمتها في الربط بين جملتي التخيير؛ ومنه أيضاً ما ورد في قوله: «**قيل للقومسي:لم قيل النادرة لا ترد؟ فقال: كأن المعنى في هذا أن النادرة ليست مملولة، لأنّها غير معهودة، ولا مرددة، فهي لا تستحق الرد. ألا ترى أنها تُعهد إذا ندرت، وذاك حدثان تقدمها ولها حرمة الغريبة، وذمام الزائرة البعيدة، فهي لذلك ليست كأخرى قد عُهدت، ومُلت، وقُليت**»[٣]، ويشيع الربط بين جمل المقابسات بـ(لذلك) ونكتفي بهذا.

أمّا النوع الثالث من أنواع الربط، فربط الاستدراك الذي يربط بين المتضادين المتعارضين ، ومنه قوله: «**قيل لأبي سليمان، وقد جرى كلام في السر وطيه والبوح به، ما السبب في أن السر لا ينكتم البتة؟ فقال: لأن السر اسم لأمر موجود قد ضرب من دونه حجاب، وأغلق عليه باب، فعليه بالكتمان والطي والخفاء والستر مسحة من العدم، وهو مع ذلك موجود العين ثابت الذات محصل الجوهر، فباتصال الزمان وامتداد حركة الفلك يتوجه نحو غاية هي كماله، فلابد له إذاً من النمو والظهور، لأنّ انتهاءه اليهما ووقوفه عليهما، ولو بقي مكتوماً خافياً أبداً لكان والمعدوم سواء، وهذا غير سائغ، أعني أن يكون**

(١) المقابسات، المقابسة الثانية والعشرون: ١٠٨.

(٢) نفسه، المقابسة الثالثة: ٨٠.

(٣) نفسه، المقابسة التاسعة والستون: ٢٣٦.

الموجود معدوماً، ولو قبل الوهم هذا لقبل أن يكون المعدوم موجوداً»[١]، فقد عرض النص إلى شيئين متضادين وهما: (السر، والبوح به) فكلا الأمرين لا يمكن الجمع بينهما؛ لذا كان من المستحسن أن يتم الربط بين جمل هذا النص بـ(مع ذلك) التي تفيد الربط بطريقة الاستدراك بين المعنيين المتضادين.

ومن ربط الاستدراك بـ(لكن)، ما جاء في قوله: «**النظم أدل على الطبيعة، لأن النظم من حيّز التركيب. والنثر ادل على العقل، لأن النثر من حيز البساطة. وإنما تقبلنا المنظوم، بأكثر مما تقبلنا المنثور، لأنا بالطبيعة أكثر منا بالعقل. والوزن معشوق الطبيعة والحس، ولذلك يغتفر له ما يعرض من الاستكراه في اللفظ. والعقل يطلب المعنى، فلذلك لا خطر للفظ عنده، وإن كان مُتَشَوَّقاً، معشوقاً. والدليل على أن المعنى مطلوب النفس، دون اللفظ الموشح بالوزن المحمول على الضرورة، أن المعنى متى صودف بالسانح والخاطر وتوفيّ الحكم، لم يبلَ بما يفوته من اللفظ الذي هو كاللباس والمعرض والاناء والظرف. لكن العقل مع هذا قد يتخيّر لفظاً بعد لفظ، ويعشق صورة دون صورة، ويأنس بوزن دون وزن، ولهذا يشقق الكلام بين ضروب النثر وأصناف النظم. وليس هذا للطبيعة، بل الذي يستند إليها من الكلام ما كان حلواً في السمع، خفيفاً على القلب، بينه وبين الحق صلة، وبين الصواب وبينه اصرة، وحكمها مخطوط بإملاء النفس، كما أن قبول النفس راجع إلى تصويب العقل**»[٢]، فعلى الرغم ممّا أثبته في أول النص، من أنّ النثر أدل على العقل في حين أن النظم أدل على الطبيعة، لكن العقل قد يميل إلى الوزن الذي هو أبرز سمات النظم ؛وبهذا قد يعكس العقل أثر الطبيعة عليه في ذلك.

أمّا النوع الأخير من أنواع الربط، فربط التفريغ، أو التتابعي من ناحية الزمن، وممّا ورد منه قوله: «**مراتب العبودية في العيشة الدنياوية على الحقيقة أربع: أولها الاهتمام للسعادة، ثم السلوك إليها، ثم الحصول عليها، ثم الإمساك بها**»[٣]، فهذه المراتب الأربعة تأتي متوالية زمانياً؛ فلابدّ أولاً من وجود الرغبة في السعادة الأبدية التي لا تزول، ولتحقيق هذه السعادة يأتي

(١) المقابسات، المقابسة السابعة: ٨٦ – ٨٧.

(٢) نفسه، المقابسة الستون: ١٩٦ – ١٩٧.

(٣) نفسه، المقابسة التسعون: ٢٧٩.

بعد الرغبة فيها؛ الجانب العملي في سبيل تحقيقها بالسلوك إليها، وبعد ذلك تُستحصل، وأخيراً الإمساك بها ومصاحبتها على الدوام في الحياة الدنيوية، ومن ثم في الحياة الأخروية الخالدة.

ومنه أيضاً ما جاء في وصف البدن والمراحل التي يمر بها من الولادة وحتى البعث: «**وقال آخر: إن البدن يستحيل من حال إلى حال، فيكون مرة مواتاً، ومرة حيواناً. وضرب مثلاً فقال: لما رأينا الأجساد تستحيل من حال إلى حال عن طباعها، وتستحدث افعالاً لم تكن لها، كالماء السائل يستحيل جَمَداً، فيبطل سيلانه، ويستحدث جموداً وسكوناً ويبساً. وكالماء يستحيل بخاراً صاعداً، بعد أن كان نَدَاً هابطاً. وكالماء يغدو اثمار الازهار، فيستحيل دهناً، ثم يعود الدهن ناراً، عند قلب النار اياه، واغتذائها به. فلما لم نرَ الماء يكون في طبعة من استحالته إلا يستحدث فعلاً؛ وانسلخ من فعل غيره، قضينا على أبدان الحيوان بالاستحالة والتكفؤ بين الموت والحياة، والحركة والسكون، فقلنا: الحي هو الميت مستحيلاً، والميت هو الحي مستحيلاً. وضرب مثلاً فقال: مَثل ذلك مَثل عصير العنب، يكون حلواً عذباً غير مسكر، ثم يستحيل خمراً مراً مسكراً، ثم يعود خلاً حامضاً مخدراً، والعنب واحدة لم تبرح، الا أنها استحالت، فتغيرت افاعيلها، لتغير حالاتها. وكذلك البلحة تكون بُسْرة، ثم رُطَبة، ثم تمرة**»[1]، فظهر كيف ربطت جمل النص بـ (ثم) التي أفادت التوالي الزمني تتابعياً.

لاحظنا كيف أفاد التوحيدي من أنماط الربط في نصوص مقابساته ولاسيما في الربط بين الأفكار المتنوعة والمختلفة والمتعاكسة، بل والمتضادة في بعض الأحيان فجاءت نصوصه أكثر وحدة، وتماسكاً فيما بينها، ولا يعود الفضل في ذلك إلى الربط عامة فحسب؛ بل إلى اختيار النوع المناسب والفعّال في عملية اقتران الجمل بين بعضها ببعض.

(١) المقابسات، المقابسة السابعة والتسعون: ٣٢٤.

الفصل الثاني

الالتحام

توطئة:

يعد الالتحام أهم المعايير النصية وغايتها؛ ذلك أنَّنا نجد شقيّ العملية الإبداعية متمثلة بالنص ومؤلفه، والتواصلية متمثلة بالفهم المعنوي لمتلقيه يتعاونان سوية في إطار النص؛ وقد تصدَّر رصدُ موضوع النص وكيفية بنائه الأولويات في ذلك، إذ إنّ علاقة وثيقة يلحظها الباحث بين ترتيب الجمل وترتيب أحداثها، والهدف الذي من أجله نُسِجَ النصُ.

ومما لا شك فيه أن ذلك هو غاية العملية التواصلية برمتها؛ ومن هنا تبرز أهمية هذا المعيار في إضفاء القيمة على النصوص المؤلفة من جهة، وعلى المكنة والخبرة الثقافية التي يجيدها المتلقي.

وهكذا يأخذ النص بعداً أوسع وأشمل لدى فرد دون آخر، ومن بين أولئك يبرز الموهوب المتذوق الذي يأخذ من النص على قدر ثقافته فيغترف من معين النص ما يروي به موهبته وذائقته.

ويرى دي بوجراند في الالتحام أنه يتطلب من الإجراءات ما تنشط به عناصر المعرفة ولاسيما المخزون الثقافي لدى المتلقي لإيجاد الترابط المفهومي واسترجاعه، وتشتمل وسائل الالتحام لديه على الآتي:

١. العناصر المنطقية: كالسببية، والعموم والخصوص.

٢. معلومات عن تنظيم الأحداث والأعمال والموضوعات والمواقف.

٣. السعي إلى الالتحام فيما يتصل بالتجربة الإنسانية.

في حين يتدعم الالتحام بتفاعل المعلومات التي يعرضها النص مع المعرفة السابقة بالعالم[(١)].

وفي قوله: (ما تتنشط به عناصر المعرفة لإيجاد الترابط المفهومي) تعني عناصر المعرفة لدى المتلقي مخزونه الثقافي وأدواته التي يتذوق بها النصوص اللغوية، وهذا العمل يترجم من فلسفة التأليف في أعلى مستوياتها؛ إذ إنها تستهدف ما يكتنز عليه المتلقي، فالنص الذي ينتجه شخص ما يرتقي على وفق ثقافة المتلقي وتجربته فيبلغ مديات أبعد تبعاً لذلك، فتتحول تلك الملكة إلى أدوات استكشاف ورصد دلالات النص ونكت معانيه، فتتحول عملية التواصل إلى

(١) ينظر: النص والخطاب والإجراء: ١٠٣.

عملية إبداعية ثنائية في محورين: المؤلف بنصه، والمتلقي بأدواته المعرفية التي تتفاعل مع النص، ويتفاعل معها النص.

وقد يكون أصدق مثال على ذلك ما كان يحصل مع الشعراء حين يستمعون إلى تحليل شعرهم من موهوبي التذوق فيصابون بالدهشة لما يستخرج من معانٍ جديدة ومبتكرة من الأصل النصي لأشعارهم، في حين أن ليفاندوفسكي لا يرى الالتحام خاصية من خواص النص فحسب؛ بل هو – أيضاً – حصيلة اعتبارات معرفية بنائية عند جماعة المتلقين، فيما أوجز زوايا نظر لسانيات النص إلى الالتحام بالآتي:

١. الضابط اللغوي لفهم الالتحام فهماً أعمى.
٢. واحد من أهم خصائص الارتباط بين الأشياء والأوضاع وبين مراجعها، وهو الارتباط المعجمي أو الإشاري.
٣. الالتحام أحد دعائم الإطار الاتصالي الاجتماعي.
٤. إجراء وحصيلة التلقي الابتكاري البناء[١].

وللتجارب السابقة لدى الفرد أهمية كبرى في تراكم العادات التحليلية والفهمية لديه في معالجة النصوص واستكناه معناها، وفي هذا الصدد فقد اتكأ براون ويول على رأي عالم النفس بارتليت الذي رأى أن عملية المعرفة من الإدراك حتى التفكير تعد طرائق يسعى فيها جهد أصيل وراء المعنى إلى التجسيد[٢].

وتفرض – هاهنا – مكونات التجربة أثراً مهماً وكبيراً على ذائقة الأفراد ومديات الفهم لديهم والفاعل مع النصوص عبر ربط خلاصة تجاربهم وتنوعها مع الفرضيات الممكنة في نص ما.

أما الجانب الذي يقع على عاتق المتلقي في استكشاف العلائق وربط المفاهيم في النصوص فهو جانب تداولي صرف؛ ولذا عرف من وجهة نظر التداولية على أنّه مجموعة من العلاقات المفهومية المتواضع عليها والتي يستعملها القارئ والكاتب في تعاملهما مع النص، ويرتكز هذا التعريف على ثنائية النصوص (الكاتب والقارئ) لإظهار سمة التداول، ومن هذه

(١) ينظر: النص والخطاب والاتصال، محمد العبد: ٩١ – ٩٢.

(٢) ينظر: تحليل الخطاب ج. يول، و ج. براون: ٦١.

النظرة يكون للنص مظهران متمايزان، هما: المظهر المضموني القضوي، ويصل في أعلى مستويات التجريد إلى رصد القضية الكبرى أو موضوع الخطاب، والثاني يعالج منظور البناء الخطي للنص (البنية العليا)[١].

وينظر سعد مصلوح إلى الالتحام نظرة عامة على أنه عنصر يختص بالاستمرارية في عالم النص، ويعني بها الاستمرارية الدلالية التي تتجلى في منظومة المفاهيم والعلاقات الرابطة بين هذه المفاهيم[٢]، ويأخذ الالتحام بعداً أوسع على مستوى أهمية المعايير النصية وينبع ذلك من أنه المستوى الدلالي للكلام الذي يناظر المستوى الشكلي له، ومن هنا فالتماسك مجموعة العلاقات «الدلالية بين أجزاء النص، إذ تلتحم هذه الأجزاء ويتماسك بعضها مع بعض بحيث إذا غاب هذا الالتحام ظهر النص وكأنه أشلاء ومِزَق لا رابط بينها»[٣]، ومن هنا فلا غرو إذا قلنا إن مفهوم الالتحام يرتبط بالنص ارتباطاً عضوياً فيدور معه وجوداً وعدماً، إذ لا يوجد الالتحام من دون وجود نص، ولا يستوي النص إن لم يكن متماسكاً.

وفي العود إلى المصطلح نجد أن الأصل الانجليزي (Coherence) قد حصل فيه من الاختلاف الشيء الكثير في سبيل إيجاد ما يقابله في العربية، إذ لم تتفق الدراسات العربية التي اهتمت بالإلتحام النصي على توحيد المصطلح عربياً، ففي حين يطلق عليه باحثون مصطلح(التماسك) نجد آخرين يطلقون عليه مصطلحات (الاتساق)، و(الإنسجام)، و(الحبك)، و(التقارن)[٤]... الخ.

ويقوم مبدأ الالتحام على العكس من مبدأ التماسك؛ ففي الوقت الذي وجهت علاقات التماسك اهتمامها إلى تفكيك النص والبحث عن عناصره اللفظية التي تمنحه سمة التماسك فإن الالتحام يهتم بإعادة بناء النص بالكامل وبالربط العلائقي بين وحداته العضوية كافة.

وتتضح وجهة نظر كلاوس برنكر في الإلتحام في أن الأمر في بنية النص على المستوى الموضوعي يتعلق بتحليل الربط الإدراكي الذي ينشئه النص بين الأحوال (المضامين الجملية

---

(١) ينظر: نظرية علم النص، حسام أحمد فرج: ١٠٦ – ١٠٧.

(٢) ينظر: نحو أجرومية للنص الشعري، سعد مصلوح: ٢٨٧.

(٣) منازل الرؤية، سمير استيتية: ٢٧.

(٤) ينظر: في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، سعد مصلوح: ٢٢٥ – ٢٢٩، و لسانيات النص، خطابي: ١٣– ٢٥.

والقضايا) المعبر عنها في النص بمجموعة الجمل، فيما يرى أن مضمون النص يفهم على أنه عملية استنباط نتيجة معالجة وبسط قوة المضمون(المعلومة الأساسية) التي يحمِّلها النص قالبه اللغوي إلى المتلقي[١]، فيما تتضح وجهة نظر فانديك في قوله: «الاتساق في بداهة الفكر عبارة عن خاصية سيمانطيقية للخطاب قائمة على تأويل كل جملة مفردة متعلقة بتأويل جملة أخرى»[٢]، ويلمح في قوله هذا إلى الروابط التي تحصل بين الجمل وأهميتها على المستوى الدلالي للنص، وقوله: «العلاقات بين الجمل والقضايا يمكن أن توجد بدون أن يتم التعبير عنها، وهذا هو السبب الذي من أجله كان كل تركيب نظري للنص ضرورياً لتبيين كيف يمكن أن تؤول ضروب الخطاب على وجه الاتساق حتى ولو ظل معظم القضايا المحتاجة إلى إثبات اتساقها ضمنية غير صريحة»[٣].

وأما براون ويول فتتحقق وحدة النص لديهما بوجود الأدوات النحوية الرابطة للنص، وكذلك الرابط المعنوي الضمني – وهو ما يهمنا في هذا الفصل – فمن المعتاد أن نجد نصوصاً نفهمها بكل تلقائية على أنها متماسكة لا تظهر فيها إلا القليل من الأدوات الظاهرة المعبرة عن علاقات التماسك، فالقارئ لهذه النصوص يفترض بداهة أن توالي الجمل هنا يؤلف نصاً، وأن القارئ سيتفاعل في فهم الجملة الثانية في ضوء معطيات الجملة الأولى عبر رصده وجود علاقات معنوية قائمة بين الجمل[٤] تفرضها علاقات الارتباط المنطقي بين معاني الكلام المؤلف[٥].

وتضفي الدراسات اللسانية النصية منظوراً جديداً على وحدة النصوص وأطر قياسها؛ «إذ لم تعد تقاس فقط من خلال الظواهر السطحية، بل يبحث عنها في أبنية القاعدة الدلالية مما يتم شرحه بناء على النماذج الأساسية الدلالية مسائل المركبات المعقدة، وتناسق النص وأيضاً مع استثناءات استقلالية النصوص»[٦]، فيما يشترط سوفنسكي ضابطاً في تحقق عملية

(١) ينظر: التحليل اللغوي للنص: ٣١ – ٣٢.

(٢) النص والسياق، فان دايك: ١٣٧.

(٣) نفسه، فان دايك: ١٣٩.

(٤) ينظر: تحليل الخطاب: ٢٣٤ – ٢٣٦.

(٥) ينظر: نظام الارتباط والربط قي تركيب الجملة العربية، مصطفى حميدة: ٧٣.

(٦) مدخل إلى علم اللغة النصي، فولفانج هاينه و فيهفيجر: ٥٥.

الانسجام في النص بقوله: «يقضي للجمل بأنها منسجمة إذا اتصلت بعض المعلومات فيها ببعض في إطار نصي أو موقف اتصالي اتصالاً يشعر معه المستمعون أو القراء بثغرات أو اقتطاعات في المعلومات»[١]، ويذهب إلى أبعد من ذلك حيث يفترض نفي كون الالتحام محض خاصية من خواص النصوص، لكنه حصيلة اعتبارات معرفية عند المتلقي، وهو حصيلة خاصية الدلالة التي تقوم على ترابط معنوي بين التصورات والمعارف على معنى أنها شبكة دلالية مختزنة لا يتناولها النص غالباً على مستوى الشكل وأن المتلقي هو الذي يصمم التماسك الضروري وينشئه[٢]، على أن ذلك لا يقوم بإلغاء عمل المؤلف الذي أوجد اللبنة الأولى والأساس للنص الذي يتعامل معه المتلقي.

ويستدعي النص جملة مفاهيم في ذهن المتلقي بحد ذاتها من دون غيرها ويعمل على تنشيطها، وحتى عملية التنشيط هذه هي عملية متفاوتة؛ فهي في أوجها عند بعض المفاهيم ودون ذلك في أخرى، فـ «عالم النص (Textual World) هو الموازي الإدراكي في ذهن مستعمل اللغة لهيئة المفاهيم المنشطة فيما يتعلق بالنص»[٣]، فأداة النص في هذه العملية هي العبارات، وهنا تتضافر العلاقة بين الإلتحام والسبك حيث يبنى الالتحام على السبك، فالسبك يقوم على الآليات الظاهرة في النص في حين يقوم الالتحام على الآليات الضمنية فيه.

أمَّا مفهوم الالتحام لدى دي بوجراند يتمثل في«حبك عالم النص، أي: الطريقة التي يتم بها ربط الأفكار داخل النص، ويظهر هنا الربط المنطقي للأفكار التي تعمل على تنظيم الأحداث والأعمال داخل بنية الخطاب»[٤]. وهذا كما أسلفنا يقع على المتلقي، فبعد إنتاج النص يصبح ملكاً لثقافة جماعة المتلقين وتجاربهم، فتصبح وسائل الالتحام التي تقوم على العناصر المنطقية: كالسببية، والعموم والخصوص معلومات عن تنظيم الأحداث والأعمال والموضوعات والمواقف[٥]، وهذه المنطقية في النصوص بمثابة البديهيات والثوابت التي ينهل منها الأفراد أدواتهم في توقع الأحداث داخل النصوص في حين أن الإبقاء على هامش يسير من

(١) حبك النص – منظورات من التراث العربي، د. محمد العبد (بحث): ٥٥.

(٢) ينظر: حبك النص: ٥٩.

(٣) النص والخطاب والإجراء: ٢٠١.

(٤) مقاربة نحو النص في تحليل النصوص (بحث على الشبكة العنكبوتية)، ياسين سرايعية: ٥.

(٥) ينظر: النص والخطاب والإجراء: ١٠٣.

عدم التوقع ينهض به مبدأ الإعلامية.

وبين التوقع يكون المتلقي شبكة رصد متوازنة في استيضاح المعاني التي يحاول أن يمررها المؤلف إليه، في حين أن «السعي إلى التماسك فيما يتصل بالتجربة الإنسانية»[١] هو غاية العملية التواصلية برمتها؛ فيحصل التفاعل بين أفكار المؤلف وثقافة الفرد وتجربته الحياتية حيث ينعدم الالتحام بتفاعل المعلومات التي يعرضها النص، ويطلق دي بوجراند على هذا النوع من الذاكرة (الذاكرة الوقائعية)، إذ «تشتمل الذاكرة الوقائعية على مخزون الوقائع المحددة في تجربة الشخص (ما حدث لي)؛ أما الذاكرة المفهومية فتشتمل على المعلومات المنظمة (Systematized) (ما أعرفه عن العالم وكيفية اتفاق بعضه مع بعض)»[٢]، ويبدو لي أن هذين النوعين من الذاكرة يقتربان من مفهوم الأثر: «من لم يتعظ بالناس وعظ الله الناس به»[٣]، فتجربته تمثل الذاكرة الوقائعية، في حين يمثل ما يتعلمه من تجارب الآخرين الذاكرة المفهومية.

هذا ومن البديهي أن يكون أثر الذاكرة الوقائعية أكبر لدى الفرد من الذاكرة المفهومية في رصد المعاني في النصوص.

---

(١) النص والخطاب والإجراء: ١٠٣.

(٢) نفسه: ١٩٠ – ١٩١.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، التميمي الآمدي: ٣٦٣.

علاقات الالتحام:

الإضافة:

الإضافة هي نسبة بين شيئين فيكتسب الأول من الثاني ما له من صفات وخصائص[١]، وسمى النحويون إسناد اسم إلى اسم إضافة؛ لأنه إلصاق أحدهما بالآخر بضرب من التعريف، أو التخصيص[٢]، والمضاف والمضاف إليه متلازمان على الدوام؛ لذا اتسمت العلاقة بين المتضايفين بالوثاقة[٣]، وقد دفع هذا الأمر المستشرق بروكلمان في حديثه عن المضاف إليه في اللغات السامية إلى وصفهما في بعض الأحيان بالكلمة الواحدة[٤].

وتشيع علاقة الإضافة في المقابسات؛ حيث تتوزع نصوص كثير منها إلى: نص رئيس، وآخر متضمن فيه، وفي كلا النصين تقوم الإضافة ببناء النص وتعضيد الأواصر المعنوية فيه ليغدو وحدة موضوعية متراصة ومتكاملة، إذ يتكون البناء النصي الرئيس في هذه الطائفة الكبيرة من المقابسات من قسمين:

الأول: الجملة الافتتاحية، ومن أمثلتها: «**سمعت أبا سليمان المنطقي يقول**»[٥].

والثاني: مقول القول التالي له؛ وهنا مثلاً قوله: «**بالاعتبار تظهر الأسرار، وبتقديم الاختبار يصح الاختيار... الخ**»[٦]، فيكونان معاً ما يمكن أن يطلق عليه(حديث الراوي)؛ في حين تشكل حكاية المقابسة النص المتضمن الذي ينوي التوحيدي إيصاله إلينا.

وتبلغ أهمية الإضافة أنها تعد «الأداة الرئيسة التي يتم من خلالها بناء النص الرئيس»[٧].

ومثل هذا الشكل في النص نجده كثيراً في المقابسات، ولاسيما نقل التوحيدي عن شيخه أبي سليمان المنطقي.

---

(١) ينظر: في النحو العربي، د. مهدي المخزومي: ١٧٢.

(٢) ينظر: شرح عيون الإعراب، المجاشعي: ٢١٢.

(٣) ينظر: نظام الجملة في شعر المعلقات، د. محمود نحلة: ١٣٢.

(٤) ينظر: دراسات في فقه اللغة العربية، السيد يعقوب بكر: ١٢.

(٥) المقابسات: المقابسة الأولى: ٥٦.

(٦) نفسه: ٥٦.

(٧) علم لغة النص، عزة شبل:٢٠١.

على أنّه قد لا ينسب القول إلى شخص بعينه؛ وذلك حيث يكثف تصوير مشهد المقابسة ويبالغ في ذكر تفاصيله وأشخاصه: «**هذه مقابسة دارت في مجلس أبي سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني، وعنده أبو زكريا الصيمري، وأبو الفتح النوشجاني، وأبو محمد العروضي، والمقدسي، وغلام زحل، وكل واحد من هؤلاء إمام في شأنه، وفرد في صناعته سوى طائفة دون هؤلاء في الرتبة، وهم أحياء بعد، فاستخلصتها جهدي، ورسمتها في هذا الموضع، فقد كادت تضيع في جملة تعليق كثير ضاع استعضت منه الحصرة والأسى، ومن حق العلم، وحرمة الأدب وذمام الحكمة، أن يتحمل كل مشق دونها، ويصبر على كل شديدة في اقتنائها وتحصيلها، ولا أنسب فضلاً إلى أحد منهم بعينه؛ لأن الكلام بينهم كان يلتف ويلتبس، وكانت المباهاة والمنافسة تدخلان فيه، ويظهران عليه، وينالان منه، وهذا من ذوي الطبائع المختلفة معروف، ومن أصحاب التنافس مألوف، ولو استتب القول بين سائل ومسؤول لحكيت الحال مقرباً ومبعداً، ومصوباً ومصعداً، ولكن جرى الأمر على عرفتك، فكن عاذري عند خلل تمر فيه إنْ أَبَيَّتَ أنْ تكون شاكري عند صواب تظهر عليه، إن شاء الله تعالى**»[(١)]، ثم يبدأ مباشرة بـ «**قيل:لم خلا علم النجوم من الفائدة والثمرة وليس علم من العلوم كذلك؟**»[(٢)]، ويتضح لنا – هاهنا – كيف استعاض بتفاصيل المشهد الذي ينقل عنه مضمون المقابسة عن نسبة القول إلى أحد الشخوص المذكورين؛ وكأنه بتفصيله لهذا المشهد يحيل القارئ عليه بالجملة، فيما يشرع مباشرة بعد ذلك في مقول القول.

وتتعدد أشكال الإضافة وتعمل على المستوى الرأسي والأفقي معاً، عبر تتابع جمل القول على لسان شخصيات المقابسة على نحو ما نجد في قوله: «**قال بعض الأوائل: الكَرْم، والنبات الشبيه به، إذا أخذ منه الجزء نبت**»[(٣)].

وكذلك: «**وقال قائل:لم كان للعقل ثلاث جهات: جهة إلى الباري، وجهة إلى**

(١) المقابسات، المقابسة الثانية: ٥٧ – ٥٨.

(٢) نفسه، ٥٨.

(٣) نفسه، السابعة والتسعين: ٣١٤.

المعقولات، وجهة إلى ذاته»[١].

وكذلك قوله: «**وقال الفيلسوف: الذكر إنّما هو ردّ حركات الفكر على الوهم الجاري، حتى يَرُدَّ ما في خزانته على ما كانت الفكرة تحركت به**»[٢].

ومنه أيضاً جواب أرسطوطاليس على السؤال: لم لا نذكر العالم الأعلى ومنه هبطنا؟ فقال: «**إنّما صرنا لا نذكر العالم العقلي، لأنا صرنا في هذا العالم الحسي**»[٣].

وكذا: «**قال فرفوريوس، وهو المفسر، ان هذا المرء الفاضل قال في كتاب النفس: ان العقل النفساني، إذا اتصل بالعقل الأول الخالص المحض ،كان عاقلاً دائماً**»[٤]، و: «**قالوا أيضاً: لما رأينا الطبيعة تحكم أفعالها وتفعلها لعلة**»[٥]، و: «**وصفوها بصفة فقالوا: النفس نور مفرد**»[٦]، و«**كان أبو سليمان إذا رأى بعض أصحابه يتشدد في هذه الوجوه، قال له**»[٧].

وتأخذ علاقة الإضافة في المقابسات شكل التتابع فلا تكاد تنتهي من معنى جملة من الجمل حتى يبادرك المعنى الآخر في الجملة التالية، ومجموع معاني تلك الجمل تصب في المعنى العام الذي صُدِّرت به تلك المقابسة، ومنها مثلاً ما جاء في المقابسة الأولى: «**سمعت أبا سليمان المنطقي يقول: بالاعتبار تظهر الأسرار، وبتقديم الاختبار يصح الاختيار، ومن ساء نظره لنفسه قل نصحه لغيره. وكما تنظف الآنية من وسخ ما جاورها ولابسها، ووضر ما خالطها ودنسها، لتشرب فيها، أو لتنظر إليها، وتستصحبها، وتحفظها، ولتكون غنياً بها، ولا تريدها إلا طاهرة نقية صافية مجلوة، ومتى لم تجدها كذلك عفتها وكرهتها ونفرت عنها وطرحتها، لأن طبيعتك لا تساعدك عليها، ونفرتك لا تزول منها، وإباؤك لا يفارقك من اجلها، وقشعريرتك لا تذهب من بشاعة منظرها، كذلك فاعلم أنك لا تصل**

---

(١) المقابسات: ٣١٥.

(٢) نفسه، ٣١٦.

(٣) نفسه: ٣١٧.

(٤) نفسه: ٣٢٠.

(٥) نفسه: ٣٢٧.

(٦) نفسه: ٣٢٨.

(٧) نفسه، المقابسة السابعة والتسعون: ٣٣١.

إلى سعادة نفسك، وكمال حقيقتك، وتصفية ذاتك، إلا بتنقيتها من درن بدنك، وصقالها من كدر جبلتك، وصرفها عن ظلمة هواك، وفطامها عن رضاع شهوتك، وحسمها عن الضراوة على سوء عادتك، وردها عن سلوك الطريق إلى هلكتك وتلفك ونبوذك واضمحلالك»[١].

ويتبين لنا كيف تتتابع الجمل في سبيل خدمة موضوع المقابسة العام، وكيف تتوارد الأفكار الواحدة تلو الأخرى تعضيداً لوحدة الهدف الذي بنيت عليه المقابسة، ونجد مثل هذا في كثير من المقابسات.

السبب والنتيجة:

وتعد هذه العلاقة أكثر ارتباطاً بأهل الفلسفة والمنطق إذ يميل التوحيدي وينشط، فهي زادهم في الطرح، ومناقشة وتحليل الروابط والمفاهيم التي تحيط بالفرد أو ما يمكن أن يعقله ويتعاطى معه، وكسائر علاقات الالتحام الأخرى تقوم علاقة السبب والنتيجة بالربط بين مفاهيم جمل المقابسات متجاوزة الربط بين جملتين إلى الربط بين مجموعة جمل متتالية.

وتتنوع الأسباب والنتائج بحسب الموضوع الذي تعالجه المقابسة وبحسب الأشخاص الذين يحضرون مجلسها وتبعاً لثقافاتهم وانتمائهم الديني.

وتشيع علاقة السبب والنتيجة في المقابسات ومنها مثلاً قوله: «**فلما كان الناموس الإلهي**[٢] **نصيحة عامة للكافة، وجب أن يستعان عليها بكل ما يكون ردءاً لها، ورفداً معها، وفارشاً لما انطوى منها، وموضحاً لما خفي عنها، وداعياً باللطف إليها، وضامناً لحسن الجزاء عليها**»[٣].

ونلاحظ في هذه العلاقة وجود سبب واحد هو كون الناموس الإلاهي نصيحة عامة للكافة؛ في حين تتعدد النتائج التي ترتبط بذلك السبب وتتنوع؛ وهي:

وجب أن يستعان عليها بكل ما يكون ردءاً لها؛

---

(١) المقابسات، المقابسة الأولى: ٥٧.

(٢) في الأصل: الإلاهي، والصحيح ما أثبتناه.

(٣) المقابسات، المقابسة الرابعة: ٨٤.

ورفداً معها؛

وفارشاً لما انطوى منها؛

وموضحاً لما خفي عنها؛

وداعياً باللطف إليها؛

وضامناً لحسن الجزاء عليها.

ومن الألفاظ الأخرى التي شدتها المقابسات في هذا النوع من العلاقات سبب واحد ونتيجة واحدة كما جاء في قوله: «**قلت لأبي سليمان، وقد جرى كلام في السر وطيِّه والبوح به، ما السبب في أن السر لا ينكتم البتة؟ فقال: لأن السر اسم لأمر موجود قد ضُرِبَ دونه حجاب، وأغلق عليه باب، فعليه من**[1] **الكتمان والطي والخفاء والستر مسحة من العدم، وهو مع ذلك موجود العين ثابت الذات محصل الجوهر، فباتصال الزمان وامتداد حركة الفلك، يتوجه نحو غاية هي كماله، فلا بد له إذاً من النمو والظهور، لأن انتهاءه إليهما، ووقوفه عليهما، ولو بقي مكتوماً خافياً أبداً لكان والمعدوم سواء، وهذا غير سائغ، أعني أن يكون الموجود معدوماً، ولو قبل الوهم هذا لقبل أن يكون المعدوم موجوداً**»[2].

ومع أن النتيجة واحدة، وهي أنّ السر لا ينكتم والسبب واحد – أيضاً – إلا أننا نجده قد أطنب في بيان أحوال النتيجة وسماتها وما تنطوي عليه من تطورات مع مرور الزمن وغير ذلك.

ونجد مثل هذا كثيراً في المقابسات، أي: وجود سبب واحد ونتيجة واحدة؛ ومنها ما جاء في قوله: «**فلين الزبد من عطية الطبيعة ولكن على قدر قبوله، وصلابة الحجر من عطية الطبيعة ولكن على قدره. فاختلاف الصور إنما نشأ من اختلاف الموارد**»[3].

ونلحظ في النص الأخير ورود سببين ونتيجتين على التوالي، فيما تقدمت النتيجة على السبب في كلا الأمرين في علاقة معكوسة، وقد تكون أهمية السياق في إثبات النتائج قد

---

(١) في الأصل (بالكتمان)، وقد أثبتُّ (من الكتمان) كما في نسخة المقابسات بتحقيق حسن السندوبي: ١٤٥.

(٢) المقابسات، المقابسة السابعة: ٨٦ – ٨٧.

(٣) نفسه ، المقابسة الحادية عشرة:٩٣.

سوغت ذلك العمل.

ويسوق التوحيدي في مقابساته من النتائج ما هي مركبة من أكثر من جزء قبال سبب واحد، ويجمع تلك في حقيقة واحدة غير قابلة للزيادة والنقصان: «**مبدأ الجوهر الصورة والمادة، ومبدأ الكم النقطة والوحدة. ومبدأ الكيف السكون والحركة. قال: وهذه المبادئ هي أوائل العالم العلوي والسفلي والعقلي والحسي. وصار إيضاحه بهذا التلخيص ببحث العقل، واستنباط النفس، وشهادة الحال، وحقيقة المطلوب. إن حاول محاول زيادة على هذا لم يستطع، وإن رام رائم نقصاً منه لم يقدر، لأن انتظامه بالعلة الأولى، وتمامه من اجلها، ودوامه بدوامها. والحركة والسكون والنقطة والوحدة والصورة والمادة لم تختلف في أعيانها، بل للقوابل التي هي لها، وبحسبها انقسمت النعوت عليها، واشتركت العبارات عنها. ومتى أمكن تسديد اللحظ إلى الغاية العالية، وإلى النهاية المتناهية،لم يوجد إلا الحق الذي هو هو، لا شيء هو به هو، بل كل شيء هو به، وهو له، وهو من أجله**»[(١)].

ونجد التوحيدي في بعض مقابساته وقد أقامها بالكامل على سبب ونتيجة ، أو سببين ونتيجتين؛ كما فعل في المقابسة الخامسة عشرة التي أقامها على سببين ونتيجتين: «**قلت لوهب بن يعيش الرقي: لم صارت الكيفية تسري من المكيف إلى الأول والثاني؟ مثال ذلك: الرائحة التي للتفاح، فإنها تسري الهواء، ثم تقرع الخيشوم، وتصل إلى الدماغ. وليس كذلك الكمية في ذي الكم. مثال ذلك: تفاحتان وثلاث عند زيد، لا تسري كميتها إلى عمرو. فقال: الكمية أقرب إلى الجوهر، وأشد توحداً به، وأدل على المواصلة والتشبث والوحدة، وليس كذلك الكيفية، لأنها أبعد من الجوهر، وأرب إلى الكثرة، فلذلك صار مقتضى الكيفية بحسب الكثرة، مخالفاً لمقتضى الكمية بحسب الوحدة. ألا ترى أن الكيفية تابعة لما تراءى في الحس، واتسق عن الطبيعة؟ ألا ترى أن الكمية تابعة لما تراءى للعقل، واتصل بالنفس؟**»[(٢)]. ومن الألفاظ الأخرى التي جاءت في المقابسات تصدر المقابسة بنتيجتين؛ ومن ثم يقوم بسرد الأسباب التي أدت إلى ذلك: «**فقال: لأنّ هذا عَدِم ما**

(١) المقابسات، المقابسة الرابعة عشرة: ٩٥.

(٢) نفسه: ٩٦.

يقوِّم نفسه، ويكمل ذاته. وذاك فقد ما يقوم أصله، وينشر قديمه. والنفس أرفع من الأصل، لأن الأصل راجع إلى الولادة، والنفس دالة على النقص والزيادة، نعم وعلى الشقاء والسعادة. وقد يحس الإنسان بنفسه الجيدة سقوط أبويه فيتلافى، بكسب الخير وإيثار الجميل وشدو الأدب وقصد العلم، كل خلل سلف له. كما قد يحس الإنسان شرف أبويه، فيتكل على ما سبق لأوليته، ولا يشغل زمانه العزيز في تحلية نفسه بحلي آبائه وأجداده وأخواله وأعمامه ليكون زينة له في حياته، وذكراً لعقبه بعده، فلا جرم يخرج أحرى من صاحبه كثيراً »[١].

ونرى كيف تسهم علاقة السبب والنتيجة في بناء المقابسات وتسهيل الطرح الفكري والنقاش العلمي والمعرفي إذ تعد هذه العلاقة إحدى أهم وسائل الفلسفة والمنطق حيث يشتّد النقاش ويحتدم الصراع بين الأفكار للوصول إلى ترجيح وجهة النظر هذه على تلك وهكذا دواليك.

ونختم كلامنا في السبب والنتيجة بما يؤيد ما أسلفناه من استعمال هذه العلاقة في طرح الأفكار وترجيحها على غيرها بما أورده التوحيدي في المقابسة الخامسة والستين؛ إذ يعمد إلى إيراد السبب والنتيجة في صورة متلاحقة وكلمات مكثّفة تحرى فيها الاختصار جهد ما أمكن وكأنه يحاول إيصال خلاصة الفكرة إلى المتلقي على الفور ومن أقصر السبل: «**إنّما يخرج الزُّبْد من اللبن بالمخض، وإنما تظهر النار من الحجر بالقدح. وإنما تستثار النجابة من الانسان بالتعليم. والمعدن لا يعطيك ما فيه إلا بالكدح. والغاية لا تبلغها إلا بالقصد. ومن نشأ بالراحة الحسية فاتته الراحة العقلية. والعاجلة تتصرم والآجلة تدوم**»[٢]، ونجده وقد استعان في سبيل إيصال مجموعة أفكار السبب والنتيجة بأسلوب الحصر والقصر الذي كان خير معين له في ذلك.

---

(١) المقابسات، المقابسة الحادية والعشرون: ١٠٧.

(٢) نفسه، المقابسة الخامسة والستون: ٢٢١.

السؤال والجواب:

ومن علاقات الالتحام المهمة علاقة السؤال والجواب، والتي تؤدي مجموعة كبيرة من الوظائف في داخل النص إذ إنّها تقوم بوظيفة أساسية في بناء الحوار داخل المقابسات القائمة على طرح موضوع للمناقشة في سبيل الوصول إلى حقيقة ما؛ لذا لا غرو أن نجد مقابسات كثيرة هي عبارة عن سؤال يُجَابُ عنه في طياتها، ومن تلك الأسئلة، قوله:

«**لِمَ صارت الكيفية تسري من المكيف إلى الأول والثاني؟**»[١]،

و«**لِمَ صار الإنسان إذا زور كلاماً لمجلس يخصه، وخصم يناظره، وصاحب يعاتبه لايفي بأدائه في حال مايباشر المراد وينحي عن الغرض، ويتوخى غاية ما في النفس؟**»[٢]،

و«**هل يجوز أن يقال: أن الإنسان ذو نفس، كما يقال: هو ذو ثوب، وذو مال؟**»[٣]

و((**سئل... عن الحركة والسكون أيهما أقدم؟**))[٤]

وإن علاقة السؤال والجواب توفر جواً مناسباً للتوحيدي في إمكانية طرح أفكاره وما يجول في نفسه وما يحظى باهتمامه، ثم إن طرح سؤال سواء أكان عنوان مقابسة أم في أثنائها مدعاة لِلَفت انتباه المتلقي إلى المقابسة ومخاطبة فضوله في البحث عن الجواب في قابل الكلام، أو ربما محاولة إيجاد الجواب الشافي من خلال ثقافته ومن ثمَّ التفاعل التواصلي مع نصوص المقابسة.

ومن الأمثلة على علاقة السؤال والجواب ما سأل به التوحيدي أبا سليمان: «**قلت له، عند التفاف الكلام في هذا الحد، ما الخلق؟**

قال: شعار الخلْق.

قلت فما المحمود منه؟

قال: ما أنشأته النفس الفاضلة في المزاج المعتدل.

قلت فما المذموم منه؟

---

(١) المقابسات، المقابسة الخامسة عشرة: ٩٦.

(٢) نفسه، المقابسة السادسة عشرة: ٩٧.

(٣) نفسه، المقابسة السابعة والعشرون: ١٢٠ – ١٢١.

(٤) نفسه، المقابسة الثالثة والثلاثون: ١٣٣.

قال: ما تؤثره الطبيعة في ذي مزاج متفاوت»[١].

ويعد هذا الإنموذج من السؤال والجواب في المقابسات وهو من الأشكال الميسرة على المتلقي، إذ يأتي سؤال واحد بعده جوابه؛ نلحظ أنواعاً أخرى أكثر تركيباً كالتي تأتي: سؤالاً بعد سؤال بصورة متلاحقة حتى يأتي بعدها الجواب عنها، ومثاله قوله: «**قلت لأبي بكر القومسي... ما معنى قول بعض الحكماء: الألفاظ تقع في السمع فكلما اختلفت كانت أحلى؟ والمعاني تقع في النفس فكلما اتفقت كانت أحلى. فقال: هذا كلام مليح، وله قسط من الصواب والحق. إن الألفاظ يستمليها السمع، والسمع حِسٌّ، ومن شأن الحس التبدد في نفسه والتبديد في نفسه. والمعاني تستفيدها النفس، ومن شأنها التوحد بها، والتوحيد لها، ولهذا تبقى الصورة عند النفس قينة وملكة، وتبطل عن الحس بطولاً، وتمحي امحاء. والحس تابع للطبيعة، والنفس متقبلة للعقل. فكأن الألفاظ على هذا التدريج والتنسيق من أمة الحس، والمعاني المعقولة له من أمة العقل**»[٢].

ومن الأسئلة والأجوبة ما هو أكثر تركيباً، كالسؤال الذي يطرح ومعه جواب محتمل، وهذا الجواب المحتمل يفضي إلى سؤال جديد يستوجب الجواب عنه، كما في قوله: «**قال أبو زكريا الصيمري لأبي سليمان: إذا كان الباري تعالى لا يفعل ما يفعل ضرورة ولا اختياراً، فعلى أي نحو يكون فعله؟ فإنه إن كان كاستنارة الهواء عن الشمس فهو ضروري، وإن كان كفعل احدنا فهو اختياري، وما خلا هذين فغير معقول، وما لا يعقل فغير مقبول. فقال أبو سليمان: قد قال كبار الأوائل: انه تعالى يفعل بنوع اشرف من الاختيار. وذلك النوع لا اسم له عندنا، لأنا إنما نعرف الأسماء التي قد عهدنا أعيانها، وشبهنا بها. والناس إذا عدموا شيئاً عدموا اسمه، لأن اسمه فرع عليه، وعينه أصل له، وإذا ارتفع الأصل ارتفع الفرع، هذا ما لا دفاع له، ولا امتناع منه. وخواص الخواص معدومة الأسماء**»[٣].

ومن الجدير بالذكر أن هذا النوع من الأسئلة يشيع كثيراً في مباحث الفلسفة، وتكاد تصطبغ معظم الأسئلة المطروحة في فنائها بهذا النوع.

---

(١) المقابسات، المقابسة الثالثة: ٨٢ – ٨٣.

(٢) نفسه، المقابسة السادسة: ٨٥ – ٨٦.

(٣) نفسه، المقابسة العاشرة: ٨٩ – ٩٠.

وتبرز هاهنا علاقة السؤال والجواب في الربط الدلالي بين موضوع المقابسة ونصها، أو في داخل نصِّ المقابسة نفسه.

ولا يقتصر أثر علاقة السؤال والجواب بالربط بين القضايا في داخل النص وحسب، بل نجدها تسهم في ربط النص بالسياق عبر إحالة النص على العالم الخارجي على نحو ما لاحظناه في مثالنا الأخير، ويؤدي هذا الربط إلى التماسك الدلالي ومن ثمَّ خدمة الالتحام في داخل المقابسات مما يصب في مصلحة المعنى العام الذي يحاول التوحيدي معالجته في مقابساته.

الشرط :

علاقة الشرط تقع بين قضايا النّصّ، ويتم ذلك باستعمال أدوات نحوية خصصت لهذا الغرض؛ فمنها الأسماء:(من، وما، ومهما، وأي)، ومنها الحروف: (لو، ولولا، وإن، وإذما)، ومنها الظروف: (أي، وأنى، ومتى، وإذا، وحيثما)، وهي من العلاقات التي يستعين بها التوحيدي في بناء مقابساته؛ ولا سيما فيما يتعلق ببعض المتلازمات في المفاهيم والتي لا تكون إلا بوجود شرطها، ومما جاء من الشرط بالأسماء قوله: «**من رفع عصاه عن نفسه، وألقى حبله على غاربه، وشتت هواه في مرعاه، ولم يضبط نفسه عما تدعو إليه بطبعه، وكان ليِّن العريكة لاتباع الشهوات الردية، فقد خرج عن أفقه، وصار أرذل من البهيمة، بسوء إيثاره**»[(١)].

ومن الملاحظ على النص مجيئه بأربعة شروط متتالية أفضت إلى جزأين اثنين، ويدور موضوع الشرط والجزاء على مراقبة النفس وتهذيبها.

ومما جاءت من الشرط بالأحرف قوله: «**لو لم يكن في النوم من الحكمة إلا أنه شاهد على المعاد لكفى، دع مافيه من راحة الأعضاء، وسكون الجرم، واستجلاب القوة إليها بعد العياء والكد. ولو كان النوم حالاً مصمتة، لا شعور لصاحبها من أولها إلى آخرها، لكانت الوحشة داخلة، والشك قائماً، والتهمة واقعة. ولكنها حال يتزود الإنسان منها أموراً غريبة، وأحوالاً عجيبة، ويتلقف منها غيباً كثيراً، ويستقبل منها عياناً ظاهراً**»[(٢)].

---

(١) المقابسات، المقابسة السابعة والثلاثون: ١٣٩.

(٢) نفسه، المقابسة الخامسة بعد المئة: ٣٥٣.

ونلاحظ كيف يتم للتوحيدي طرح المتلازمات في بعض المعاني بوساطة علاقة الشرط التي تستوجب الجزاء، إذ تمنح هذه العلاقة المعاني في طرفيها، أي طرف الشرط وطرف الجزاء، علاقة وثيقة أشبه بالسلسلة المتصلة التي تبقى متماسكة مهما طالت في أثناء النص، وهذا التماسك ينعكس على التحام نص المقابسة.

كما تستخدم هذه العلاقة في بناء موضوع المقابسة، فضلاً عن استخدام العلاقة الدلالية غالباً لا يكون بين جملتين فقط، وإنما يمتد بين الجمل مشكلاً سلسلة من الدلالات – كما في مثالنا الآنف الذكر — فيتخذ التوحيدي من هذه العلاقة وسيلة لبناء حوار المقابسة وعندئذ يتميز حوار المقابسات بوجود المعنى على شكل سلاسل من الدلالات، كما يتخذ التوحيدي من هذه العلاقة وسيلة لأداء المقابسة وظيفة تعليمية عبر تعلق الجزاء بالشرط.

أمّا استعمال الشرط بالظرف، فقوله: «**وأما الحياة، فإنها ينبوع الفرح واللذة، والفهم، والمعرفة، والحس والحركة، لا تمام للإنسان إلا بها، ولا قوام له إلا معها. ولذلك إذا نظر إلى الميت استوحش منه، وعوجل به إلى القبر، وابعد في الأقطار، لأنّ الحياة، التي كانت مهاد الانس ورباطاً بين النفس والنفس، قد فقدت. قال: وتجري العافية، بعد هذين مجراهما. وذلك أن العليل متى طالت علته، واشتدت وعظمت، تلكّأ عنه آنس الناس به، وهرب منه احدب الناس عليه. فالعقل والحياة والعافية أثافي النعمة الكبرى، ودعائم العطية الأولى، وكل ما عداهن فهو دونهنّ، وكل ما فارقهن يسقط عنهنّ. فالحياة وعاء، والعقل متاع، والعافية استعمال**»[1].

ويمنحنا هذا التنوع في استعمال علاقة الشرط في ربط القضايا في المقابسات وبالأدوات كافة: الأسماء، والحروف، والظروف، صورة تامة عن أهمية الالتحام في كل مقابسة من جهة، وفي المقابسات كافة من جهة ثانية.

(١) المقابسات، المقابسة الرابعة والخمسون: ١٨٣.

الإجمال والتفصيل:

تنشط علاقة الإجمال والتفصيل في الربط بين القضايا في النصوص، وتعد من العلاقات التي تمارس سلطتها على جمهور المتلقين، إذ يعد إجمال فكرة ما في النص مدعاة لاستثارة فضول المتلقي في محاولة فهم المعنى الكامل لما تم إجماله، ومن الطبيعي أن يحمل النص في طياته التالية التفصيل الذي بات ينتظره أولئك المتلقون.

وينشط مثل هذا الأسلوب في مجالس العلماء وحلقات التعلم نظراً لما يحتويه من أفكار مكثفة تفصح عنها تلك المجالس.

ويزين هذه العلاقة الغموض الذي يحمله الطرف الأول متمثلاً بالإجمال الذي يكون سبباً في إضفاء نوع من الإثارة في النص والاهتمام أكثر من المتلقين لغرض أن يجلى ذلك الغموض وتفك طلاسمه؛ ولاسيما أن النص يعد بذلك ويحمله إليهم في قابل تجلياته وتفاصيله ويأتي «لتقرير المعنى في ذهن السامع بذكره مرتين، مرة على سبيل الإبهام والإجمال، ومرة على سبيل التفصيل والإيضاح»[1]، وبهذه الخصوصية يمارس الإجمال والتفصيل وظيفة الربط بين القضايا في النص، كما جاء في قوله: «**من البيّن أن الموجود على ضربين: موجود بالحس، وموجود بالعقل. ولكل واحد من هذين الموجودين وجود، بحسب ما هو به موجود، إما حسي، وإما عقلي، فعلى هذا، النفس لها عدم في أحد الموجودين وهو الحسي، ولها وجود في القسم الآخر، وهو عقلي. وقد كان الدليل على هذه الحال حاضراً في هذا العالم، وذلك أنها كانت تتفكر، وتبسط، وتعقل، وتستبطن، وتنظم المقدمات، وتدل على ينابيع المعلومات، وتعلو إلى غاية الغايات. وليس للحس معها شركة، ولا له عندها معونة ومادة. فكيف لا تكون النفس التي هذا عنوان كتابتها، وصريح كنايتها، وفاضل عنايتها، بعد مفارقة القشور والحواجز والحيطان والحواجب والغواشي والملابس، عن الحس أغنى، وبجوهرها أغلى، وبخاصتها اسنى، وهذه الأشياء عنها أبعد، وعن شرفها أهبط؟ وهل هذه الشهادة إلا عادلة، وهذه البينة إلا مقبولة، وهذا الحكم إلا مرضي، وهذا**

(١) جواهر البلاغة، السيد أحمد الهاشمي: ٢٠٢.

المثال إلا بيّن؟»[١]، ونلحظ كيف يتم الاستعانة بعلاقة الإجمال والتفصيل في طرح المفاهيم الفلسفية حوارياً، وللربط بين القضايا بأسلوب مبسط وشيق.

وتشيع هذه العلاقة في المقابسات، ومنها ما يستغرق تفصيله كلام طويل، كما في مثالنا السابق، ومنه ما يأتي مختصراً مكثفاً في بضع كلمات كما في قوله: «**ثم اشاع الله العلم بالطب. وكلا الرجلين، أعني المعافى والعليل، إلى غاية مضروبة**»[٢]، فقد أجمل وفصل، في قوله: (وكلا الرجلين: أعني المعافى والعليل)، وقد نظم بهذه الكلمات القليلة علاقة كاملة من علاقات الالتحام أسهمت في ربط المفاهيم داخل نص المقابسة.

على أنّ هذا المثال قد لا يحظى فيه الإجمال بوافر أهمية من ناحية اختصار التفصيل، ذلك أن ما جاء مفصلاً هو كلام قليل، وتبقى الأهمية المعنوية له في شدِّ انتباه المتلقي، وعلى خلاف ذلك في المقابسة السادسة والستين إذ سينوب الإجمال بكلمات مختصرة عن كلام طويل يستغرق مقابسة كاملة، إذ يقول: «**نعود، في المقابسة الأخرى، إلى أشياء لأبي سليمان، فنأتي بها على وجهها. ونذكر في هذه حكماً سمعناها من الحراني أبي الحسن وغيره. فقد كانت المجالس لا تتصرم إلا عن فوائد كثيرة، فلسفية وغير فلسفية**»[٣]، فقوله (فلسفية وغير فلسفية) إجمال لما سيفصله في قابل كلامه، إذ يطول ويتنوع؛ ومن أمثلة تفصيله قوله: «**قال بعض السلف من الحكماء الصرحاء، والفضلاء القدماء: العلم ما تمم فضيلة العمل به، على أن العالم، وإن لم يعمل، حري أن تتوق نفسه، في حال من الأحوال، إلى محاسن ما علم وحفظ، والجاهل منقطع الكسب منه. والعالم ينفع، وإن لم يعمل، وليس ذلك للجاهل. والعالم كاسب على الجاهل، والجاهل كاسب للعالم**»[٤]، ومثله قوله: «**قال القومسي: السلطان في تدبير الرعية، كالشمس في تفصيل الازمان، والجند كالرياح في التلقيح، والعلماء من الجميع كالنبت، والحيوان في نقل الأموال كالارض في حمل الأنام وما يكون به منافع الانسان**»[٥]، ومثله قوله: «**وقال آخر، وهو عيسى بن علي، قيل لبعض**

---

(١) المقابسات، المقابسة الرابعة والثلاثون: ١٣٤ – ١٣٥.

(٢) نفسه، المقابسة الثالثة والأربعون: ١٥٠.

(٣) نفسه، المقابسة السادسة والستون: ٢٢٣ – ٢٢٤.

(٤) نفسه: ٢٢٤.

(٥) نفسه: ٢٢٥.

القدماء: كيف يكون المحرك ساكناً؟ فقال في الجواب: كالمغناطيس الذي يحرك الحديد، وكذلك الشهوة للبدن، فان الحجر والشهوة ساكنان، وكذلك المعشوق والعاشق. فقال القومسي وغيره أيضاً من الحكم اليتيمة قول الأول: إنما يدرك الشيء من جهة علته المحيطة به، فإذا لم يكن الشيء علة فلا محالة أنه غير مدرك. وقال عيسى بن علي: المَلِكُ بحقٍ من مَلك رقاب الاحرار بالمحبة. وقال الصابي: قال ثابت بن قرة: الخرافات توجد من أربعة أشياء: وهي عجائب البحر، وحديث السحر، وحديث العشق، وحديث الجن»[١].

وهكذا نرى كيف أمضى علاقة من علاقات الالتحام، اعني: الإجمال والتفصيل، على أقسام المقابسة كاملة، فربط بذلك بين القضايا في داخلها أيّما ربط، وأفاد من هذه العلاقة فائدة قصوى، ووظفها توظيفاً مثالياً.

وفعل مثل ذلك في المقابسة التسعين، فبدأها بقوله: «**هذه مقابسة تشتمل على كلمات شريفة**»[٢]، فقوله(كلمات شريفة)، إجمال لما سيفصله من كلام طويل، نذكر منه على سبيل المثال: «**انظر من جعلك مريداً، فاجعله مرادك، وجرّد الانتساب إلى من هو أوّلك وآخرك**»[٣]، ومثله قوله: «**متى عاون البعض البعض فقد استغنى الجميع عن الجميع، ومتى اتكل البعض على البعض فقد اضطر الجميع إلى الجميع**»[٤]، ومثله قوله: «**إذا سعد العبد بوصال مولاه على الحقيقة فقد صارت دنياه آخرته، وموته حياته، وفقره غناه، ومرضه صحته، ونومه يقظته، وضعفه قوته، وهمه فرحه. وإذا شقى بالحجب عن مولاه فقد انقلب الامر بالضد**»[٥]، ومثله قوله: «**يجب أن يتعرف أن درك الغاية أهو من جملة النعم، أم ليس هو من النعم، وانه إن كان من النعم، أهو مما ينال بحسب الافضال، أم بحسب التعويض، أم بحسب المثوبة**»[٦]، وتطول هذه المقابسة، ويطول معها تفصيل

---

(١) المقابسات، المقابسة السادسة والستون: ٢٢٧.

(٢) نفسه: ٢٧٠.

(٣) نفسه: ٢٧١.

(٤) نفسه: ٢٧٤.

(٥) نفسه: ٢٧٨.

(٦) نفسه: ٢٨١.

الإجمال الذي جاء في مستهلها، وكل هذا يستفاد من الربط الذي وفرته علاقة الإجمال والتفصيل التي أفاد منها التوحيدي فائدة في مقابساته.

البديل:

وهي من العلاقات الدلالية التي تربط بين مفاهيم النص، والبديل علاقات الانفصال التي تفيد التخيير بين معنيين والروابط اللفظية (أو، وأم) تعبر عنها وتسهم هي الأخرى في عملية بناء النص في المقابسات كما في قوله: «**قيل لأبي الخير: حدثنا عن معرفة الله، تقدس وعلا، أضرورة هي أم استدلال؟ فإن المتكلمين قد اختلفوا في هذا اختلافاً شديداً، وتنابذوا عليه تنابذاً بعيداً، ويجب أن يحصل لنا جواب فيشفي**»[(١)]، وما نلاحظه-هاهنا- وقوع البديل في النقيض من المبدل عنه كما ورد ذلك في تتمة النص: «**فقال: هي ضرورة من ناحية العقل، واستدلال من ناحية الحس**»[(٢)]، ونلاحظ-أيضاً- كيف تسهم علاقة البديل في توسيع آفاق المعاني في المقابسات.

وقال في تقسيم الموجودات: «**الموجود أيضاً ينقسم بنوع آخر، أن يكون إمّا خفي الفعل خفي الذات، أو ظاهر الفعل ظاهر الذات، أو خفي الذات ظاهر الفعل، أو ظاهر الذات خفي الفعل. ثم قلت: الأول هو الباري جل وعز، والثاني هو الحرارة والبرودة وما اشبههما، والثالث الطبيعة، والرابع الكواكب**»[(٣)].

وقد أتاحت علاقة البديل في هذا النص ذكر الموجود بصفاته من دون التصريح به وهذا أبلغ في البيان وأوقع في النفس، فيما جاء التصريح بها في نهاية الكلام من قبيل الاستئناس بذكرها، وتحققاً لما وقع في نفس المتلقي من المعاني المذكورة للموجودات في بدايته.

ومن أمثلة البديل قوله: «**النفس والعقل يصوران صوراً تحتملهما، أو أحدهما**»[(٤)]، وتمكن الروابط اللفظية (أو، أم) الخاصة بعلاقة البديل من الاختصار في الكلام، واختزال

---

(١) المقابسات، المقابسة الثانية والأربعون: ١٤٧.

(٢) نفسه: ١٤٧.

(٣) نفسه، المقابسة السابعة والثمانون: ٢٦٠.

(٤) نفسه، المقابسة السابعة والتسعون: ٣١٥.

الجهد، مع المحافظة على أداء المعاني اللازمة إن لم يكن أداؤها للمعاني بجودة أكبر وبدلالة أوسع نظراً لما تشتمل عليه من ناحية مميزة تميزها عن باقي العلاقات الدلالية التي تسهم في التحام النص والربط بين مفاهيمه.

التقابل:

تطرح المقابسات العديد من التقابلات، ويوظف التوحيدي هذه العلاقة الدلالية في بناء النص عبر ما تقوم به من الربط بين القضايا التي تتضمنها، وهذه التقابلات بين المعاني تمثل شبكة سميكة تمسك بالنص ومفاهيمه فتجعله ملتحِمَاً، ثم إنَّها من الطبيعي أن تكون بين معاني تقع على طرفي نقيض كما أثبت ذلك التوحيدي نفسه: «**التضاد مثل الصالح والطالح**»(١)، ومما ورد من علاقة التقابل: «**الوسط فيه الطرفان، كالماء الفاتر توجد فيه الحرارة والبرودة. ثم قال: هذا بيان قول الأوائل: الإنسان لُبّ العالم، وهو في الاوسط، لانتسابه إلى ما علا عليه بالمماثلة، وإلى ما سفل عنه بالمشاكلة. ففيه الطرفان، أعني فيه شرف الأجرام الناطقة، بالمعرفة والاستبصار والبحث والاعتبار، وفيه ضعة الاجسام الحية الجاهلة، التي ليس لها ترشح بشيء من الخير، ولا فيها انقياد له. فما أحرى من هذا حده وشأنه ومقره ومكانه، أن ينجذب إلى ما يعز به ولا يذل، ويجد به ولا يفقد، وينال به ولا يخفق. وما أشقى من هذا حديثه، من التمكين والاستطاعة والقوة والقدرة والتذكرة والتبصرة، أن تردّى من ربوته، وتَدَهَّبَ من هوته، وبقي خاسئاً حسيراً، ومقيداً أسيراً، فلا فكاك ولا اطلاق، ولا رحمة ولا إشفاق**»(٢).

ونلمح في هذه المقابسة العديد من التقابلات: كالحرارة والبرودة، وعلا وسفل، وشرف وضِعَة، وربوة وهوة، بل تعدى ذلك إلى استعمال الأفعال في تكوين هذه العلاقة كما في قوله: يعز ويذل، ويجد ويفقد، وينال ويخفق. وهكذا تتكاثف التقابلات في هذا النص لتسهم في الربط الدلالي بين قضايا المقابسة.

ومن الأمثلة الأخرى قوله: «**الخير، على الحقيقة، هو المراد لذاته. والخير،**

(١) المقابسات، المقابسة السادسة والتسعون: ٣١٣.

(٢) نفسه، المقابسة الثامنة والستون: ٢٣٠ – ٢٣١.

بالاستعارة، هو المراد لغيره»[١] إذ تمثلت علاقة التقابل بقوله: لذاته ولغيره، ومن الملاحظ أنّ المراد بـ(لغيره) لغير الذات، والضمير المتصل الهاء جعله يكتفي من تكرير المضاف إليه (ذاته) واللافت للانتباه أن التقابل –ها هنا– توصل إليه بمعنى النفي المتضمن في (غير) وقد جاءت هذه العلاقة على المعنى الجوهري للتقابل الذي هو الشيء ونقيضه، فقال: «**قضى العقل أن مرتبة التابع دون مرتبة المتبوع، ودرجة المتبوع فوق درجة التابع**»[٢]، فالتابع والمتبوع متقابلان، وقد وظفت هذه العلاقة الدلالية في الربط بين مفاهيم النص، وتأكيداً لهذه العلاقة وأهميتها في عملية الربط الدلالي نجده يكرر المتقابلين مرة ثانية في حين كان بإمكانه الاكتفاء بالإشارة إليهما بالضمير المتصل الهاء. هذا وقد يعمد التوحيدي إلى الاستعانة بتقابلات محفوظة لدى جماعة المتلقين، وكثيرة الاستعمال في لغتهم اليومية، كالمحرك والمسكِّن[٣]، والليالي والأيام[٤]، والشاهد والغائب[٥]،...إلخ في سبيل خدمة موضوع شائك تطرحه المقابسة كما ورد في هذه المقابسة التي عالجت المحرك الأول للأشياء، ولم لا يكون لها مسكن أول؟!

وفي أحيانٍ يلجأ التوحيدي إلى الإطناب في محاولة رسم أبعاد المتقابلين وبيان وصفهما ودقائق الاختلاف فيما بينهما كما ورد ذلك في حديثه عن الحسن والقبيح: «**معنى ذلك استحسانه الحسن، واستقباحه القبيح، والاستحسان منه تحسين لك، والاستقباح منه تقبيح عليك. والتحسين إطلاق، والتقبيح حظر**»[٦].

هذا وتشيع علاقة التقابل في مقابسات التوحيدي، ويبدو أنّ ذلك متأتٍ من ميله الفلسفي، وطبيعة الفلسفة في معالجة القضايا التي تقف على طرفي نقيض وتقابل فنجدها وقد تسللت إلى كلامه مُنْسَابة من غير تكلف؛ لتسهم في رفد النص وبنائه عبر الربط الدلالي بين القضايا التي تطرحها المقابسة.

---

(١) المقابسات، المقابسة الحادية والثمانون: ٢٥٢.

(٢) نفسه، المقابسة الثالثة بعد المئة: ٣٤٧.

(٣) ينظر: نفسه، المقابسة الرابعة بعد المئة: ٣٤٩ – ٣٥٠ .

(٤) ينظر: نفسه: ٣٥٢ .

(٥) ينظر: نفسه: ٣٥٢.

(٦) نفسه، المقابسة الثامنة والثلاثون: ١٤٠.

التمثيل:

تقع المقابسات في ضمن النثر إذ تنماز فنونه بالبلاغة وحسن الصياغة وكذلك فإنّ المقابسات حديث بليغ يتداخل فيه الوصف مع الحوار والنقاش الذي انمازت به، ويمثل مثل هذا الأمر فرشة واسعة المرامي والآفاق فيبرز ذو علاقة التمثيل في الربط بين القضايا، وطرح المفاهيم بعضها إلى جانب بعضها الآخر، وللتمثيل روابط لفظية تعبر عنه، وهي: (مثل، ومثلما، وكأن، وكما، والكاف، وهكذا).

وتشيع علاقة التمثيل في المقابسات، فتسهم في بناء المقابسة والربط الدقيق والواسع بين القضايا التي تتضمنها، فيما يتنوع التمثيل، فمرة يأتي كلام طويل يقابله تمثيل طويل كما في قوله: «**لابد في وضع الناموس الإلاهي – الذي يتوخى به إفاضة الخير، وبث المصلحة، وترتيب السياسة، وما يورث سكون البال، ويحسم مواد الشر، ويوطد دعائم السنن، ويبعث على تشريف النفوس، وتزيين الأخلاق، ويقرب الطريق إلى السعادة المطلوبة، ويواصل أسباب الحكمة، ويشوق الأرواح إلى طلب الحق وإيثار العفة، ويقدم دواعي العدل والنصفة والرحمة والمكرمة – من الأخبار التي تنقسم بين ما هو صدق محض وبين ما هو صدق ممزوج، وتكون الألفاظ التي تدور بها، واللغات التي ترجع إليها، كثيرة الوجوه، سمحة عند التأويل. وإنما وجب ذلك لأن الناس في أصل جبلتهم، وبدء خلقهم، وأول سنخهم، قد افترقوا مجتمعين، واجتمعوا مفترقين، واختلفوا مؤتلفين، وائتلفوا مختلفين، وأحساسهم متوقدة، وظنونهم جوالة، وعقولهم متفاوتة، واذهانهم عاملة، وآراؤهم سانحة. وكل متفرد بمزاج وشكل، وطباع وخلق، ونظر وفكر وأصل وعرق، واختيار وإلف، وعادة وضراوة ونفرة، واستحسان واستقباح، وتوق ووقفة، وإقدام وجسارة، واعتراف وشهادة، وبهت ومكابرة، هذا سوى أغراض كثيرة مختلفة لا أسماء لها عندنا خالصة، ولا بصفات متميزة**»[1].

وبعد كل هذا الكلام ينتهي إلى إيراد التمثيل الذي قال فيه: «**ومَثَلُ هذا مثل رجل أصلح طعاماً كثيراً واسعاً مختلفاً من كل لون وجنس ومذاق ورائحة ووضع ونضد وحرارة وبرودة**

(١) المقابسات، المقابسة الرابعة: ٨٣ – ٨٤.

وحلاوة وحموضة، ونصبه على مائدة واسعة عظيمة، تجمع ذي عدد جم. فمتى لم تكن المائدة ذات ألوان مختلفة وأطعمة مركبة متباينة في القلة والكثرة والملوحة والحرافة والغرفة والتقدمة، لم يقبل كل إنسان على ما يفتق به شهوته الخاصة له، ولم تمتد يده إليه باللون الذي تدعو اليه العين، لأن للعين نوعاً من الطلب ليس للفم، وللنفس أيضاً مثل ذلك، أعني النفس المغتذية، هذا غير ما هو مطلوب للنفس الناطقة من الترتيب والتكرمة والإيناس والمحادثة. قال: فلما كان الناموس الإلاهي نصيحة عامة للكافة، وجب أن يستعان عليها بكل ما يكون ردءاً لها، ورفداً معها، وفارشاً لما انطوى منها، وموضحا لما خفي عنها، وداعياً باللطف إليها، وضامناً لحسن الجزاء عليها»[١]، وهكذا نرى كيف جاء التمثيل بكلمات كثيرة لكلام طويل سابق له، وأحياناً يكون التمثيل بكلمات أقل من الممثل له كما في المثال الذي سنورده حيث جاء التمثيل بـ(الكاف وكأن): «**ثم قال: والوحدة شائعة في جميعها، ومحيطة بها كلها، ومشتملة عليها بأسرها. فصارت هذه الأشياء بالوحدة تتشاكل وتتكامل، وبالكثرة تتخالف وتتفاضل. فالمعنيُّ بالتصفح، المولع بالتعرف، قد تلوح له تارة كالمركز من المحيط، وتارة كالمحيط من المركز، وتارة كالدرة في البحر، أعني بهذه الفقرة ملء ما بينهما، فافطن له. فإذا لحظ الأول فكأنه صادر مع الصوادر، وإذا لحظ الثاني فكأنه وارد مع الوُرَّاد، وإذا لحظ الحشو بين الطرفين فكأنه كل هذا، وكل ذاك. ومن أجل الإحاطة الشائعة، والاشتمال الأول، ما انقسم المطلوب عند الطلب بين المحيط والمركز انقساماً مفروضاً لا محقوقاً، فالنسبة على هذا واحدة، والوصلة ثابتة، ولكن القوابل مختلفة الوجوه والأمكنة، متباينة النواحي والأزمنة**»[٢]، إن طبيعة التمثيل بالجمع بعدة صفات في النص وتمثيلها بصفة أخرى، أو بالنقيض؛ أتاحت للمرسل آفاقاً كبيرة في عملية بناء النص وربط القضايا فيه، وقد وظّف التوحيدي هذه العلاقة في مقابساته خير توظيف فنجدها وقد شاعت في أغلب طروحاته ونقاشاته التي كانت شغله الشاغل فيما كان يحاول إثباته تارة ونفيه تارة أخرى.

وفي أحيان أخرى يأتي التمثيل والممثل به في كلمات قصيرة جداً كما في قوله: «**الطبيب**

---

(١) المقابسات، المقابسة الرابعة: ٨٤.

(٢) نفسه، المقابسة السادسة والثلاثون: ١٣٨- ١٣٩.

أخو المنجم، ونظيره وشبيه الحال به»[١]، وكذلك في قوله: «**استضاءة الجسد من النفس كاستضاءة القمر من الشمس، واستضاءة النفس من العقل كاتضاح النفس للنفس، واستضاءة الروح من الطبيعة كاستضاءة المركز من المحيط، واستضاءة العقل من العلة الأولى كاستضاءة العاشق من المعشوق**»[٢]، ولابد هنا أن نشير إلى أن الاختصار الواضح على هذه الأمثلة لا يقلل من أهمية دورها في عملية بناء المقابسة بل على العكس يعطيها إضافة؛ ذلك أنّ الاختصار يلقي بظلاله على تكثيف الفكر في هذه العلاقة الدلالية ممّا يجعلها ذات أهمية كبيرة في الربط بين القضايا في نص المقابسات عبر اختزال الجهد في الكلام والزمن.

ونجد في مقابسات التوحيدي صورة أخرى من صور التمثيل إذ يعمد في تمثيله إلى سرد قصة تكتمل فيها كل أركانها من بداية، فعقدة، فحل؛ ومثال ذلك: تمثيله حال العقل، والحسّ في معرفة الله تعالى، أضرورية هي أم استدلالية؟ إذ: «**زعم أن مثال الحس في هذا كامرأة حسناء متبرجة، ذات وقاحة وخلاعة، قد جلست إلى شاب طرير له شطر جمالها وعليه مسحة من حسنها، تخدعه بحديثها، وتراوده عن نفسه لنفسها، وتبدي له محاسنها، وتطمعه في الاستمكان منها، وتستعجله في حاجتها، وتحثه على قضاء اللذة منها. فأما مثال العقل: فكأنه شيخ هِمٌّ، قاعد على بعد، ليس به نهضة للزحوف إليه، والحيلولة بينه وبين ما قد نزل به من صاحبته الوقحة الفاضحة، الا أنه مع ذلك يليح بثوب، وينادي بصوت، ويحرك رأسه، ويبسط يده، ويعد ويلطف، ويعظ ويخوف، ويضمن ويرفق، ويشفق ويحنو. فأين تأثير هذا الشيخ الهم المحطم من تأثير هذه الخالبة، الغالبة، المحتالة؟ وهذا مع قلة إصغاء الشاب الى الشيخ، وسيلانه مع هذه. وأراد بهذا المثل الفرق بين العقل فيما يدعوك إليه لتسعد، والحس فيما يحملك عليه لتشقى، هذا في جميع ما تزاوله، وتحاوله، وتهم به، وتتوجه نحوه. فعلى هذا، فإن الله تقدس اسمه معروف عند العقل بالاضطرار، لا ريب عنده في وجوده. ومستدل عليه عند الحس، لأنه يستحيل كثيراً، ولا يثبت اصلاً. فمن استدل ترقّى من الجزئيات، ومن ادعى الاضطرار**

(١) المقابسات، المقابسة الثالثة والأربعون: ١٤٩.

(٢) نفسه، المقابسة التاسعة والستون: ٢٣٤.

انحدر من الكليات»[١]، ولا يخفى كم يحمل التمثيل بالقصة المتعة والتشويق لدى جماعة المتلقين فضلاً عن تحقيق المأرب في الربط الدلالي بوساطة علاقة التمثيل، ولنأخذ مثالاً آخر في هذا الصدد، ففي حديثه عن حال الناس في إصابة الحق من إخطائِه، مثل بالقصة الآتية: «**ومثال ذلك، عُميان انطلقوا إلى فيل، فاخذ كل واحد منهم جارحة منه، فجسها بيده، ومثلها في نفسه، ثم انكفؤا. فأخبر الذي مس الرجل: ان خلقة الفيل طويلة، مدورة، شبيهة بأصل الشجرة والنخلة. وأخبر الذي مس الظهر: ان خلقته شبيهة بالهضبة والرابية المرتفعة. وأخبر الذي مس مشفره: انه شيء لين لا عظم فيه. واخبر الذي مس اذنيه: انه منبسط، رقيق، يطويه، وينشره. فكل واحد منهم قد ادى بعض ما ادرك، وكل يكذب صاحبه، ويدعي عليه الخطأ والغلط والجحد فيما يصفه من خلق الفيل. فانظر إلى الصدق كيف جمعهم، وانظر إلى الخطأ كيف دخل عليهم حتى فرقهم**»[٢]، وهكذا تأخذ علاقة التمثيل بعداً آخر عبر الإفادة من القصص الافتراضية، أو الواقعية فتعاونه في ذلك سمات التواصلية وأولها التداولية.

ثم إنّ للقصة من الوقع في النفوس الشيء العظيم ولاسيما فيما يخص سمة التشويق وترقب الأحداث ومحاولات فهمها، وتتبع أحداثها؛ وهكذا تبلغ علاقة التمثيل غايتها في المقابسات، إذ يتم استثمارها في خدمة الحوار والهدف الذي ترمي المقابسة إلى تحقيقه.

---

(١) المقابسات، المقابسة الثانية والأربعون: ١٤٨ – ١٤٩.

(٢) نفسه، المقابسة الرابعة والستون: ٢٢٠.

الفصل الثالث

القصد

القصد من منظور لسانيات النص:

يُعد القصد من المعايير النصية التي تخضع لها الوظيفة التواصلية للنص؛ وهو يتحكم في عملية إنتاج النص، ومن ثمَّ بأحد طرفي عملية التواصل اللساني.

إن الأداء اللغوي اللساني التواصلي لا يتم له تحقق فعلي إلا بمكونيه من الطرفين الأساسيين المؤلف والمتلقي وإن اختلفت وظيفتيه؛ إذ للأول وظيفته الإنتاجية وللثاني وظيفته الاستهلاكية، وحلقة الوصل بينهما المادة اللغوية الخاضعة للإنتاج والاستهلاك، ومعنى هذا أن التحرك الإبداعي يقتضي التعامل مع الطرفين بدرجة متساوية من الأهمية؛ وقد أخذ الدرس اللساني النصي على عاتقه الاهتمام بهذين الطرفين اهتماماً بالغاً، ويهمنا–هنا– أن نرصد ونتعقب التوجه المنوط بالمنشئ المنتج للنص.

ويعد القصد من المحفزات الأساسية للمرسل في إنتاج نصه فتنسج النصوص في سبيل تحقيق قصده وترجمته في الواقع التواصلي اللساني، سواء أكان منطوقاً أم مكتوباً، وكان القصد من الأهمية بمكان أنه يشكل الدافعية التي تقف وراء تحريك رغبة المنتج باتجاه إنجاز منتج لساني في الوسط التواصلي فكان أحد أهم المحاور الأساسية التي بني عليها علم النص وثبتت أركانه؛ فكان «أحد معايير النصانية التي حددها روبرت دوبراند ودريسلر... والقصد يتضمن موقف منتج النص لإنتاج نص متناسق ومتماسك باعتبار منتج النص فاعلاً في اللغة مؤثراً في تشكيلها وتركيبها»[١].

ويرى دي بوجراند أنّ القصد صورة من اللغة قصد بها أن تكون نصاً يتمتع بالسبك والالتحام، وينضوي مثل هذا النص تحت خطة مرسومة مسبقاً للوصول إلى غاية بعينها، ولابد من الإشارة إلى أن هناك مدى متغيراً للتغاضي في مجال القصد حيث يظل القصد قائماً من الناحية العملية حتى مع عدم وجود المعايير الكاملة للسبك والالتحام وكل ذلك يحصل مع عدم التخطيط إلى الغاية المرجوة، وهذا التغاضي عامل من عوامل ضبط النظام يتوسط بين المرتكزات اللغوية في جملتها والمطالب السائدة للموقف؛ ولذا فإنّ القصد يتضمن موقف منشئ النص[٢]،

---

[١] المصطلحات الأساسية: ١٢٨.

[٢] ينظر: النص والخطاب والإجراء: ١٠٣ – ١٠٤.

هذا ويعد القصد والقبول أكثر معيارين ظهوراً من معايير النصية لوقوفهما في طرفي عملية الاتصال، المرسل والمتلقي؛ وهما يبيّنان كيفية تآلف العناصر المكونة للنص وإفادتها معنى؛ ولكنهما في الوقت عينه يعجزان عن تزويدنا بحدود فصل مطلقة وراسخة تميز بين النصوص وغير النصوص في الموقف التواصلي، فبإمكان مستعملي اللغة استعمال نصوص تبدو – ولأسباب مختلفة – غير مستكملة التضام والتقارن وهم يقومون بهذا فعلاً ولذا صار من الواجب إدخال اتجاهات مستعملي النص في ضمن معايير النصية ولِذا لا غنى لأي تشكيلة لغوية يراد استغلالها في التفاعل الاتصالي عن توافرها القصد بأن تكون نصاً وعن قبولها بهذا الاعتبار، وتنطوي مثل هذه الاتجاهات على شيء من الإغضاء عن الاختلال في التضام والتقارن مادامت الطبيعة الغائبة للاتصال قائمة وهكذا فإن عمليتي إنتاج النصوص واستقبالها تقومان بدور أحداث خطابية ذات صلة مباشرة بخطة ما أو هدف ما[١]، وقد وصف آدمستيك القصد بأنّه من أهم معايير الوصف المميزة للمشاركين في العملية اللسانية التواصلية[٢]، إذ لا يصلح التواصل اللساني من دون هذه السمة وربما بَانَ فساده، فهذه السمة تقع في صدارة الأهمية بالنسبة للحدث اللغوي، وعلى هذا فقد ارتبط الفعل الإنجازي بوصفه فعلاً جزئياً لفعل كلامي معقد؛ ارتباطاً وثيقاً بمقاصد المتكلم، ويحقق المتكلمون بمساعدة اللغة أشد مقاصدهم، وفي ذلك لا يمكن أن تحدد المقاصد وأن تحلل على نحو مباشر مثل الأفعال القولية وأفعال التحقق إلى حدّ ما، وفي اللغة التداولية يفرق أيضاً بشكل حدسي بين ما يقال وما يقصد، إذ يتعلق المقصود في المقام الأول بالجانب الإنجازي للفعل الكلامي المتمم، ويجب أن ينظر إلى الإنجاز بوصفه جانباً قصدياً لفعل كلامي في سياق الموقف الكلي البراجماتي – التوالي (السياق البراجماتي – التواصلي). ويشتمل الموقف الكلي البراجماتي – التواصلي، الذي يتضمن فيه كل فعل كلامي للعلاقات الخارجية والداخلية أيضاً بين المتكلمين والسامعين التي يمكن أن تُوحّد في بعض تكوينات علائقية، وتتبع في ضمن ما تتبع التكوينات العلائقية الداخلية المعرفة السابقة المعنية والفروض المسبقة المتعلقة بالشركاء[٣]، ويعد المرسل طرفاً مؤثراً في

---

[١] ينظر: مدخل إلى علم لغة النص، إلهام أبو غزالة: ١٥١.

[٢] ينظر: لسانيات النص، خطابي: ١٧٦ – ١٧٧.

[٣] ينظر: مدخل إلى علم النص، وارزنياك: ٢٦.

اللغة فهو يشكل ذاتاً محورية في إنتاجها فتصبح اللغة موجودة بالفعل بعد أن كانت موجودة بالقوة[١]، ويبلغ القصد في أعلى مؤثراته في المحيط التداولي حينما يصبح معياراً في التعرف على «إيجاد الكلام لنسبته الخارجية أو مطابقتها إن كانت موجودة قبل التكلم»[٢]، وهذا الوصف يقع في طائلة المقولة البديهية عند علماء السلف من رجال العربية: (مطابقة الكلام لمقتضى الحال)، واليوم يأخذ إنتاج النص مكانته في مجموعة النشاطات المتعددة للإنسان.

إن المتكلم الذي ينتج نصاً ما ينجز نشاطاً خاصاً؛ إنه يفعل فعلاً لغوياً، فلم يعد ثمَّ خلاف في الوقت الحاضر سواء في نظرية النشاط أو في علم اللغة النفسي الخاص باستيعاب النص حول كون الأمر يتعلق – هنا – بنشاط واعٍ موجه إرادياً يشتمل على الخواص المقولية ذاتها كأي نشاط آخر للإنسان– أيضاً[٣].

وفي هذا المقام أرى من المفيد أن أميز بين الهدف المرصود مسبقاً لدى المؤلف الذي أقام النص في سبيل تحقيقه وبين القصد الذي يتفرع من النص المنتج ذاته بعد أن يصبح مادة إبداعية يغترف منها المتلقون على مدى ما يتوافرون عليه من ثقافة وتجارب مسبقة، وهذه القضية كثيراً ما تطالعنا في التحليل الفني للشعر والنثر، فكثير من الشعراء – مثلاً– يذهلون حينما تحلل بعض قصائدهم وتفسر بمعنى آخر أو مضاف لما أراده أصلاً، وربما يأخذ هذا المعنى الآخر أو المضاف مساحة واسعة لدى المتلقي فيشخص وتنمو مقبوليته، فالمعنى «ربما يكون مفهوماً بحسب اللغة ولا يكون مراداً»[٤]، وجه المنوط بالمنشئ المنتج للنص، بل وإن الدخول تحت المراد قد لا يستلزم أن يكون مراداً[٥]، وهكذا صار للمشتغل في تحليل الشعر الحرية في رصد المعاني المكتنزة فيه بشرط عدم تحميل النص ما لا يحتمل.

هذا ولعل من نافلة القول إنّ ما هو داخل في مراد المتكلم لا يستلزم أن تدل عليه العناصر المتواضع عليها من قوانين اللغة نفسها، ففي اللغة العربية، يقال: (نحن طالبان) وهذا جواب لسؤال: ما أنتما؟ ولكن عند تفحص الإجابة تطالعنا بعض العناصر الحشوية وهي في

---

[١] ينظر: استراتيجيات الخطاب، د.عبد الهادي الشهري: ٤٥.

[٢] التداولية عند العلماء العرب، د. مسعود صحراوي: ٧٨.

[٣] ينظر: مدخل إلى علم لغة النص، هاينه و فيهفجر: ٩٧.

[٤] فواتح الرحموت بشرح مسلَّم الثبوت، عبد العلي الأنصاري: ٣١٩/١.

[٥] ينظر: حاشية على شرح مختصر المنتهى، التفتازاني: ١١٣/٢.

مثالنا هذا: علامة التثنية في (طالبان)، وهذه العلامة فرضتها مقتضيات الوضع التي تتطلبها الصحة اللغوية- في حين أن المتكلم لم يقصدها أصلاً من الناحية التخاطبية، وهكذا فيمكن أن يتوصل المتكلم إلى هدفه في إبلاغ رسالته حينما يقول: (نحن طلبة) مع انتهاكه قواعد اللغة العربية والإخلال بانسجام الخطاب وتماسكه[١].

وتأكيداً على سلطة النص صار من البديهي أن ما لا يتحمله اللفظ لا يثبت في التخاطب والتواصل وإن نوي[٢]، وعامة «فإنّ اللفظ، والقرينة يؤديان وظيفة الدال، في حين أن المعنى والمراد يؤديان وظيفة المدلول. وعلى الرغم أنه- من حيث المبدأ - يمكن أن يقصد المتكلمون ما لا تعنيه ألفاظهم، فإن حريتهم في استخدام الألفاظ غير الموضوعة محدودة للمعاني المرادة مشروطة بقدرة اللفظ (مع مساعدة القرينة) على احتمال المعنى المراد»[٣].

ومن جانب النص فإنّ أهم وظيفة له هي: قصد التواصل لدى الباث المعَبّر عنه بوسائل محددة وسارية عرفياً، أي: مقررة بشكل ملزم في جماعة التواصل، وهكذا فالأمر يدور حول قصد الباث الذي ينبغي أنّ يعرفه المتلقي وبعد ذلك تبدأ وظيفة المتلقي في فهم النص، أي: على أي نحو ينبغي أن يفهم المتلقي النص إجمالاً، مثلاً: بكونه نصاً إبلاغياً أو بكونه نصاً استشارياً، فكأن هذا القصد أداة تواصل بين المرسل (الباث) والمتلقي[٤].

هذا مع مراعاة أننا مازلنا نؤكد على التمييز بين قصد المؤلف المرصود مسبقاً، وعليه يجب «في ضوء الفعل الإنجازي (مع أفعال كلامية بسيطة) أن يفرق بين وظيفة النص، و(القصد الحقيقي) للباث. وفي الواقع يمكن أن يماثل القصد الحقيقي... وظيفة النص غير أنه لا يجب أن يتطابق معها»[٥]، وهكذا علينا أن نفرق بين قصد الباث وسلطة النص أو ما يفرضه النص من مؤثرات على المعاني المحتملة في نص ما، ومن ثمّ على القارئ أن يأخذ مكان المخاطِب والمخاطَب معاً كُلٌّ على خصوصيته وحالاته للتمكن بعد ذلك من ولوج عالم الخطاب

---

[١] ينظر: علم التخاطب الإسلامي، محمد محمد يونس: ٦٣.

[٢] ينظر: شرح منار الأنوار، معز الدين ابن الملك: ١٤٠.

[٣] علم التخاطب الإسلامي: ٦٤.

[٤] ينظر: التحليل اللغوي: ١٢٢.

[٥] نفسه: ١٢٢ - ١٢٣.

السليم[١]، مع الأخذ بنظر الاعتبار «انّ كلام المتكلم من غير قصد لا يكون، ولا يعد كلاماً يؤخذ به، لأنّه سيكون كلاماً كاذباً»[٢]، فالهدف من الكلام الموجّه إلى الطرف الآخر هو الإشارة إلى محتوى معين[٣]، لذا لا غرو أن يغدو القصد من ضمن استراتيجيات الخطاب إن لم يكن أهمها لدوره في عملية إنتاج النص وما يشير إليه من دلالات محتملة.

وقد فرق سيرل بين مفهومين للقصد، فالأول: القصد الذي يكون وراءه وعي، والثاني: الذي يجمع بين الوعي واللاوعي، وقد وضع هذا النوع من القصد بكونه خاصية لعدد من الحالات العقلية والأحداث، وبسبب هذه الخاصية تتوجه تلك الحالات العقلية والأحداث نحو الأشياء والحالات الواقعية في العالم وتتمثل الحالات العقلية التي أشار إليها سيرل بالاعتقاد ، والخوف، والرغبة، والتمني، والحب، والكراهية...إلخ فهذه الحالات وراءها قصد؛ لأنّها عادة ما تدور حول شيء ما، ولكن ثمة حالات مغايرة لتلك، كالغضب والاكتئاب، والأنطواء، ...إلخ فهذه الحالات – مثلا- غير مباشرة، وليس ثمة حاجة لتكون حول شيء ما.

والقصد عند سيرل لغوي، وغير لغوي؛ ولكنه يؤكد أنّ ما يعنيه منهما القصد في السلوك اللغوي الذي يتحكم في الأفعال الكلامية بتحديد أشكالها، وتحقيق إمكانية معناها[٤].

وفي القصدية التي تعزى إلى منتِج النص يراعى منظور المتلقين الذي قد يعالج في الطرائق الأخرى، مثل: وجهات نظر أخرى لوصف المنتج على أنّها قصد في البعد الموقفي[٥]، فعليه يبنى يبنى مدى تقبل المتلقي للرسالة التي يبثها المرسل ومدى تفاعله معها.

وتفرض علينا فلسفة التواصل واتباع المنهج التأويلي في مجال القصد وجود علاقة بين طرفين، الأول منهما: الرسالة (النص) والمتكلم في السلسلة الاتصالية، والثاني: الرسالة والسامع فيتفاعل هذان الطرفان ليتحولا تحولاً عميقاً حيث يتم إخلاء ساحة التواصل من علاقة المشافهة (وجها لوجه) إلى علاقة قراءة الكتابة الأكثر تعقيداً، فيركن إلى سيطرة الخطاب في حروف مكتوبة، ولكن علينا أن نقرّ هنا بأنّ علاقة المشافهة تتأثر بالقصد الذاتي للباث ومعنى

---

[١] ينظر: لسانيات النص، أحمد مداس: ٥٧.

[٢] نظرية القصد، ليلى عباس خميس: ٥٢.

[٣] ينظر: مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة، ميشال زكريا: ١٧٢ – ١٧٣.

[٤] ينظر: تحليل الخطاب الشعري، محمد مفتاح: ١٦٤ – ١٦٥.

[٥] ينظر: لسانيات النص، كيرستين آدمستيك: ١٠٤.

الخطاب، إذ يصبح فهم ما يعنيه الباث، وما يعنيه الخطاب أمراً واحداً إلا أنّ قصد المؤلف ومعنى النص ينفصلان عن تطابقهما في الخطاب المكتوب – كما في عينة البحث التي بين أيدينا، وأعني: مقابسات التوحيدي– وهذا الانفصال بين المعنى اللفظي للنصّ، والقصد الذهني لمنتجه «يضفي على مفهوم التسطير دلالته الحاسمة، بعيداً عن مجرد تثبيت خطاب شفوي سابق. إذ يصير التسطير رديفاً للاستقلال الدلالي للنصّ، الذي ينشأ عن فصل القصد الذهني للمؤلف عن المعنى اللفظي للنصّ، وفصل ما كان يعنيه المؤلف عما يعنيه النصّ. وهكذا تفلت وظيفة النص من الأفق المحدود الذي يعيشه مؤلفه. ويصير ما يعنيه النص الآن مهماً أكثر مما كان يعنيه المؤلف حين كتبه»[١].

إنّ القصد الذي يضمنه المرسل في نتاجاته إنّما هو انعكاس لموقفه وواقعه الذي يعيشه على المستوى الشخصي والاجتماعي والنفسي والديني والاقتصادي...إلخ؛ لأنّ القصد عبر عن «ذات المرسل ومشاعره، كما تكشف عن حاله ومقصاده ومواقفه من مختلف القضايا التي يعالجها»[٢]، بل إنّه قد يتخذ بعض القضايا في نتاجه واجهة يطلق عبرها كمّ العواطف والأحاسيس التي تختلج في داخله وتثور في ذاته التي قد يوحي الجو العام بأنها صامتة ولكنها خلاف ذلك فيطلق لها العنان لتصول وتجول في العوالم التي ينسجها ويبنيها في منتجه الخاص والموجّه الى المجتمع.

---

[١] نظرية التأويل، بول ريكور: ٦١.

[٢] لسانيات النص، ليندة قيّاس: ٢١٧.

القصد في المقابسات:

لأهمية القصد لدى التوحيدي نجد صوته يطغى في كثير من مقابساته، فنجده في المقابسة الحادية والعشرين بصوت رجل لا ينتمي إلى أرومة الدولة التي تحكم البلاد التي يعيش فيها- فهو من جهة فارسي الأصل، ومن جهة أخرى من الطبقة المعدمة فيها، إذ يقول في بعضها: «**سمعت أبا سليمان يقول: فضيحة حسيب لا أدب له، اشنع وأفظع من فضيحة أديب لا حسب له. فقال ابن الوراق النحوي، ولم ذاك؟ فقال: لأنّ هذا عَدِم ما يُقوِّمُ نفسه، ويكمل ذاته. وذاك فقد ما يُقوم أصله، وينشر قديمه. والنفس أرفع من الأصل، لأنّ الأصل راجع إلى الولادة، والنفس دالة على النقص والزيادة، نعم، وعلى الشقاء والسعادة. وقد يحس الإنسان بنفسه الجيدة سقوط أبويه، فيتلافى، بكسب الخير وإيثار الجميل وشدو الأدب وقصد العلم، كل ذلك سلفٌ له. كما يحس الإنسان شرف أبويه، فيتكل على ما سبق لأوليته، ولا يشغل زمانه العزيز في تحلية نفسه بحلي آبائه وأجداده وأخواله وأعمامه ليكون زينة له في حياته، وذكراً لعقبه**»[1]، فهو ينتصر — هنا – لأدبه الرفيع لا إلى حسبه في مجتمع سادت فيه النزعة القومية لبني أمية ومن بعدهم لبني العباس؛ وصار الرجل العربي الوجه الآخر للحكم ومحور السطوة والحظوة كلّ هذا على حساب القوميات والشعوب الأخرى من الفرس والروم...وغيرهم؛ وربّما يقف بنا هذا التفسير على كثرة الشعراء والمثقفين والعلماء ولاسيما من المشتغلين في العلوم المختلفة من العربية والدينية... وغيرها من تلك القوميات غير العربية، فهذه الأمم أرادت ولوج عالم هذه الدولة القوية والحديثة في قمة سنامها فكان لابّد لها من شفيع لا يكسد فما كان أفضل من الأدب والعلم.

وهكذا نلحظ هنا استغراق هذه المقابسة في قصد التوحيدي الذي يغرق في دوامته على الدوام، وهذا الصراع الخفي بين القوميات من جهة، ثم مع كونه معدماً أصلاً في جلباب أرومته الأم من جهة أخرى.

---

[1] المقابسات: ١٠٧.

وهناك العديد من المواطن التي أبان فيها التوحيدي عن قصده في مقابساته –ومنها ما جاء في أثناء الحديث عن سياق الموقف، وكذا التناص – وفي هذا الصدد يطالعنا الوجه الآخر من ثقافة التوحيدي فهو أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء فهذه السمة، أي: سمة التفلسف تصبغ أغلب ما يعالجه التوحيدي في مصنفاته، فهي –وكما يقول أهلها – وعاء العلوم، وقد حاول التوحيدي أن يخرج جميع ما يطرحه إخراجاً علمياً ولاسيما في مناقشاته وحجاجاته العقلية التي كان يرصد فيها قضايا ساخنة على مأدبة أهل العلم والمهتمين بالثقافة في عصره والعصور التي سبقته، ومن ذلك مثلاً قوله: «**وهذه المبادئ هي أوائل العالم العلوي والسفلي والعقلي والحسي. وصار إيضاحه بهذا التلخيص ببحث العقل، واستنباط النفس، وشهادة الحال، وحقيقة المطلوب. إن حاول محاول زيادة على هذا ما لم يستطع، وإن رام رائم نقصاً منه لم يقدر، لأنّ انتظامه بالعلة الأولى، وتمامه من اجلها، ودوامه بدوامها. والحركة والسكون والنقطة والوحدة والصورة والمادة لم تختلف في أعيانها، بل للقوابل التي هي بها، وبحسبها انقسمت النعوت عليها، واشتركت العبارات عنها. ومتى أمكن تسديد اللحظ إلى الغاية العالية، وإلى النهاية المتناهية،لم يوجد إلا الحق**»[1]، فنلحظ في هذا النص طغيان النفس الفلسفي للتوحيدي فمفردات مثل: (الجوهر، والصورة، والمادة، ومبدأ الحكم، ومبدأ الكيف، والسكون والحركة، والعلة الأولى، وشهادة الحال، وحقيقة المطلوب...إلخ) هي من الحدود الأساسية في الفلسفة ومباحثها، ومن أدواتها وركائزها المحضة، فضلاً عن أنّ النص يزخر بالصنعة الفلسفية في استعمال الألفاظ وانتقاء المفردات ونظام العبارات حتى يميل في بعض فقراته إلى فنون البلاغة من جناس وسجع وغيرهما كما في قوله: (النهاية المتناهية، الذي هو هو لا لشيء هو به، بل كل شيء هو به، وهو له، وهو من أجله)، وهذا للدلالة على التمكن من اللغة وفنونها كما هو الحال مع الفلسفة وعلومها.

وتنبري روح التوحيدي الأدبية وتطغى سطوتها، وهو يعالج مادة أدبية خالصة وأثرها في النفس في موضوع النثر والنظم وأيّهما أشد أثراً في النفس، وتحاول هذه المقابسة الإجابة عن سؤال جدلي يحضر كلما دار الحديث عن النثر والنظم على مرّ الأزمنة واختلاف العصور، إذ يقول: «**النظم أدل على الطبيعة، لأن النظم من حيّز التركيب. والنثر ادل على العقل، لأن**

---

[1] المقابسات، المقابسة الرابعة عشرة: ٩٥.

النثر من حيز البساطة. وإنما تقبلنا المنظوم، بأكثر مما تقبلنا المنثور، لأنا بالطبيعة أكثر منا بالعقل. والوزن معشوق الطبيعة والحس، ولذلك يغتقر له ما يعرض من الاستكراه في اللفظ. والعقل يطلب المعنى، فلذلك لا خطر للفظ عنده، وإن كان مُتَشَوَّقاً، معشوقاً. والدليل على أنّ المعنى مطلوب النفس، دون اللفظ الموشح بالوزن المحمول على الضرورة، أن المعنى متى صودف بالسانح والخاطر وتوفيّ الحكم، لم يبل بما يفوته من اللفظ الذي هو كاللباس والمعرض والاناء والظرف. لكن العقل مع هذا قد يتخير لفظاً بعد لفظ، ويعشق صورة دون صورة، ويأنس بوزن دون وزن، ولهذا يشقق الكلام بين ضروب النثر وأصناف النظم. وليس هذا للطبيعة، بل الذي يستند إليها من الكلام ما كان حلواً في السمع، خفيفاً على القلب، بينه وبين الحق صلة، وبين الصواب وبينه اصرة، وحكمهما مخطوط بإملاء النفس، كما أن قبول النفس راجع إلى تصويب العقل»[١]، فبعد أن ميّز بين أي النوعين أشد على النفس حاول أن يسوق جملة من المسوغات في هذا الصدد يضعها بين أيدينا ليقوي حجته ويفلح بحجاجته وبعد كلّ هذا الحوار يعود إلى الصنعة العقلية في معالجة الموضوعات؛ فيقول: «**ومع هذا ففي النثر ظل من النظم، ولولا ذلك ما خف ولا حلا ولا طاب ولا تحلا. وفي النظم ظلّ من النثر، ولولا ذلك ما تميّزت أشكاله، ولا عذبت موارده ومصادره، ولا اختلفت بحوره وطرائقه، ولا ائتلفت وصائله وعلائقه**»[٢]، فاستغراقه – هنا- في ظلال نزوعه العقلي يحاول أن يثبت الخير والأفضلية لكليهما – النثر والنظم- والبحث عن قصد التوحيدي الذي ضمّنته مقابسته هذه لا يحتاج إلى جهد فهو يقيم الفضل للنظم على النثر أولاً نظراً لما يقره الواقع الذوقي في المحيط العربي- على أقل الاعتبارات- ومن ثمّ ينتصر للنثر حينما يجعله على قدم المساواة في أثره على النفس؛ نظراً لما ينماز به أدبه في غلبة نثره على نظمه.

وختاماً نقول: إنّ ما عرضناه من مواقف اكتنفت الباث سواء أكانت الزمانية المتعلقة بالحقبة الزمنية التي أنتج فيها النص، أم المكانية والمتمثلة بالظروف التي خضع لها مكان النصّ ومنتجه من الأجواء النفسية والاجتماعية والثقافية والسياسية والدينية...إلخ أفاضت معرفتها

---

[١] المقابسات، المقابسة الستون: ١٩٦ – ١٩٧.

[٢] المقابسات، المقابسة الستون: ١٩٧.

والإحاطة بملابساتها بصورة فاعلة في الوصول إلى المعاني واقتفاء دلالاتها والوقف على ما أراد النص أن يوصله لجماعة المتلقين وهكذا تعرفنا إلى قصدية النصوص عن طريق ما تضمنته النصوص واحتوته من الصور اللغوية وغير اللغوية التي ضخت فيها ممّا أراد الباث إيصالها إلينا، وتوصل إليها المتلقي بالخبرة التي استقاها من معرفته بمحيط النص والباث على حدّ سواء.

الفصل الرابع

القبول

القبول من منظور لسانيات النص:

يُعد القبول من أهم المعايير النصية؛ إذ يقف في الطرف الثاني للعملية التواصلية عند المتلقي، إذ يكشف هذا المعيار القيمة التداولية لدى المتلقي، في حين يخضع المستوى الدلالي للنص إلى معيارين مهمين هما: عملية إنتاج النص، وعملية فهمه؛ ويمثل الأول: القصدية- الذي ناقشناه في المبحث السابق- بينما يمثل الثاني: القبول وهو مدار بحثنا هذا.

ولكن هل من جدوى تذكر لأي عمل كان مالم يلاقي قبولاً ما وتفاعلاً تواصلياً من الجمهور المتلقي؟ ولذا يجسد القبول: «موقف متلقي النص حول توقع نص متماسك متناسق»[١].

وهذا الموقف في ضوء لسانيات النص مشروط بالقبول، فحينما ضمن موقف مستقبل النص كان بإزاء «صورة ما من صور اللغة ينبغي لها أن تكون مقبولة من حيث هي نص ذو سبل، والتحام»[٢]، إنَّ تعاظم الاهتمام بالمتلقي ومراعاة تقبله كان وما يزال في صدارة البحث في ميادين اللغة المختلفة لذا اقتضى «البحث في وظيفة الانطباع لدى المخاطب مراعاة قبوله للرسالة وفهمها»[٣]. وكلّ تعديل لغوي يضرب بجذوره في ذات الشخص، والتغير الذي يطرأ وينتشر يعود إلى نقطة بداية الاستخدام الفردي؛ وهذه الخاصية الفردية تصبح خاصية لغوية حين يعممها أفراد الجماعة اللغوية[٤]؛ ولذا يبرز جانب المتلقي في العملية التواصلية، وتنعكس خبراته السابقة في تقبل نصٍّ ما؛ وتتأكد وجهة النظر القائلة بأنّ: «اللغة العربية ترتبط بكيان المتلقي العربي ارتباطاً لايضاهى»[٥].

ومن جانب آخر تخضع عملية إنتاج الخطاب - بين طرفيه - بفهم مقاصد المرسل[٦]، وهذه المسلمة قد تجعل الكلام من دون فهم، أي: أنَّ هناك خطابات غير مناسبة للسياق،

---

[١] المصطلحات الأساسية: ١٢٦.

[٢] النص والخطاب والإجراء: ١٠٤.

[٣] لسانيات النص، أحمد مداس: ١٧٠.

[٤] ينظر: مدخل إلى اللسانيات، برتيل مالبرج: ١٦١.

[٥] اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، د. حافظ اسماعيل علوي: ٧٣.

[٦] ينظر: استراتيجيات الخطاب: ٢١١.

ومن هنا ركّز جاكوبسن في مخططه على مهمة (الإفهام) التي يضطلع بها المتكلم /الباث، ومهمة (الفهم) التي تقع على المتلقي/ المُستَقْبِل[١]، ويتحد الفهم بالقبول ليكّون معه ثنائية لجوهر واحد، فلا يمكن أن يحصل قبول ما لنص ما من غير أن يتحقق فهم في هذه العملية.

ولكن قد يساعد الموقف المحيط بالمرسل والرسالة المتلقي كثيراً على قبول ذلك النص، فقد يحصل المتلقي – مثلاً – على نصوص أو مقاطع ناقصة؛ ولكّنه يستطيع الوصول إلى مفهوم ما يوفر لديه المقبولية فيلجأ المتلقون إلى أن يفكروا في خلفية الموقف ويستعملوا مكوناته في بناء افتراضات حول ربط هذه الأجزاء النصية بعضها ببعض، ولن يعلم الناس بالطبع أي العلاقات ينبغي أن تكون هي المفقودة[٢]، وتنطبق هذه الحالة على كثير من المصاديق ولاسيما– مثلاً– في قاعات انتظار الطائرات في المطارات حيث تستعمل مكبرات الصوت للتعريف بالرحلات الجوية فقد لا نستمع لبعض أجزاء الكلام؛ ولكننا نتمكن من الوصول إلى المعنى المقصود على وجه عام.

إن الاهتمام بجانب المتلقي وما يكتنفه من مؤثرات تسهم في توجيه العملية التواصلية أوجب علينا «إدخال اتجاهات مستعملي النص ضمن معايير النصية. ولا غنى لأية تشكيلة لغوية يراد استغلالها في التفاعل الاتصالي عن توافر القصد بأن تكون نصاً، وعن قبولها بهذا الاعتبار... انَّ إنتاج النصوص واستقبالها يقومان بدور أحداث خطابية ذات صلة بخطة ما، أو هدف ما»[٣].

ويذهب الدكتور محمد مفتاح إلى أنّ كل مؤلِّف مُؤَوِّلٌ بكيفية أو بأخرى،ويقترح درجة دنيا من التأويل يدعوها: (القراءة)[٤]. وهكذا «تخضع المقبولية في النهاية لعوامل متعددة تقع في مستوى الإنجاز، منها ماهو لغوي، ومنها ماهو اجتماعي أو ثقافي أو نفسي، وهذا يعني أن مقبولية جملة ما ترتبط أساساً بثقافة المتكلم واستعداده النفسي ومستواه اللغوي وظروف التواصل وما إلى ذلك»[٥]

---

[١] ينظر: قراءة النص وجماليات التلقي، محمود عباس عبد الواحد: ١٣٢.

[٢] ينظر: النص والخطاب والإجراء: ١٦٩.

[٣] مدخل إلى علم النص، إلهام ابو غزالة: ١٥١.

[٤] ينظر: التلقي والتأويل: ٢٢١.

[٥] اللسانيات التوليدية، د. مصطفى غلفان: ٣٧.

وعلينا أن نميز أولاً بين نوعين من أنواع تلقي المرسَل، فالأول عن طريق السمع، والثاني عن طريق الكتابة، ويصح في مقابسات التوحيدي أن نقول إنّها أخذت سمعاً من صاحبها إشارة إلى المتلقين في عصره، وكذلك يصح أن تكون قد تلقيت قراءة في حياته في زمان ومكان ما.

وهذا الكلام كلّه في حياته، بينما خضعت عملية التواصل بعد وفاته إلى قناة واحدة وهي القراءة وهذا يعني أن تخضع عملية التواصل–ها هنا– إلى ثنائية (القارئ والنص) التي لاقت شهرة واسعة ولاسيما في البحث اللغوي الحديث والمعاصر؛ في حين أصبحت من أهم المرتكزات في اللسانيات النصية، إذ أثيرت حولها نقاشات واسعة، ونُظِّرت بصددها العديد من الرؤى ووجهات النظر.

وقد أُثير جدل كبير بين الباحثين حول قراءة النص وتفسيره، وفهمه، وقبوله في إطار الاتجاهات التي نادت بالتركيز على النص في حدّ ذاته بوصفه تكويناً موحداً مستقلاً، وحينها طالعتنا العديد من المقولات – أمثال: (استخراج معنى النص من بنية النص ذاتها، من دون النظر إلى خارج النص)، و (القارئ شريك المؤلف في تشكيل المعنى)، و (عدم وجود معنى واحد للنص)، و (هل المؤلف هو منبع المعنى في النص؟ أم القارئ له دور فعّال في عملية إنتاج النص ذاتها؟ أم أنّها عملية متبادلة؟)، و(قصد المنتج المتحقق في النصّ)، و (هناك فاعل القول المتضمن في النص ذاته)، و (المؤلف هو المنتج الأول، والقارئ هو المنتج الثاني)، فجاء الاهتمام بالاتصال اللغوي، وأطرافه، وشروطه، وقواعده، وخواصه، وآثاره، وأشكال التفاعل، ومستويات الاستخدام، وأوجه التأثير التي تحققها الأشكال النصية، وأنواع المتلقي، وصور التلقي وانفتاح النص وتعدد قراءاته[١].

ولاشك – من جهة أخرى – انّ وجود القارئ /المتلقي في العملية الإبداعية أمر مكمل لها إذ تكون القراءة عملية إيجابية، وليست مجرد حضور سلمي، أي أنّه لابدّ من إجراء توازن حضوري بين الإبداع والقراءة، ومثل هذا النوع من القراءات يُعد قراءة تفاعلية، في حين تحدث (بوليه) إزاء الذي يمر به وعي المرء في أثناء فعل القراءة إذ يرى أنّ وعي القراءة ما إن ينغمس في النتاج الأدبي (النص) ويتحرر من قيود الواقع الملموس حتى ينتابه العجب؛ لأنّه يجد نفسه مليئاً

---

[١] ينظر: علم لغة النص، بحيري: ١٨١ – ١٨٢.

بأشياء تعتمد على الوعي، لأنّها ناتجة عن القصد الخاص بها، وهي في الوقت عينه معروفة على أنها ناتجة عن أفكار شخص آخر، وهكذا تتحول عملية التواصل الافتراضية بين المرسل والمرسل إليه إلى عملية أكثر ارتباطاً سواء اقتربت المسافة الزمنية بينهما أم ابتعدت[١].

إنّ طبيعة التفاعل وما يعكسه على تقبل النص يختلف بين تلقي ذلك النص سمعاً أو قراءةً، كما أنّ العملية تختلف من قارئٍ إلى آخر، فالقارئ حين يواجه خطاباً ما لا يواجهه وهو خاوي الوفاض، وإنّما يستعين عليه بتجاربه السابقة، ومعلوماته المرصودة إزاء ذلك النص؛ ولذا فالذي يقرأ نصاً جاهلياً من الشعر — مثلاً– من المفترض أنّ هذا القارئ لديه معرفة سابقة واطلاعٌ كافٍ على تصنيفات النقد القديم للشعر الجاهلي ولاسيما المديح، والهجاء، والرثاء، والفخر..إلخ، ومواصفات كل غرض، وشهرة كل شاعر في مثل هذا النوع من الشعر أو ذاك، ومجموعة المعلومات المتراكمة لدى ذلك القارئ المتعلقة بقضايا الشعر الجاهلي، والمجتمع الذي قيل فيه، فمثل هذا القارئ – وحينما يواجه مثل هذا النص– لا يواجهه وهذه المعلومات غائبة عن ذاكرته بل يفعل ذلك وهي ماثلة أمامه؛ ولكن المشكل حينذاك هو أنّ النص قد لا يحتاج إلى استحضار كل هذه المعلومات، فمثلاً قد يتطلب استحضار واقعة بعينها – فقط – أو حدث بعينه، أو تجربة غرامية عاش فيها الشاعر أو غير ذلك[٢]، وبحسب ما يراه مناسباً ومجدياً في سبيل فهم النص، وعلى وفق هذا الكلام ينبغي على القارئ أن يتموقع خلف تلك التجارب والمعارف المسبقة، ويحسن إدارة عملية استرجاع المعلومة المناسبة لتلقي بإضاءاتها على مجمل النص ليبوح بأسراره إليه.

ويذهب براون ويول إلى أنّ تمثيلات المعرفة المسبقة هذه تتسم بأنها منظمة بطريقة ثابتة ولا شعورية كوحدة تامة من المعرفة الجاهزة في الذاكرة، في حين يعد رايبسبيك أنّ الفهم عملية تذكرية، ومن ثم فإنّ فهم النص يعد بالأساس عملية سحب واسترجاع للمعلومات من الذاكرة وربطها مع النص المواجه، ولكننا لسنا مع المبالغة المطلقة مع حصر عملية فهم النصوص ومن ثم تقبلها في زاوية ضيقة من استرجاع المعلومات السابقة وحسب؛ لأننا بذلك قد نلغي الجانب الإبداعي للمتلقي في تعاطيه مع النص إذا أوكلنا ذلك التفاعل إلى عملية آلية لا تعدو كونها

---

[١] ينظر: قضايا الحداثة عند الجرجاني، د. محمد عبد المطلب: ٢٢٥ – ٢٢٦.

[٢] ينظر: لسانيات النص، خطابي: ٦١ – ٦٢.

تذكر واسترجاع، وما المانع من أن يكون ذلك التذكر والاسترجاع هو استرجاع للانطباع لدى المتلقين السابقين وبذا يتحول المتلقي الأخير إلى مجرد آلة لا حول لها ولا قوة تنعكس عليها ردود فعل سابقة من غير أن يكون له دور يذكر في كلّ ذلك.

وهذا الأمر ذهب بمينسكي (صاحب نظرية الأطر) إلى القول بانّ معرفتنا كلها مخزنة في الذاكرة، فحين يواجه شخص ما وضعية جديدة من أوضاع عملية الاتصال فإنّه يختار من الذاكرة الشخصية بنية أطلق عليها تسمية (إطار) وهو إطار للتكيف مع الواقع عن طريق تغيير التفاصيل بحسب الضرورة التي يفرزها التواصل آنذاك[١].

هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنّ المتكلم / المرسل الذي ينتج نصاً ما ويوجهه إلى المتلقي لابد أن يتمتع بمعارف وافية عن المعايير الاتصالية الأساسية، ومعارف عن كيفية إتمام إنتاج النص، وتلقيه بوصفه نشاطا تعاونياً في حالة معينة، فالعملية بالكامل هي عمل مشترك تعاوني بين طرفي الاتصال على حدّ سواء، وعلى درجة واحدة من الأهمية.

وقد حاول جرايس أن يسير هذه المعرفة عن المعايير الاتصالية العامة عبر مبدأ التعاون العام الذي يتبعه كل المتكلمين: أَسْهِمْ في النقاش على نحو ما يكون لزاماً في الموقع الخاص بك بما يتوافق مع الهدف المقبول، واتجاه المحادثة التي تشارك فيها.

وقد أوضح جرايس وجهة نظره من ذلك باستخلاصه أربعة مبادئ، هي:

١. مبدأ الكيف.

٢. مبدأ الكم.

٣. مبدأ العلاقة.

٤. مبدأ الطريقة.

ويذهب إلى أنّه يمكن أن توجد كذلك مبادئ أخرى اجتماعية، وجمالية، وأخلاقية؛ ولكنها لا تندرج تحت مبدأ التعاون العام هذا.

وينبغي فضلاً عن ذلك أن يشار إلى أن منتج النص لديه معارف عن كم المعلومات يلزم أن يتضمنه نص ما في موقف معين حين يمكن للسامع أن يعيد بناء قصد المتكلم، ومن ناحية

---

[١] ينظر: تحليل الخطاب: ٢٣٦ – ٢٣٨.

أخرى يعرف منتج النص – أيضاً- أنّ النص ينبغي أن يتضمن مجالاً من الحقائق معروفاً للسامع من قبل، وأن منتج النص ومتلقيه يمتلكان بذلك عالماً براجماتياً للخطاب في حين تعد المعارف عن اختيار بدائل إقليمية، أو اجتماعية معينة في لغة ما لها علاقة بسياقات الموقف من المعارف حول المعايير الاتصالية الأساسية التي لابدّ منها في التواصل[١]، وهذه المعرفة المميزة- المذكورة آنفاً- توصف على سبيل التجريب بأنّها معرفة ما وراء اتصالية، وهذه تستخدم في المقام الأول في الحيلولة دون خلافات الاتصال، أو في التغليب عليها وضمان فهم المنطوقات اللغوية، ولذا يطرح ما وراء التواصل بوجه خاص في سياقين نظريين، هما:

١. الإسهام الذي يستطيع ما وراء التواصل، أو الخطاب ما وراء الاتصالي أن ينجزه لحل خلافات التواصل.

٢. عملية التوازي بين ما وراء التواصل ووجهة العلاقة في التواصل الإنساني[٢].

وكل هذا يوضح أثر فهم النص، وامتداداته في الوعي الجماعي بصورة عامة، فكل فهم جديد يسهم بشكل أو آخر في رفد الثقافة البشرية بمعرفة مضافة، في حين يرى فانديك: «أنّ منطوق نص ما يحدث عامة بقصد أن ينجز من خلاله حدث لغوي»[٣]، وبالطبع فإن هذا الحدث اللغوي تتحدد هويته وأبعاده على مدى مقبوليته عند متلقيه فعملية التفاعل التواصلي هذه هي المؤثر الأساس في رسم هيكلية ذلك الحدث وعمقه في الجانب الآخر (المتلقي) والجماعة اللغوية الواحدة.

وبالنظر إلى كتاب المقابسات نجد أنّه يشيع بين الباحثين والمؤرخين سمته الفلسفية، ولما برع فيه كاتبه في هذا الصدد، ومن ثمَّ فقد ضمنه الكثير من ثقافته الفلسفية وما يؤمن به ويعمل على وفقه؛ ولكننا إذا أجرينا نظرة فاحصة في جميع مقابساته وفقراته بَانَ لنا عدم اطِّراد مثل هذه المقولات فيه، فهو كتاب موسوعي جامع يعالج العديد من القضايا المؤتلفة والمختلفة في الوقت عينه، وحينما نقف عند ما يشاع عن هذا الكتاب من الصبغة الفلسفية فإنّ معنى هذا أنه يوجد ارتباط وثيق بين هذه الصفة والجماعة التواصلية الموجّه إليها الكتاب، وإنّ هذا يعني

---

[١] ينظر: مدخل إلى علم لغة النص، هاينه و فهيفجر: ١٢٠ – ١٢١.

[٢] ينظر: مدخل إلى علم لغة النص، هاينه و فهيفجر: ٢٤٨.

[٣] علم النص – مدخل متداخل الاختصاصات: ٣٢٦.

من جهة ثانية أنّ الكتاب موجّه إلى المهتمين بالفلسفة، وفنونها، وأدواتها، وطرائق معالجتها القضايا المثارة في الفلسفة؛ ومن ثمَّ يأخذنا هذا الكلام إلى أنّ معيار القبول متحقق عند هذه الطبقة من المتلقين فحسب، ولكن الأمر على خلاف ذلك؛ فنعم: قد يصح هذا الكلام على بعض مقابساته، أو فقراتها؛ ولكنّه لا يتصف بالاطِّراد في جميعه.

القبول في المقابسات:

فممّا ورد في المقابسات أنّه عالج في المقابسة السادسة الألفاظ والمعاني، وأثرهما في السمع والنفس، جاء فيها: «**قلت لأبي بكر القومسي... : ما معنى قول بعض الحكماء: الألفاظ تقع في السمع، فكلما اختلفت كانت احلى؟ والمعاني تقع في النفس، فكلما اتفقت كانت احلى؟ فقال: هذا كلام مليح، وله قسط من الصواب والحق. إن الألفاظ يستمليها السمع، والسمع حِسٌّ، ومن شأن الحس التبدد في نفسه والتبديد في نفسه. والمعاني تستفيدها النفس، ومن شأنها التوحد بها، والتوحيد لها، ولهذا تبقى الصورة عند النفس قينة وملكة، وتبطل عند الحس بطولاً، وتمحى امحاء. والحس تابع للطبيعة، والنفس متقبلة للعقل. فكأن الألفاظ على هذا التدريج والتنسيق من أمة الحس، والمعاني المعقولة له من أمة العقل. فالاختلاف في الأول بالواجب، والاتفاق في الثاني بالواجب. وبالجملة الألفاظ وسائط بين الناطق والسامع، فكلما اختلفت مراتبها على عادة أهلها كان وشيها أروع واجهر. والمعاني جواهر النفس. فكلما ائتلفت حقائقها على شهادة العقل كانت صورتها أنصع وأبهر. وإذا وفيت البحث حقه فإن اللفظ يجزل تارة ويرق أخرى، ويتوسط تارة، بحسب ملابسته التي له من نور النفس، وفيض العقل وشهادة الحق، وبراعة النظم. وقد يتفق هذا التعديل لإنسان بمزاجه الصحيح، وطبيعته الجيدة، واختياره المحمود، وقد يفوته من هذا الوجه فيتلافاه بحسن الاقتداء بمن سبق بهذه المعاني اليه، فيكون اقتداؤه حافظاً عليه نسبة البيان على شكله المعجب وصورته المعشوقة. ومدار البيان على صحة التقسيم، وتخير اللفظ، وزينة النظم، وتقريب المراد، ومعرفة الوصل والفصل، وتوخي المكان والزمان، ومجانبة العسف والاستكراه، وطلب**

العفو كيف كان»[١]، فلطالما شُغِلَ الدرس اللغوي بثنائية اللفظ والمعنى، حتى احتلت مساحة كبيرة من المؤلفات والمناقشات في مجالس العلماء.

ويعالج في المقابسة الثانية عشرة موضوع إنشاء الكلام الجديد، وكيفية كونه أيسر على الأدباء من ترقيع القديم، وهي معضلة تواجه أهل البلاغة والأدب، إذ يقول: «**سمعت الخوارزمي الكاتب يقول لأبي إسحق الصابي إبراهيم بن هلال: لم إذا قيل لمصنف أو كاتب أو خطيب أو شاعر في كلام قد اختل شيء منه، وبيت قد انحل نظمه، ولفظ قلق نصابه، هات بدل هذا اللفظ لفظاً، ومكان هذه الكلمة كلمة، وموضع هذا المعنى معنى آخر، تهافتت قوته، وصعب عليه تكلفه، وبَعِل بمزاولة ذلك رأيه، ولو رام إنشاء قصيدة مفردة، وتحبير رسالة مقترحة، كان عسرها عليه أقل، ونهوضه بها أعجل؟ فقال: لأنّ رقعُ ما وَهِيَ يحتاج إلى تدبير قد فات أوله من جهة صاحبه الأول، ومن كان أولى به، وكان كالأب له... وفي الجملة كل مبتدئ شيئاً فقوة المبتدأ تفضي به إلى غاية ذلك الشيء. وكل متعقب أمراً قد بدأ به غيره فإنه بتعقيبه يفضي إلى حدِّ ما بدأ به في تعقيبه، ويصير ذلك مبدأ له، ثم تنقطع المشاكلة بين المبتدأ وبين المتعقّب**»[٢]، ويبدو أن الصعوبة تكمن في ذلك بسبب عدم المقدرة على استيعاب مقاصد منشئ النص الأول، وتوجيه الكلام على وفق ذلك.

ويعالج التوحيدي في مقابساته من حين لآخر موضوعات تخص اللغة، والأدب، والبلاغة، وإنشاء الكلام؛ وهي من الموضوعات التي يحفل بها أهل اللغة، فقد يعرض لموضوع غاية في الأهمية ويحظى بأهمية كبيرة في الدرس اللغوي؛ كموضوع الكلام المرتجل، وعدم الإيفاء بأدائه، جاء فيها: «**قلت للقومسي: لِمَ صار الإنسان إذا زور كلاماً لمجلس يخصه، وخصم يناظره، وصاحب يعاتبه، لا يفي بأدائه في حال ما يباشر المراد، وينحى على الغرض، ويتوخى غاية ما في النفس؟**

فقال: لأنّه في الحال الثانية يصير أسيراً في يد ما قد قدمه وقوَّمه. فهو يحتاج في تلك الحال إلى قوة حافظة، وقوة مؤدية، وربما خانتاه أو خانته احداهما. وليس كذلك

---

(١) المقابسات: ٨٥ – ٨٦.

(٢) نفسه، المقابسة الثانية عشرة: ٩٣ – ٩٤.

إذا ارتجل كلاماً، وافترع معنى، فإنه يكون مطلق العنان في ضروب التصرف وأفانين التزويق، وغير موقوف على شيء متقدم، ولا متقٍ شيئاً متوقعاً يخاف فجأته، على خلاف تقديره في وهمه ووضعه في نفسه، فخلوص الحال وسلامة البال يفضيان به إلى آخر ما في نفسه، لأن الواسطة الحائلة ساقطة، والحجب مخروقة، والأوَّليَّة معينة، والوحدة مساعدة.

لا تسرع، أيدك الله، إلى الطعن والعيب في هذه المواضع التي تَرِكُّ قليلاً ولا يبلغ ظنك بها، فإن الجميع آخذ عن هؤلاء الجلة الاعلام، حسب ما كانت المذاكرة والمقابسة يمتدان بهم ويقران عليهم، وكان الغرض كله أن يستفاد كل ما تنفسوا به، وتنافسوا فيه، فإن شاركتني على ذلك فالحكمة فوضى بيننا، والحق مشاع عندنا، والفائدة حاصلة لنا. وإن انحيت بجدك وفطنتك، لم تخرج من جميع وجوه العدل إلى الظلم، ولكن تبعد عن الخلق الجميل، وعما يليق بالرجل الأصيل. وأساس التلاقي والاجتماع التصافي والاستمتاع، والمفاوضة بين الناس بكل ما ينطق بالتودد والإيناس، وعلى التكرم والتفضل والرعاية والحياء والإبقاء والإغضاء، لا على الشراسة والعناد، ولا على ما لا يجمل بذوي الفضل والحفاظ. والله يبلغ بك، ويحسن على اقتباس الحكمة عونك، ويقر أعيننا بمكانك، ويهدينا جميعاً للزلفى عنده والمكانة قبله، بمنّه وإحسانه. على أنك إذا استشففت هذا الكتاب كله، وقلبَّته، وعرفت غرائبه وعجائبه، علمت أنك ظالم إذا عبت، وأني مظلوم في يدك إذا استزدت. والله لقد تعبت في تحصيل ما قالوه، وخاطرت الآن برواية ما تقابسوه. ولو قمت مقامي لما أخطأتك حالي، ولا خلوت من غيري من بعض ما تتجنى به عليّ. كان الله لك، وآخذ بيدك، وأدام الصنع الجميل لك، إن شاء الله»[1].

ومنه ما جاء وسطاً بين اهتمام الفريقين من أهل اللغة، وأهل الفلسفة، كالمقابسة التي عالج فيها المناسبة بين المنطق والنحو: «**قلت لأبي سليمان: إني اجد بين المنطق والنحو مناسبة غالبة، ومشابهة قريبة. وعلى ذاك فما الفرق بينهما، وهل يتعاونان بالمناسبة، وهل**

([1]) المقابسات، المقابسة السادسة عشرة: ٩٧ – ٩٨.

يتفاوتان بالفرق؟ فقال: النحو منطق عربي، والمنطق نحو عقلي. وجل نظر المنطقي في المعاني، وإن كان لا يجوز له الاخلال بالألفاظ التي هي كالحلل والمعارض. وجل نظر النحوي في الألفاظ، وإن كان لا يسوغ له الاخلال بالمعاني التي هي كالحقائق والجواهر. ألا ترى أن المنطقي يقول: بنحرق وهو ينفعل، والنحوي يقول:يحترق وهو يفتعل؟ لأن نظر المنطقي فيما حلاه العقل، ونظر النحوي فيما حلاه اللفظ. ونظائر هذا المثال شوائع وذوائع في غرض الفنين والنمطين، أعني المنطق والنحو. وكما أن التقصير في تحبير اللفظ ضار ونقص وانحطاط، كذلك النقص في تحرير المعنى ضار ونقص وانحطاط.

وحد الإفهام والتفهم معروف، وحد البلاغة والخطابة موصوف. فالحاجة إلى الإفهام والتفهم، على عادة أهل اللغة، أشد من الخطابة والبلاغة لأنها مقدمة بالطبع، والطبع أقرب إلينا، والعقل أبعد عنا.

والبديهة منوطة بالحس، وإن كانت معانة من جهة العقل والروية منوطة بالعقل، وإن كانت معانة من جهة الحس. وليس ينبغي أن يكتفى بالافهام كيف كان، وعلى أي وجه وقع. فإن الدينار قد يكون رديء الذهب، وقد يكون رديء الطبع، وقد يكون فاسد السكة، فالناقد الذي عليه المدار، وإليه العيار، يبهرجه مرة برداءة هذا، ومرة برداءة هذا، ويقبله مرة بحسن هذا، ومرة بحسن هذا.

والإفهام إفهامان: رديء وجيد. فالأول لسفلة الناس، لأن ذلك غايتهم وشبيه برتبتهم في نقصهم. والثاني لسائر الناس، لأن ذلك جامع للمصالح والمنافع. فأما البلاغة فإنها زائدة على الأفهام الجيد بالوزن والبناء، والسجع والتقفية، والحلية الرائعة، وتخير اللفظ، وإحضار الزينة بالرقة والجزالة والحلاوة والمتانة. وهذا الفن لخاصة الناس، لأن القصد فيه الإطراب بعد الإفهام، والتوصل إلى غاية مما في قلوب ذوي الفضل بتقويم البيان. قلت له: فما النحو؟ فقال: على ما يحضرني الساعة من رسمه على غير تصفية حده وتنقيحه، إنه نظر في كلام العرب يعود بتحصيل ما تألفه وتعتاده، أو تعرفه. وتقلل منه، أو تعرفه، وتحيله، وتأباه وتذهب عنه، وتستغني بغيره.

قلت له: فما المنطق؟ قال آلة، يقع بها الفصل والتمييز بين ما يقال هو حق أو

باطل فيما يعتقد، وبين ما يقال هو خير أو شر فيما يفعل، وبين ما يقال هو صدق أو كذب فيما يطلق باللسان، وبين ما يقال هو حسن أو قبيح بالعقل. قلت: فهل يعين احدهما صاحبه؟ قال: نعم، وأي معونة! إذا اجتمع المنطق العقلي والمنطق الحسي، فهو الغاية والكمال. قال: ويجب أن تعلم أن فوائد النحو مقصورة على عادة العرب بالقصد الأول، قاصرة عن عادة غيرهم بالقصد الثاني. والمنطق مقصور على عادة جميع أهل العقل، من أي جيل كانوا، وبأي لغة أبانوا، إلا أن تتعذر أسماء عند قوم، وتوجد عند قوم، فحينئذ الحال في التقصير يَتَوَرَّكُ على تعذر الأسماء وعلى وصفها على الخلاف، إما بالتواطؤ والاصطلاح، أو بالطبع والإسماح.

قال: وبالجملة النحو يرتب اللفظ ترتيباً يؤدي إلى المعنى المعروف، أو إلى العادة الجارية، والمنطق يرتب المعنى ترتيباً يؤدي إلى الحق المعترف به من غير عادة سابقة»[1]، وقد خَلُصت المقابسة إلى أنّ: النحو يرتب اللفظ بحسب المتعارف عليه من العادات اللغوية، وقوانين اللغة الآنيّة التي صيغت بها، وتواصل الناس على وفق شروطها واستثناءاتها؛ في ما انّ المنطق يرتب اللفظ على وفق القوانين التي توافق العقل وتنتمي إليه وتصدر عنه، من غير الرجوع إلى عادة مسبقة، أو قاعدة مشهورة؛ وهو بهذا يستند إلى سمة التفكير السليم الذي يشترك به العقل الجمعي للبشر كافة.

ثم يعقد التوحيدي موازنة غاية في الدقة والأهمية بين النثر، والنظم؛ وكيف أنّ النظم أدل على الطبيعة؛ في حين أنّ النثر أدل على العقل. وفي سبيل إثبات ذلك يشرع بسوق الأمثلة، وإثبات دقائق الفروق، جاء فيها: «**قال أبو سليمان، وقد جرى كلام في النظم والنثر: النظم أدل على الطبيعة، لأن النظم من حيّز التركيب. والنثر ادل على العقل، لأن النثر من حيز البساطة. وإنما تقبلنا المنظوم، بأكثر مما تقبلنا المنثور، لأنا بالطبيعة اكثر منا بالعقل. والوزن معشوق الطبيعة والحس، ولذلك يغتفر له ما يعرض من الاستكراه في اللفظ. والعقل يطلب المعنى، فلذلك لا خطر للفظ عنده، وإن كان مُتَشَوَّقاً، معشوقاً. والدليل على أن المعنى مطلوب النفس، دون اللفظ الموشح بالوزن المحمول على الضرورة، أن المعنى متى صودف بالسانح والخاطر وتوفيّ الحكم، لم يبل بما يفوته من**

([1]) المقابسات، المقابسة الثانية والعشرون: ١٠٨ – ١١٠.

اللفظ الذي هو كاللباس والمعرض والاناء والظرف. لكن العقل مع هذا قد يتخيّر لفظاً بعد لفظ، ويعشق صورة دون صورة، ويأنس بوزن دون وزن، ولهذا يشقق الكلام بين ضروب النثر وأصناف النظم. وليس هذا للطبيعة، بل الذي يستند إليها من الكلام ما كان حلواً في السمع، خفيفاً على القلب، بينه وبين الحق صلة، وبين الصواب وبينه آصرة، وحكمها مخطوط بإملاء النفس، كما أن قبول النفس راجع إلى تصويب العقل.

ثم قال: ومع هذا ففي النثر ظلّ من النظم ولولا ذلك ما خف ولا حلا ولا طاب ولا تحلا. وفي النظم ظلّ من النثر، ولولا ذلك ما تميّزت أشكاله، ولا عذبت موارده ومصادره، ولا اختلفت بحوره وطرائقه، ولا ائتلفت وصائله وعلائقه»[١].

وقد عالج في المقابسة الثامنة والثمانين ماهية البلاغة والخطابة وهل هناك بلاغة أحسن من بلاغة العرب؟ وهذه من الموضوعات التي يشغل بها أهل الأدب؛على الرغم من معرفتنا مسبقاً بأنّ التوحيدي كان أديباً وليس بغريب عليه معالجة موضوعات أدبية أو لغوية؛ ولكن بالنظر للجماعة التي وجّه مقابساته إليها تبدو المسألة خارجةً عن عموم المألوف نوعا ما، إذ يقول: «**سألت أبا سليمان عن البلاغة؟ ما هي... فقال: هي الصدق في المعاني، مع ائتلاف الاسماء والافعال والحروف، وإصابة اللغة، وتجري الملاءمة والمشاكلة، برفض الاستكراه، ومجانبة التعسف. فقال له أبو زكريا الصيمري: قد يكذب البليغ ولا يكون بكذبه خارجاً من بلاغته. فقال: ذلك الكذب، وقد البس ثوب الصدق، واعير عليه حلية الحق. فالصدق حاكم، وإنما يرجع معناه إلى الكذب الذي هو مخالف لصورة العقل، الناظم للحقائق، المهذب للاعراض، المقرب للبعيد، المحضر للقريب. فقلت لابي سليمان: فهل بلاغة أحسن من بلاغة العرب؟ فقال: هذا لا يتبين لنا إلا بأن نتكلم بجميع اللغات على مهارة وحذق، ثم نضع القسطاس على واحدة واحدة منها، حتى نأتي على آخرها واقصاها، حتى نحكم حكما بريئاً من الهوى والتقليد والعصبية**»[٢]، فقد يجد المتخصص بالبلاغة العربية ضالته في هذه المقابسة وقد تجيب عن كثير من أسئلته فضلاً عن أننا إذا قرأنا أو سمعنا هذا الكلام من دون أن نعرف مصدره وأردنا أن ننسبه إلى منبع لا نكاد

---

(١) المقابسات، المقابسة الستون: ١٩٦ – ١٩٧.

(٢) المقابسات، المقابسة الثامنة والثمانون: ٢٦١ – ٢٦٢.

نبتعد عن أُمهات كتب البلاغة العربية وفنونها؛ لذا فإن وجود مثل هذه المقابسة وهذا الكلام سيلقي بمقبوليته عند المهتمين بالبلاغة والباحثين عن حلول لأسئلتها وطلاسمها.

فهو بذلك يعالج أمراً فنياً يحدث عادة في محاولة مباشرة النصوص الناقصة، أو التي يتعمد إنقاصها لسبب ما، ووضع الحلول التي تجعل النهوض باستيفاء ما نقص منها. وذلك يُعدّ من الصعوبة بمكان، أو من المستحيل في بعض الأحيان.

الفصل الخامس

السياق

توطئة:

يعد السياق والأحداث المحيطة بالنص محركاً رئيساً في إنتاج الكلام وتنوع فنونه ومقاصده، ولهذا فهو معول رئيس لإنتاج الكلام وتبيين دلالته ومراميه، فهو يمارس وظيفة مزدوجة في الآنِ نفسه، وهكذا أقيمت اللسانيات؛ ولا سيما اللسانيات التداولية على «تحليل مقامات الخطاب ومقاصده؛ إذ عنيت بدراسة معاني المنطوقات في علاقتها بالمتكلم، ودراسة الاستلزام الحواري، ودراسة الشروط التي تجعل المنطوقات مناسبة وناجحة إنجازياً، ودراسة العلاقة بين أفعال الكلام وسياقاتها غير اللغوية»[١]، وهذه المبادئ تقوم بجملتها على محور واحد هو سياق المقام (الموقفية) (situationality). والحاصل انّ استرفاد السياق والعلم به؛ مطلب ذو فصل في تعيين المراد من النص[٢]، وتتعدد احتمالات المعنى من دون وجود مرجح[٣]،ويعد السياق من أدل المرجحات على المعنى المقصود في كلّ نصّ.

وتتعدى أهمية السياق إذ لابد لفهم التقابلات النصية من فهم التقابلات الخطابية المؤسسة للتخاطب، وتَبيين مقاماتها وأوضاعها الاعتبارية، إذ لا يمكن عزل النصوص عن سياقاتها[٤]، ويعد السياق عاملا مهما في التحكم في العملية التواصلية، إذ: «تُكتسب التراكيب اللغوية في اللغات الإنسانية، إمّا عن طريق السياق، وإمّا عن طريق المواقف التي يجري فيها تداول هذه التراكيب. وينجم عن كل طريق معنى خاص بها، فيقال: هذا معنى سياقي؛ أي أنّ السياق هو الذي يقتضيه. ويقال : هذا معنى تداولي، أي أن التداول هو الذي يقتضي هذا المعنى»[٥]، وتبلغ أهمية السياق مداها؛ إذ يرتبط مقصد المتكلم بالسياق، فيوضح مايفعله المتكلم على نحو أفضل[٦]؛

وفي استجلاء أثر السياق في العملية الاتصالية برمتها؛ يذهب الدكتور عبد السلام

---

(١) التداوليات- علم استعمال اللغة، حافظ اسماعيل:٣٠٧.

(٢) ينظر: مباحثات لسانية في ظواهر قرآنية، د. مهدي أسعد عرار: ٧٠.

(٣) ينظر: اجتهادات لغوية، د. تمام حسان: ١٨٥.

(٤) ينظر: نظرية التأويل التقابلي، محمد بازي: ٢٤٧.

(٥) اللسانيات، د. سمير شريف استيتية: ٢٨٨.

(٦) ينظر: النص والخطاب والإجراء: ٢٩٠.

المسدّي إلى: «أنّ طاقة التعبير – وبها تحدد اللغة – مُزدوِجة في ذاتها فمنها جدول تصريحي ومنها جدول إيحائي، فأما الأول فيستمد قوَّته الإخبارية من الدلالات الذاتية لمجموع الرصيد اللغوي وأما الثاني فيستمدها من السياقيّة التي تحملها اللغة بكثافة متنوعة عبر اختراقها لطبقات التاريخ ومنازل المجتمع»[١].

السياق في اللغة:

السوق: «ساق الإبل وغيرها يسوقها سوقاً وسياقاً»[٢]، «وقد انساقت الإبل وتساوقت الإبل تساوقاً؛ إذا تتابعت، وكذلك تقاودت فهي متقاودة ومتساوقة»[٣]، فالتتابع والتقاود من صور معنى (السوق) الرديفة، ويأتي بمعنى آخر في اللغة: «ساق إليها الصداق والمهر سياقاً وأساقه، وإن كان دراهم أو دنانير؛ لأنّ أصل الصداق عند العرب الإبل، وهي التي تساق، فاستعمل ذلك في الدرهم والدينار وغيرهما، وساق فلان من امرأته، أي: أعطاها مهرها، والسياق المهر»[٤]، وسمي المهر بالسياق، أي: بما يساق ويبذل في سبيل تحليل الزيجة بين الرجل الرجل والمرأة، ولهذا السبب أطلق السياق على المهر.

وفي معنى آخر: «هو يسوق الحديث أحسن سياق، وإليك يساق الحديث... وجئتك بالحديث على سوقه: على سرده... والمرء سَيِّقَةُ القدر: يسوقه إلى ما قُدِّر له لا يعدوه... وولدت فلانة ثلاثة بنين على ساق واحد: بعضهم في أثر بعض ليس بينهم جارية»[٥]، وتبين لنا في النصوص التي مرت وجود عامل واحد يرتبط بالجريان يدل عليه سوق الإبل وسوق المهر والولادة المتتابعة للذكور بدون وجود فاصل أنثى، وهذا الذي صار عليه معنى (السياق) حينما أضيف إلى الكلام على وفق ما حدث للفظ من تطور لغوي عبر أزمنة متلاحقة، فـ«السياق– سياق الكلام – تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه»[٦].

---

(١) الأسلوب والأسلوبية: ٧٥ – ٧٦.

(٢) اللسان، مادة (س، و، ق): ٢١٥٣/٢٤.

(٣) نفسه، مادة (س، و، ق): ٢١٥٤/٢٤.

(٤) نفسه، مادة (س، و، ق): ٢١٥٤/٢٤.

(٥) أساس البلاغة، الزمخشري: ٥١٩.

(٦) المعجم الوسيط: ٣٣٠.

السياق في الاصطلاح:

أخذ السياق في الاصطلاح حظاً وافراً من أصله اللغوي فـ«السياق، أو ما يسمى بالقرينة الحالية: تلك الأجزاء التي تسبق النص أو تليه مباشرة ويتحدد من خلالها المعنى المقصود»[١]، وفي هذا الكلام إشارة إلى مرتبة السبق والموالاة، وكذلك الأثر أو السلطة التي يمارسها السياق على النص في توجيه المعنى، وإلى مثل هذا المعنى ذهب محمد أحمد أبو الفرج في قوله: «المقصود بالسياق ما يصاحب اللفظ مما يساعد على توضيح المعنى»[٢].

وتتعدد أنواع السياق، فمنها السياق الصوتي، والسياق الصرفي، والسياق النحوي، والسياق المعجمي، والسياق الدلالي، والسياق التعبيري؛ وتشمل النصوص الأدبية الشعرية والنثرية، السياق المبتكر، والسياق الأسلوبي[٣].

وقد اتخذ السياق مكانة مهمة في الدرس اللساني إذ «يقوم السياق الاتصالي بدور مهم جداً بالقياس إلى كل من القصدية والتقبلية؛ حيث يراعى السياق دائماً في اللسانيات النصية»[٤]، وبناءً على موقع الكلمة في سياقها الذي ترد فيه تبعاً لما هو سابق لما هو لاحق لها لها تكتسب قيمتها التواصلية[٥].

إن التصنيف السياقي للنص هو «تصنيف ذو طابع اجتماعي باعتباره يركز على الوظيفة الاجتماعية التي يؤديها النص، وقد تمخض عن هذا التصنيف ما هو متداول حالياً من تمييز بين النصوص الإعلامية والدينية والإشهارية والإدارية وغيرها، وما هو واضح فكل نوع من هذه الأنواع بالإمكان رده إلى المؤسسة الاجتماعية التي يصدر عنها»[٦]، وقد اهتم علماء العربية منذ القدم بالسياق فحفظوا له مكانته في منظومة التفاهم اللغوية ووصفوه بأدق الأوصاف الدالة على تلك الأهمية فهو «الذي يكون فيه الكلام، وهو على أي نحو متضمن داخل التعبير

(١) معجم مصطلحات الأدب، مجدي وهبة: ٢٨٨، ومعجم المصطلحات اللغوية والأدبية، علي عزت: ٨٣.

(٢) المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث: ١١٦.

(٣) ينظر: الدلالة السياقية عند اللغويين، عواطف كنوش: ٥٢.

(٤) المصطلحات الأساسية: ١١٩.

(٥) ينظر: علم اللغة العام: ١٨٦.

(٦) مدخل إلى علم النص، الصبيحي: ١٠٨.

المنطوق بطريقة ما، ويقوم السياق في أحيان كثيرة بتحديد الدلالة المقصودة في الكلام في جملتها، ومن قديم أشار العلماء إلى أهمية السياق أو المقام وتطلبه مقالاً مخصوصاً يتلاءم معه، وقالوا عبارتهم الموجزة الدالة التي يصفها الدكتور تمام حسان بأنها قفزة من قفزات الفكر، وهي (لكل مقام مقال)؛ ولا يكون للعلاقة النحوية ميزة في ذاتها ولا للكلمات المختارة ميزة في ذاتها ولا لوضع الكلمات المختارة في موضعها الصحيح ميزة في ذاتها ما لم يكن ذلك كله في سياق ملائم»[١].

وليس مستغرباً أن تصنف النظريات السياقية أو التي هتفت بدراسة السياق في ضمن مناهج دراسة المعنى؛ لأنّ الغاية المستهدفة من وراء دراسة السياق هي المعنى، والمعنى أحد أهم الركائز التي اهتمت بها اللسانيات النصية.

لقد عرفت مدرسة لندن بما يسمى بالمنهج السياقي (contextual approach)، أو المنهج العملي (operational approach)، وقد أكد رائد هذا الاتجاه فيرث على الوظيفة الاجتماعية للغة، كما ضم الاتجاه أسماء مثل: هاليداي، وسنجلر، وميشيل، وقد عُد لوينز أحد التطوريين المهمين المرتبطين بفيرث[٢].

إن معنى الكلمة عند أصحاب هذه النظرية هو استعمالها في اللغة، أو الطريقة التي تستعمل بها، أو الدور الذي تؤديه؛ ولهذا يصرح فيرث بأن المعنى لا ينكشف إلا عبر تسييق الوحدة اللغوية، أي: وضعها في سياقات مختلفة، ويفصل أصحاب النظرية بقولهم: «معظم الوحدات الدلالية تقع في مجاورة وحدات أخرى وإن معاني هذه الوحدات لا يمكن وصفها أو تحديدها إلا بملاحظة الوحدات الأخرى التي تقع مجاورة لها»[٣] ، ولتركيزهم على السياقات اللغوية التي ترد فيها الكلمة وأهمية البحث عن ارتباطات الكلمة بالكلمات الأخرى نفوا أن يكون الطريق إلى معنى الكلمة هو رؤية المشار إليه، أو وصفه، أو تعريفه، وعلى هذا فدراسة معاني الكلمات تتطلب تحليلاً للسياقات التي ترد فيها وحتى ما كان منها غير لغوي، وعلى

(١) النحو والدلالة، حماسة: ٩٨.

(٢) ينظر: علم الدلالة، أحمد مختار عمر: ٦٨.

(٣) علم الدلالة، أحمد مختار عمر: ٦٨ – ٦٩.

هـذا فمعـنى الكلمـة يعـدل تبعـاً لتوزعيهـا اللغـوي (Linguistic Distribution)[١]، وللدلالـة المستفادة من السياق عند اللغويين أهمية كبرى، فقد عد السياق «الشق الأكبر الذي تبني عليه النظرية الدلالية وسائلها الأساسية في الفهـم والإفهام ويتعداهما إلى الأوضاع المختلفة من التأثير والتأثر والانفعال والإيحاء...إلخ، وصفة أهـم ظاهرة لغوية يعتمدها الإنسان في عملية التواصل اللساني في الوصول إلى المعنى»[٢].

وقد حظيت فكرة السياق بأهمية كبرى في الفكر الإنساني من أفلاطون وأرسطو، فقد تحدث إفلاطون في كتابه (فايدروس الخطابة) عن مراعاة مقتضى الحال في الخطابة قائلاً: فإذا كانت وظيفة الخطابة هي قيادة النفوس لمعرفة الحقيقة فعلى المرء – لكي يكون قادراً على الخطابة – أن يعرف ما للنفوس من أنواع؛ وعلى قدر هذه الأنواع تكون الصفات، وهو ما يختلف به الناس في أخلاقهم ولكل حالة نفسية نوع خاص من الخطابة، فَعَليَّ إذنْ في سبيل أن أولد في النفوس نوعاً من الإقناع، أن أطابق بين كلامي وطبيعتهم، وإذا توافرت للمرء هذه المبادئ عرف متى يجب أن يتكلم ومتى يجب أن يمتنع عن الكلام، ومتى يليق به أو لا يليق أن يكون موجزاً أو مطيلاً، أو مبالغاً؛ وأما قبل الوقوف على هذه فلا وسيلة له إلى التعرف على ذلك[٣].

ومراعاة الخطاب للحالة النفسية، أو مطابقة مقتضى الحال هو مبدأ لساني عرف في العصر الحديث بالتداولية والتي عرفها فرانسيس جال بقوله: «تتطرق التداولية إلى اللغة في أبعادها الخطابية والتواصلية والاجتماعية معاً»[٤]، وما زلنا مع المفهوم الاصطلاحي للسياق، فـ«إن مراعاة بناء السياق هي محاولة إلى فهم النص»[٥]، فالسياق له دور كبير في فهم النص وفك ما هو مستغلق فيه، وكل هذا يسهم في تطوير العملية الاتصالية ويفضي بها إلى معالم أفضل، «فمحلل الخطاب يعالج مادته اللغوية بوصفها نصاً لعملية اتصالية استعملت فيها اللغة كأداة توصيلية في سياق معين من قبل المتكلم أو كاتب للتعبير عن معانٍ وتحقيق مقاصد

(١) ينظر: علم الدلالة، أحمد مختار عمر: ٦٨ – ٦٩.

(٢) الدلالة السياقية: ٩٣.

(٣) ينظر: فايدروس، إفلاطون:٣٣ (٧١أ– ٧٢ب) تفصيلها: (١١٧– ١١٨) والدلالة السياقية: ٩٤ .

(٤) المصطلحات الأساسية في لسانيات النص: ١٠١.

(٥) تحليل الخطاب:٦٠.

الخطاب»[١]، فهي- أي اللغة- وفي المقام الأول جزء من نشاط تواصلي- اجتماعي، ومن ثم فإن معرفة السياق الذي تستعمل فيه اللغة ومراعاته في عملية فهم المعنى يوضح - وبصورة خاصة- المعنى الوظيفي للغة، ويفرض عليها قيمة حضورية معينة[٢].

أنواع السياق:

إذا أردنا أن ننعم النظر في العلاقات بين النص والسياق فإنّ السياق «تحريد لما يمكن أن نطلق عليه بصورة حدسية موقفاً اتصالياً»[٣]، وتوصف العلاقة بينهما - السياق والنص - على أنّها علاقة شديدة الوثاقة والتماسك، فإذا كان النص والسياق شديدي الاتصال بحيث يصعب فصل أحدهما عن الآخر، فإنّ من سمات النصية أنها تسمح للخطاب أن يتماسك ليس بين أجزائه بعضها ببعض فحسب، ولكن يتماسك أيضاً مع سياق الموقف الخاص به؛ وبذلك فالنص هو اللغة الفعالة في سياق الموقف[٤]، ويمارس السياق وظيفة الوعاء للنص، وهو بذلك يشبه وظيفة الفلسفة التي وصفت قديماً بأنّها وعاء العلوم، فكذلك السياق بالنسبة للنص هو الحيّز الذي يُبحر فيه وينطلق إلى آفاقه الجديدة في تحقيق المعنى المراد منه، و«يختص مفهوم السياق بأنّه إعادة بناء نظري لعدد من ملامح السياق الاتصالي، تلك الملامح التي تشكل جزءاً من القيود التي تجعل المنطوقات - بوصفها أحداثاً كلامية - مصيبة. وهدف البراجماتية أن تصوغ هذه القيود، أي أن تبين كيف تترابط منطوقات من خلال هذا السياق، ولأننا نصف المنطوقات نظرياً بأنها نصوص فإن الأمر يتصل هنا إذن بتمييز أوجه الربط بين النص والسياق، إذ تمتد أوجه الربط هذه في كلا الاتجاهين؛ الأول: وهو إمكان — أن تعبر- ملامح نصية محددة عند جوانب السياق أو حتى أن تتشكل. والثاني: تتحدد بنية السياق في قسم كبير منها من خلال تلك الملامح التي توفرها النصوص لكي تكون - بوصفها منطوقاً — مقبولة في السياق»[٥]، ويتضح لنا من كلام فان دايك تعدد وظائف السياق، وأنّ غايته الأهم أداء مهمة

(١) تحليل الخطاب: ٣٢ - ٣٣.

(٢) ينظر: علم اللغة بين التراث والمعاصرة، عاطف مدكور: ٢٣٧.

(٣) علم النص، مدخل متداخل الاختصاصات: ١١٦.

(٤) ينظر: علم لغة النص، عزة شبل: ١.

(٥) علم النص- مدخل متداخل الاختصاصات: ١٣٥.

مهمة الربط في النص.

ولابد من وجود مجموعة من العوامل المترابطة والمتسلسلة من أوجه الربط بين النص والسياق، وهي بمجموعها تندرج في ضمن مجال الدلالة والدلالة السياقية، وهي التعبيرات الإشارية، ويقصد بذلك تعبيرات تحيل إلى مكونات السياق الاتصالي، وهي المتكلم، والسامع، وزمن المنطوق، ومكانه.. الخ؛ فالسياق الاتصالي ينطلق من (متكلم) باتجاه (سامع)، في (زمن محدد)، و(مكان محدد)، و(ظروف محددة)، فهذه بمجموعها كونت السياق الاتصالي[١].

إن الحديث عن هذه المكونات يفضي بنا إلى الحديث عن أنواع السياق، والتي يمكن حصرها بالآتي:

١. السياق المصاحب.

٢. سياق الموقف.

١. السياق المصاحب (السياق غير اللغوي):

وهذا النوع من السياق يشمل مجموعة مركبة تنتمي إلى قسمين رئيسين هما: (فعلي، وصوتي)، فأما القسم الفعلي فيشمل الإشارات، والإيماءات التي تصاحب النص في أثناء التلفظ به، وأما الصوتي فيشمل كل مظاهر الأداء الصوتي المختلفة من نبر وتنغيم.. إلخ، وهذان القسمان بمجموعهما يتعلقان بالنصوص الشفاهية لا بالنصوص المكتوبة[٢]، فالعلاقة بين الرسالة والمتكلم في إحدى نهايتي السلسلة الاتصالية، والعلاقة بين الرسالة والسامع في النهاية الأخرى، وهذه العلاقة تتحول تحولاً عميقاً حين يتم استبدال علاقة المشافهة – وجهاً لوجه بعلاقة قراءة المكتوب الأكثر تعقيداً التي تنشأ عن السيطرة المباشرة للخطاب في حروف مدونة، وفي هذه الحالة يتم نسف الموقف الحواري بالكامل، فلم تعد علاقة (الكتابة – القراءة) مسألة خاصة من حالات علاقة (التكلم–الاستماع)[٣].

وبالرجوع إلى موضوع بحثنا الذي هو مادة مدونة ومنذ زمن بعيد عنا، ولا نملك عنها

---

(١) ينظر: علم النص – مدخل متداخل الاختصاصات: ١٣٥ – ١٣٦.

(٢) ينظر: نظرية علم النص: ٢٤، وينظر: لسانيات النص، ليندة قيّاس: ١٦٨ – ١٦٩.

(٣) ينظر: نظرية التأويل، بول ريكور: ٦٠.

تسجيلاً مرئياً أو صوتياً؛ لذا يستحيل علينا معرفة الأداءات السيميولوجية المصاحبة لها، كما لا تخفى علينا طرائق التلفظ بها وأساليبها وما تبرزه هذه الطرائق والدلالات، فكان لابد من أن نضرب صفحاً عن تحليل السياق غير اللغوي للمقابسات.

٢. سياق الموقف:

هو بيئة لا ينتصب قوامها إلا بتفاعل مجموعة عوامل؛ إذ «ينبغي للنص أن يتصل بموقف يكون فيه (situation of occurrence) تتفاعل فيه مجموعة من المرتكزات (strategies)، والتوقعات (expectation)، والمعارف (knowledge)، وهذه البيئة الشاسعة تسمى سياق الموقف (context)»[١]، وهذا الذي يهمنا في مبحثنا هذا، وعليه ينبغي علينا أن نميز بين سياق الموقف (context) وسياق البنية (co-text) الذي يمثل التركيب الداخلي للنص[٢].

وقد بدأ المصطلح (سياق الموقف) في بيئة غير لغوية، وبالتحديد عند علماء الأنثروبولوجيا، ويرجع أصله إلى مقال لـ أ. م.هوكارت، ثم بعد ذلك استعمل مالينوفسكي – وهو عالم اجتماع – هذا المصطلح (سياق الحال= الماجريات) الذي أضفى عليه معنى خاصاً، ثم تطور هذا المصطلح تطوراً آخر باستعمال فيرث له في دراسته اللغوية، وهو عنده نوع من التجريد من البيئة، أو الوسط الذي يقع فيه الكلام[٣].

و«مصطلح الموقفية تسمية عامة للعوامل التي تقيم صلة بين النص وبين موقف لواقعة ما سواء اكان موقفاً حاضراً أم قابلاً للاسترجاع. ونادراً ما تتحقق تأثيرات مقام سياقي معين بدون حدوث التوسط، أي: مدى تغذية المرء بمعتقداته وأهدافه الخاصة للنموذج الذي يقيمه للموقف الاتصالي الحالي وتتم تغذية النموذج بالقرائن المتيسرة جنباً إلى جنب مع توقعاتنا ومعرفتنا السابقة بشأن كيفية تنظيم العالم الواقعي»[٤].

ويذهب (فان دايك) في إمكانية إيجاد مجموعة لا متناهية من السياقات الممكنة التي يستطيع أحدنا أن يكون له فيها أوضاع مخصوصة، يعني: حالة سياق واقعي، بناءً على وجود

(١) النص والخطاب والإجراء: ٩١.

(٢) ينظر: نفسه: ٩١.

(٣) ينظر: علم اللغة، محمود السعران: ٣١٠.

(٤) مدخل إلى علم لغة النص، د. إلهام أبو غزالة: ٢٠٩.

شخصين على الأقل في كل موقف تواصلي؛ أحدهما: فاعل حقيقي، والثاني: فاعل على جهة الإمكان، اي المتكلم و المخاطب على التوالي، وهذان الشخصان لابد لهما من أن يكونا منتمين إلى جماعة لسانية لها لغة، وترابط ضروب الاتفاق والتواطؤ للقيام بالفعل المشترك نفسه، والخاصية الأولى للسياق، مما يتعين التوكيد عليها هي: الصفة أو الميزة الديناميكية (المحركة)، فالسياق ليس مجرد حالة لفظ، وإنما هو على الأقل متوالية من احوال اللفظ والمواقف لا تضل متماثلة في الزمان وإنما تتغير، وعلى ذلك فكل سياق هو عبارة عن مجرى للأحداث(١).

فمفهوم السياق عند فان دايك مرتبط بمجموعة من العوامل التواصلية، والمعرفية، فهو مرتبط بطرفي الاتصال (المتكلم والمتلقي، وهما الفاعلان الرئيسان في هذا الحدث، ومرتبط أيضاً بالآنية الزمانية، والمكان، وهما العنصران اللذان يتحدد بهما السياق الواقعي أو الفعلي الذي يكون فيه الخطاب وهما يضمان مجموعة كبيرة من السياقات التي تنتجها مجموع الظروف العقلية والمنطقية، والاجتماعية، والنفسية، والثقافية التي يتألف في ظلها الخطاب، فالسياق أثر في توجيه فهم الحدث اللغوي، وهنأ يأتي عمل محلل الخطاب إذ عليه أن يراعي كل تلك العوامل(المرسل والمرسل إليه والرسالة/النص) التي تولد وتتابع الحدوث في ظل زمان ومكان معينين والظروف التي أنتج فيها النص، أو تلك التي أثرت بصورة مباشرة في منتج النص سواء أكان متكلماً أم كاتباً، ونخص في بحثنا المنتج الكاتب؛ لأنّه أنتج النصّ في زمن بعيد عنا، وهذا ما سننطلق منه في تبيين أثر سياق المقام في مقابسات التوحيدي.

ثم أنّ لسياق الموقف أثراً في تحقيق الخاصية النصية للنص ولا تتحقق الفائدة النصية للسياق إلا بفضل الوظائف التداولية والتواصلية للنصوص ؛ فغاية المرسل(المتكلم)التأثير في المستقبل (السامع أو القارئ) بأي نوع من المنتج سواء أكان بنص مكتوب أو منطوق. فتنشأ النصوص في مواقف تواصلية؛ ولذا تؤثر بشكل كبير في بنيتها فصار لزاماً علينا النظر في كل ما يؤثر في النص وكل هذا العمل يقع في محاولة فهم النص والاستفادة القصوى مما يكتنز من معانٍ وإشارات، فتنوع السياق يلقي بتأثير مباشر في تنوع دلالة اللفظة وضلال معانيها التي يتجاذبها تنوع السياق الذي ترد فيه، بل وتنصيب السياق فيصلاً في ترجيح المعنى المراد من اللفظة هو الأقرب إلى واقع الاستعمال اللغوي والوظيفي والتواصلي للغة.

---

(١) ينظر: النص والسياق: ٢٥٨ – ٢٥٩.

وقبل الشروع في الجانب التطبيقي لابد لنا من معرفة أحوال المؤلف(المرسل)؛ فمعرفة أحواله من نشأته ومراحل عمره وميوله العلمية وغير العلمية- وإن كان بصورة موجزة — ينفع كثيراً في فهم المقابسات واستيضاح جوانب كثيرة من معانيها كما وأن فهم أحوال عصره التي تؤثر بالمستقبِل بصورة مباشرة وفي مدى تقبله المنتج الذي يبث إليه، وهذه الظروف تؤثر- أيضاً - في الرسالة (المنتج) في شيوعها وانتشارها ومدى تقبل الوسط الاجتماعي والسياسي والثقافي لها، فظروف العصر هي الوسط الذي ينمو فيه المنتج (الرسالة) ويعيش وربما خلاف ذلك.

وقد قال الدكتور زكي مبارك في التوحيدي في حديث طويل - أذكر منه ما يتعلق بمبحثنا هذا - : لست أعدو الحق إذا قلت: إن الأدب العالي لا يقع إلا متأثراً بعاطفتين اثنتين: الحب، أو الحقد؛ ولن نجد في تاريخ الآداب العربية كاتباً مجيداً، أو شاعراً بليغاً، أو خطيباً منطقياً خلت نفسه من رقة الحب، أو قسوة البغض، وأبو حيان التوحيدي رجل خلقته البأساء، وأنشأه الحقد على الموهبين من أهل العلم والأدب والجاه، ولن تجده في صميم أدبه إلا رعداً يزمجر كلما مر بباله خاطر الغنى والفقر والنعيم والبؤس لا تسأل متى ولد أو أين ولد فهو رجل نشأ في بيئة خاملة لم تكن تطمع في مجد حتى تقيد تاريخ ميلاد، ويكفي اختلاف الناس في تحديد تاريخ مولده ووفاته هذا الغموض في حياة التوحيدي قيمة في فهم جده العاثر وحظه المنكود فلو كان رجلاً مجدوداً في دنياه لتلفت الناس إليه واهتموا بنسبه وعرفوا مسقط راسه؛ لكنهم عرفوه شقياً محروماً فانصرفوا عنه، وأغفلوا أمره حتى عجب ياقوت الحموي من أن لم يروِ أحد عنه من كتاب السير والتراجم، على كثرة اهتمام الملأ من العلماء والكتاب والشعراء[1].

وستؤثر هذه العوامل —كما سنرى - بصورة كبيرة ومباشرة في أعمال التوحيدي، وستظهر انعكاساتها كلما سنحت الظروف بذلك، وقد ذهب الدكتور زكي مبارك إلى أن التوحيدي شخصيتين مختلفتين: «الأولى: شخصية الأديب الذي يحدثنا عن نفسه وعن أشيائه، وعن عتبه على الناس وتبرمه بالحياة، والشخصية الثانية: شخصية الباحث الذي ينقل الصور المختلفة لما يفهم معاصروه من ضروب العلوم والآداب والفنون... وهذه الشخصية الثانية شخصية الباحث تقدمه إلينا رجلاً فهم النزعات الفلسفية والأخلاقية والأدبية، ثم صورها لنا

(١) ينظر: النثر الفني في القرن الرابع: ١٦١/٢ - ١٦٢.

تصويراً يقرب من الإتقان في كتاب المقابسات»[١].

هذا ومن الجدير بالاهتمام أن لا يغيب عن اذهاننا أن كتاب المقابسات كتبه أديب كان يتخذ من النسخ والوراقة مهنة له، وقد كان جميل الخط خبيراً بالتصحيف والتحريف[٢]؛ وقد أكسبته هذه الحرفة ثقافة واسعة إذ مكنته القراءة المتأنية والنسخ المتقن لكثير من مؤلفات عصره والعصور السابقة له وفي علوم متنوعة شتى من الاطلاع عليها مراراً والاستقاء منها متى شاء وكيف شاء[٣]، فضلاً عن ثقافته الفلسفية، وبراعته الأدبية، وملكته الحوارية في استنطاق الأحداث والشخصيات وتسييرها مادة ثرة في مؤلفاته ولاسيما كتاب المقابسات الذي كتبه في مرحلة نضجه وشيخوخته، فكان كتابه هذا «لا ينفع المبتدئين إلا قليلاً؛ ولكنه نافع كل النفع لمن وقفوا على معضلات الفلسفة الإسلامية، ولعل أهم ما فيه أنه يعطينا صورة من الكتابة الفلسفية لعهده، وإن كنا نرى في ذلك بعض البعد عن الصواب؛ لأنه يحاكي الجاحظ في أسلوبه الفلسفي والأدبي فيترك السجع ويقبل على الازدواج، غير أنه على كل حال لون من الكتابة الفلسفية التي تقبلها الناس في ذلك الحين، وأدق ما يلاحظ على كتاب المقابسات أنه يطلعنا على ناحية خطيرة من عقلية الباحثين في ذلك العهد، فهم يعرفون كيف تثار المشاكل وكيف تبذر بذور الخلاف؛ فإذا حاولوا الإجابة والتعليل ظهروا ضعفاء عاجزين، وهذه ظاهرة تجدها حيث تتصفح كتاب المقابسات؛ ولعل السبب في ذلك أنهم كانوا يعانون أزمة عقلية خطرة لم يتح لهم التغلب عليها، وكان من أثرها أن كثر الشك والارتياب والإلحاد بين طبقات المفكرين»[٤]، والحقبة الزمنية التي كتبت فيها المقابسات على وجه التقريب ما بين ٣٦٠هـ إلى ما بعد ٣٩١هـ، وقد شهدت هذه الحقبة ذروة الصراعات الفكرية والدينية والعقائدية، ونشاط التيارات الفلسفية والكلامية، وتسابق الثقافات المتنوعة في محيط الدولة العباسية، وتسابق أهل عصره بنقل الفلسفة اليونانية إلى اللغة العربية، والمجتمع الإسلامي.

يتبين مدى اتساق نص ما وانسجامه انطلاقاً من السياق الذي أنتج فيه، وعلى أساس من هذا حدد لنا بعض الدارسين العناصر والبنى المكونة للسياق، وقد تمثلت بـ:

---

(١) النثر الفني في القرن الرابع: ١٦٧/٢.

(٢) ينظر: معجم الأدباء: ٢٨/١٥.

(٣) ينظر: ظواهر تركيبية: ١٠.

(٤) النثر الفني في القرن الرابع: ١٦٧/٢ – ١٦٨.

١. معرفة هوية المشاركين في عملية التلقي: المتكلم (المرسل)، المستمع (القارئ).
٢. الإطار المكاني والزماني للفعل.
٣. الهدف والموضوع.
٤. نوع الخطاب والموضوع.
٥. القناة المستعملة.
٦. القوانين التي تتحكم في عملية إنتاج الخطاب من متكلم إلى آخر «فإن نشاطات عضوين- فأكثر - من الجماعة قد تتسق وتنتظم على معنى أن المتكلم ينتج عبارة، أو ربما ليس ذلك فحسب، وإنما يصير فاعلاً وينجز عدداً من الأفعال الإنجازية، وقد يكون هذا الوصف لمميزات الموقف التواصلي أمراً بديهياً إلى حد ما»[١].

(١) النص والسياق: ٢٥٨.

السياق في المقابسات:

جاءت المقابسة الأولى في كتاب التوحيد بعنوان (مقابسة في تطهير النفس وتجردها من الشوائب البدنية)، ويكتنز هذا العنوان ألواناً متنوعة من سياق الموقف الذي انعكس بصورة كبيرة على عنوان المقابسة ومضمونها، ففي العنوان وحده نلمح تجسد أثر السياق الديني فلا شك أن تطهير النفس بأعمال البر والتقوى من صفات المؤمنين المفلحين الوارثين الجنة[١].

وهو أحد الأعمدة التي يرتكز عليها صلاح الدين والإيمان للمسلم، وفي العنوان -أيضاً - نلمح أثر السياق الفلسفي إذ يهدف الفلاسفة إلى الارتقاء بالنفس إلى عالم الروح خلال تطهيرها من الشوائب البدنية.

وقد جاءت المقابسة الأولى لتعبر عن أهم ما تحتاجه الشريحة الغالبة في المجتمع –مجتمع المؤلف– من المؤمنين في سبيل الارتقاء والوصول إلى جلالة الخالق بعد تحصيل جمال النفس وتخليصها من الشوائب التي تلحق بها من البدن، وهذا المبدأ يعد من المرتكزات الأساسية في هذا السبيل وقد عرف بمبدأ (التخلية والتحلية)، فعلى المؤمن المتقي أن يطهر نفسه أولاً بتخليتها من الشوائب التي تلحق بها؛ وترجع هذه الشوائب في أصلها إلى عالم المادة، وقد عبر عنه–هاهنا– بالبدن ويمثل نصف المكون الذي يشترك معه النصف الآخر: عالم الروح، ويأتي بعد ذلك التحلية، أي: تحلية النفس بذكر الله (جل جلاله).

وقد استهلَّ التوحيدي كلامه في أول المقابسة بضرورة الاعتبار، ويستعين المتلقي بالسياق الديني ليدرك المغزى من وراء هذه المقابسة، بل وربما من وراء الكتاب بمجمله فالاعتبار سمة خالصة جبل عليها المؤمنون، وينتابني سؤال هنا مفاده: هل أن التوحيدي رجل مؤمن صالح؟ أم أنه يعيش في مجتمع مسلم يتعاطى ثقافة إيمانية؟ وفي كلا الحالين يتحكم سياق الموقف في الدفع بعجلة المنتج الأدبي لديه لتدور وتبعث الرسائل تلو الرسائل إلى المجتمع المتعطش لمثل هذا المضمون في العمل الأدبي، ولكن الذي يهمنا هنا أننا نجد سياق الموقف قد مارس وظيفة مركبة في التحكم بشخص المنتج/ المرسل وبما أنتجه للجماعة اللسانية التي خاطبها بلغة التواصل فيما بينهم، وعلى أي حال فقد صورت هذه المقابسة واقعاً اجتماعياً حاضراً صوره النص وعبر عنه

(١) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي: ٣٠٨/٥.

سياقه التداولي، إذ توحي آنية الحدث الكلامي التواصلي والذي عبرت عنه الجمل الأسمية التي بدأ بها التوحيدي مقابسته على أن الاعتبار وتطهير النفس من المسلمات الراسخة في المجتمع المسلم، وثمة ألفاظ وتركيبات وظفها لخدمة الهدف التواصلي لكلامه جاءت على صورة مجموعتين؛ مجموعة تختص بالشوائب وما يترتب عليها كـ(الوسخ، والدنس، وعفت، وكرهت، نفرت، وطرحت، وشناعة، ودرن، وشهوة، وهلكتك، وتلفك، وثبورك، واضمحلال)، ومجموعة ثانية تختص بالنقاء وما يترتب عليه: (الاعتبار، النظافة، وطاهرة، ونقية، ومجلوة، وسعادة، وكمال، وتصفية، وحال نفيسة، وغاية شريفة، ودرجة رفيعة، وحلية رائعة، توجت بكلمة رائعة، ونوديت من ناحية قريبة)، وهذه الألفاظ والمركبات تدعو المتلقي/القارئ إلى الاستعانة بالسياقات الدينية، والاجتماعية، والنفسية، والثقافية التي أحاطت بالنص، في سبيل معرفة دلالات المفردات الواردة فيه، والمعبرة عن النزاع الثنائي الخفي الذي يشتمل عليه ابن آدم، فالذي يناسب سياق المقام هنا: هو أن تصور هذه المفردات حالة الشوائب البدنية وتطهير النفس، فمع نظافة الجسد وطهارته قد تحصل مفارقة يغفل عنها المرء بأن تلحق الشوائب البدنية-بأثرها- النفسَ فيختبئ تحت الجسد النظيف نفسٌ تملؤها الشوائب، فينشب صراع بين الجسد والروح لاختلاف الشمائل وربما حصلت النفرة والكره، وهذه العبارة التي تمثل نسج المقابسة، هي: «**ولا تريدها إلا طاهرة نقية صافية مجلوة، ومتى لم تجدها كذلك عفتها وكرهتها ونفرت منها وطرحتها، لأن طبيعتك لا تساعدك عليها، ونفرتك لا تزول منها، وإباؤك لا يفارقك من أجلها، وقشعريرتك لا تذهب من شناعة منظرها، وكذلك فاعلم أنك لا تصل إلى سعادة نفسك وكمال حقيقتك، وتصفية ذاتك، إلا بتنقيتها من درن بدنك، وصقالها من كدر جبلتك، وصرفها عن ظلمة هواك**»[(١)].

جاءت هذه العبارات لتعبر عن صورتين للنفس، إحداهما: متسخة تشوبه الأدران، والثانية: نظيفة طاهرة نقية، وهما حقيقتان نفسيتان اجتماعيتان اجتهد النص في أن ينقلهما إلى المتلقي، وأثر هاتين الصورتين في شخص منشئ النص، وربما عبر النص عن حالة من الصراع تضطرم في شخصه وبإنتاجه هذا النص ربما أراد إرسال رسالة تحفيز إلى ذاته للانتصار في هذا الصراع الذي يؤرقه.

---

(١) المقابسات، المقابسة الأولى: ٥٧.

ويلاحظ في ختام هذه المقابسة تغير نسج الكلام إذ يقول: «**فاسعد أيّها الإنسان بما تسمع وتبصر وتحسُّ وتعقل، فقد أردت لحال نفيسة، ودعيت إلى غاية شريفة، وهيئت لدرجة رفيعة، وحليّت بحلية رائعة، ونوجيت بكلمة جامعة، ونوديت من ناحية قريبة**»[١].

وهذه المفردات لا تتماشى مع السياق العام لما جاء في طيّات المقابسة فهي أقرب إلى أنها تصور الفائدة أو الجائزة التي يمكن تحققها من تخليص النفس من كل تلك الشوائب، وهذا حافز كبير يشير إليه التوحيدي للحث على البدء بتطهير النفس وإنجاز هذا العمل على أتم صورة مرتجاة.

وفي المقابسة الخامسة والثلاثين ينقلنا التوحيدي إلى أجواء الجنة والنعيم ليطلق العنان للخيال يبدع ويهيم في ذلك العالم الأخروي الذي لا نعلم عنه شيئاً سوى ما جاء في القرآن الكريم من روايات، وأخبار من طريق رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فجاء في مستهلها: «**سمعت أبا إسحق النصيبي المتكلم... يقول: ما أعجب أمر أهل الجنة! قيل: وكيف؟ قال: لأنهم يبقون هناك لا عمل لهم إلا الأكل والشرب والنكاح. أما تضيق صدورهم؟ أما يكلون؟ أما يربؤون بأنفسهم عن هذه الحال الخسيسة، التي هي مشاكلة لأحوال البهيمة؟ أما يأنفون؟ أما يضجرون**»[٢].

وقد أعانه سياق الموقف في الحديث عن شيء غيبي على طرح كم كبير من الأسئلة الاستفهامية والاستنكارية، فهذه الأسئلة وأمثالها لا يمكن طرحها في سياقات مغايرة للذي وردت فيه.

ولفهم هذا النص يستعين المتلقي-بالإضافة إلى السياق الديني في التحقق من خبر الجنة بتواتر الروايات- بالسياق الفسيولوجي والنفسي والاجتماع، فموضوع الأكل والشرب والنكاح حاجة فسيولوجية لبني البشر، بل لا تصلح الحياة ولا تستقيم من دونها، ولكن لابد من الاعتدال فيها جميعاً، فالإفراط في جميعها أو بعض منها قد يأتي بما لا تحمد عقباه، وأما ضيق الصدر والضجر فهما قضيتان نفسيتان، أما مشكلة حال البهائم التي يزعم الزاعم أن لابد من أن يربؤوا بأنفسهم عنها فهي قضية اجتماعية لا يتقبلها المجتمع ولا يستسيغها لأحد أفراده

(١) المقابسات، المقابسة الأولى: ٥٧.

(٢) نفسه، المقابسة الخامسة والثلاثون: ١٣٦.

فضلاً عن جمعهم.

ولكن هنا يطرح سؤال مفاده: كيف تمكن المرسل من نقل الحديث عن حاجات وأحوال بشرية تحدث له في عالم الدنيا إلى عالم الآخرة، وبالتحديد عالم النعيم في جنان الله (جلا جلاله)، وهنا تبرز ملكة المرسل في الاستفادة من سياق الموقف وتوظيفه توظيفاً ناجحاً في سبيل الوصول إلى هدفه المبرم وتحقيق ما يربو إليه.

ونجده بعد ذلك يستعين بالأدوات الفلسفية والمنطقية في ظل هذه الأجواء الغيبية الي تناولت موضوع نعيم الآخرة ومزاوجة الحس لها، فالأكل والنكاح والضجر والملل لا شك في أنها تنتمي إلى عالم المحسوسات (العالم الدنيوي) الذي تحكمه قوى فيزيائية وكيميائية وغيرها خاصة به وتختلف تماماً عن تلك التي تحكم عالم الآخرة في الجنة والنار «**وهذا منه في ذوي الإحساس ظاهر معروف، وقائم موجود. وليس كذلك الأمر في المعاد، إذا فرض من جهة العقل، لأن العقل لا يعتريه الملل، ولا تصيبه الكلفة، ولا يمسه اللغوب، ولا يناله الصمت، ولا يتحيفه الضجر**»[(١)]، وهكذا فلولا الاستعانة بالسياق الفلسفي لما أمكن الإجابة عن تلك الأسئلة التي وردت في بداية المقابسة، ولا يخفى علينا جسامة الحديث في مثل هذا الموضوع الذي طرفاه عالم المحسوسات وعالم الآخرة، لذا نجد أن المشتغلين بمثل هذه الموضوعات لا يدخرون جهداً في محاولة الاستفادة من أنواع السياق كافة، فربما حصلت القناعة بأحدها، وقد جاء في هذه المقابسة: «**وفي الجملة القول في حصول النفس بعد خلع الحد الذي خص به الإنسان صعب. ولولا أمثلة توضح إيضاحاً يثق به الإنسان مرة بعد مرة لكان باب معرفة حالها قد أرتج، والطريق قد سُدّ. وقد بين هذا كله بالبرهان المنطقي في مواضعه المعروفة إن كانت الثقة تقع كذلك**»[(٢)].

فنلمح – هاهنا – الاستعانة بسياق الأمثلة التعليمية المنطقية وكيف تحولت إلى أدوات جدلية تحليلية تميط اللثام عن مثل هذه الموضوعات الشديدة الحساسية.

وقد وردت في هذه المقابسة مجموعة من العبارات التي أبانت لنا نقد من يُشْكِلُ على حال المؤمنين في نعيم الآخرة ، مثل: «**ولعمري من طلب طمأنينة النفس، ويقين القلب،**

---

(١) المقابسات، المقابسة الخامسة والثلاثون: ١٣٦ – ١٣٧.

(٢) نفسه: ١٣٧.

ونعمة البال، بطريقة أصحاب الجدل وأهل البلاء حل به البلاء، وأحاط به الشقاء. والكلام كله جدل، ودفاع، وحيلة، وإيهام، وتشبيه، وتمويه، وترقيق، وتزويق، ومخاتلة، وتورية، وقشر بلا لب، وأرض بلا ريع، وطريق بلا منار، وإسناد بلا متن، وورق بلا ثمر. والمبتدئ فيه سفيه، والمتوسط شاك، والحاذق فيهم متهم. وفي الجملة: آفته عظيمة، وفائدته قليلة»[(١)].

وقد مهدت هذه العبارات الطريق عن تلك الأسئلة الاستنكارية الواردة في مقدمة المقابسة، وقد عبرت عن سياق الموقف وحاجة المرسل إلى الاستعانة بها في باب الحجاج ونقد الأفكار وتصحيح مسارها.

وفي مقابسة التوحيدي (في الصديق وحقيقة الصداقة...إلخ) يتجسد الجانب الوجداني من التوحيدي فنجده وقد أطلق زفراته وحسراته وآهاته من وحشة السفر في هذه الحياة الدنيا من دون صديق صدوق خالص بوفائه وجاد في عطائه وباذل النفيس في سبيل الصديق والصداقة حتى وجدناه قد استعان بالسياق التاريخي وهو يسرد حادثة وقعت للحكيم الإسكندر جاء فيه: «**قرأت في أخبار الملك الحكيم الإسكندر، أنه كتب إلى معلمه أرسطوطاليس، يصف له ما رأى في مسيره إلى الهند من الأمور العجيبة، والأحوال الهائلة. فكان فيما كتب له: أيها الحكيم اننا انتهينا إلى خليج من البحر، من ورائه مدينة عظيمة من مدائن الهند، ورأينا في اللجة من ذلك الخليج شيئاً ناشزاً بارزاً كهيئة الجزيرة، فمنعني منه صديقي فيلون وقال: أعبر أنا أولاً، فإن كان هناك مكروه وقع فيَّ دونك، فإنّه إن هلك فيلون وجد الاسكندر منه خلفاً، وإنْ فُقِدَ الإسكندر، لا فُقِدَ، لم يكن على وجه الأرض خلف. فعبر فيلون وعدة من خلاني وخلصاني، فاذا ذلك الذي رأينا في البحر دابة عظيمة من دوابه. فلما دنا أصحابي منها غاصت في البحر، فاضطرب الماء، وغشى الموج سفائن أصحابي، فأغرقها. فلما شاهدت ذلك، اشتد جزعي على صديقي فليون ومن غرق معه من خلاني، وانصرفت عن ذلك بقلب مصدوع، وطرف مولع بالدموع**»[(٢)].

ويطالعنا التوحيدي وهو يسوق هذه الحادثة وأمثالها رجلاً قد بخلت عليه الدنيا بصديق

---

(١) المقابسات: ١٣٦.

(٢) نفسه، المقابسة السادسة بعد المائة: ٣٥٩.

مثل فيلون وبصداقة خالصة مثل ماورد في قصّته، فقد استحالا قيمة نفيسة ومعنى لا يسبر غوره، ويستعين المتلقي في سبيل الوصول إلى المعنى الجوهري من هذه المقابسة وهذه الأخبار التي يسوقها التوحيدي بالسياق التاريخي والسياق الأدبي فالتوحيدي يعاني من ندرة الصداقة وفقدان الصديق الصادق، وهذا الموضوع قد أرّقه كثيراً وبلغ من الأهمية لديه حتى أفرد كتاباً خاصاً بهذا الصدد وسمه بـ(الصداقة والصديق)، أفرغ فيه ما يجول في نفسه من ذلك الأمر، قال في مقدمته: «فإن حديث الصديق حلو، ووصف الصاحب المساعد مطرب... وقبل كل شيء ينبغي أن نثق بأنه لا صديق، ولا من يتشبه بالصديق، ولذلك قال جميل بن مرة في الزمان الأول حين كان الدين يعانق بالإخلاص، والمروءة تتهادى بين الناس، وقد لزم قعر البيت، ورفض المجالس، واعتزل الخاصة والعامة، وعوتب في ذلك فقال: لقد صحبت الناس أربعين سنة فما رأيتهم غفروا لي ذنباً، ولا ستروا لي عيباً، ولا حفظوا لي غيباً... ورأيت الشغل بهم تضييعاً للحياة، وتباعداً من الله تعالى، وتجرعاً للغيظ مع الساعات، وتسليطاً للهوى في الهنات بعد الهنات، ولذلك قال الثوري لرجل قال له أوصني قال: أنكر من تعرفه، قال: زدني، قال: لا مزيد. وكان ابن كعب يقول: لا خير في مخالطة الناس، ولا فائدة في القرب منهم، والثقة بهم والاعتماد عليهم»[(١)].

وهذا كلام ينطوي على مرارة كبيرة لأديب فيلسوف امتلك من العاطفة الجياشة والمشاعر الرقيقة ما يجعله يصاب بمقتل في حال تعرضه إلى مثل هذه المواقف، ولا سيما من أقرب الناس إليه وثاقة وأخص أصدقائه ائتماناً، وحده يعاني صعوبة الظفر بصديق وفيٍّ تدوم مودته، ويصله في كل حال «والصديق اليوم قليل، والنصح أقل، ولن يرتبط الصديق إذا وجد بمثل الثقة به، والأخذ بهديه، والمصير إلى رأيه، والكون معه في سرائه وضرائه، فمتى ظفرت بهذا الموصوف فاعلم بأن جدك قد سعد، ونجمك قد صعد، وعدوك قد بعد»[(٢)].

فإذا استأنس المتلقي بالسياق التاريخي والسياق الأدبي علم أن التوحيدي قد أصيب بندرة الحصول على صديق ومن مؤلفاته الأدبية السابقة لكتاب المقابسات -أعني كتاب (الصداقة والصديق)- أدرك مرارة ما يعانيه التوحيدي من جفاء الناس وصدهم عن الصداقة الحقة والوفاء

(١) الصداقة والصديق، أبو حيان التوحيدي، تح: د. إبراهيم الكيلاني: ٣٦.

(٢) نفسه: ١٤٢.

المطلق والتضحية التي لا تعرف الحدود.

ومن الملاحظ على التوحيدي في هذه المقابسة أنه أنفد من الحبر الكثير وأمضى من وقته الساعات الطوال حتى جاءت هذه المقابسة في طليعة مقابساته من حيث الحجم، فهي الأطول، وقد استوفت عشرين صفحة من صفحات كتابه، وإن دلَّ هذا على شيء فإنما يدل على أهمية الصداقة والصديق لديه، وتبلغ هذه الأهمية منتهاها حينما نجده يسوق العديد من التعريفات للصداقة وللصديق وبيان أحوالهما وصورهما وما يلحق بهما في تقلبات الحياة؛ وقد كان لسياق الموقف أثر في تيسير مجرى الأحداث في هذه المقابسة وتوجيهها وجهة منطقية وجدت صداها لدى أديب فيلسوف فشّمر عن ساعديه وهو يمارس عملاً أحبه كثيراً صنعة الفلاسفة والمناطقة في وضع الحدود وبيان معاني الأشياء وتمييزها واستيفاء معانيها، ومن ذلك مثلاً قوله: «**سمعت النوشجاني يقول، وقد جرى حديث الصديق، وحكى في عرضه الحد الذي للفيلسوف، وهو: الصديق آخر هو أنت. ويقال: الصديق هو أنت، إلا أنه بالشخص غيرك. فقال: الحد صحيح، ولكن المحدود غير موجود**»[(١)].

ومنه أيضاً: «**قلت له: فعلى هذا ما فائدة هذا الحد؟ ولم قال الفيلسوف شيئاً لا حقيقة له، ولا دلالة عليه، ولا يوجد في الشاهد أصله؟ فقال: قد قصد بهذا الحد المبالغة في الحس على توخي الصديق لصديقه حالاً لا يكاد يفصل بينهما في إرادة وإيثار وقصد ومحبة وكراهية ومرضاة. فان هذا الحد إذا لحظ أفقه العلي، سلك إليه بالهمة الشريفة، والعزيمة التامة**»[(٢)].

ومنه: «**قيل له: إنما الصداقة لغة، وهي أم هذه المقابسة. فقال: صحة الظاهر بالموافقة، وسلامة الباطن من المخالفة، واستقرارها على جد المواصلة بالمناصفة والمساعفة والإيثار، مع الاهتمام بكل دقيقة وجليلة، والاحتياط في كل ما حرس أسباب القوى والزلفة، واطراح كل ما أشار إلى المؤونة والكلفة**»[(٣)].

فهذه المقابسة حافلة بمثل هذه الحدود عن الصداقة والصديق؛ ويرشدنا السياق الثقافي في

---

(١) المقابسات، المقابسة السادسة بعد المائة: ٣٥٥.

(٢) نفسه: ٣٥٦.

(٣) نفسه: ٣٦١.

تحديد لغة الخطاب التي تعد أداة لسانية مهمة للتعبير عن أفكار الكاتب ومعتقداته ومن ثم تمييز الأنواع الأدائية للغة رسمية منطوقة مكتوبة في فهم هذه الحدود التي بينت ماهية الصداقة والصديق، وهذه الأجواء من البحث والمناقشات كانت تحفل بها مجالس الأدباء والعلماء فكان الاستئناس بالمنطق والفلسفة ديدن أهل ذلك الزمان بل كانوا يرغبون إليهما وينتصران بهما كلما سنحت الفرصة وتهيأت المناسبة ومن دون مقدمات؛ فأن يتسلح العالم بسلاح المنطق وفنونه فهذا مدعاة للتفوق على أقرانه وبروزه في ميدان العلم فيستوي وجهة تشد إليها الرحال وميزانً ترجح فيه الآراء.

والسياق الاجتماعي يمنحنا هو الآخر فهماً أبلغ وتفسيراً أعمق فيما يرد من النصوص والعبارات في هذه المقابسة فـ(الصديق آخر هو أنت. ويقال: الصديق هو أنت إلا أنه بالشخص غيرك)، فهذه السمة اللصيقة بالصديق لصديقه إنما تعبر عن حاجة اجتماعية وروحية ونفسية لوجوده في حياتنا ولا يسد فقدانه شيء آخر، بل عدم القدرة على الحصول على الأصدقاء عُدَّ نقصاً وعجزاً؛ إذ يقول الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام): «أعجز الناس من عجز عن اكتساب الإخوان، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم»[1]، وهذا النقص أو العجز إنما هو آفة اجتماعية تلحق بالإنسان.

في ظل هذا السياق للأحداث أخرج التوحيدي نصفه في مقابسته هذه ليبين ويوضح أهمية الصداقة والصديق وحقوقهما وصلاحيتهما للفرد والمجتمع والحاجة الماسة للصديق: «**إن الانسان، وان كان واحداً بوجه، فإنه كثير بوجه، آخر فالكثرة التي أحالت بينه وبين صديقه في جمهور أحواله. فلولا التفرق الذي فيه، والكثرة التي تتوزعه، ما كنت تجد إنساناً إلا على هيئة واحدة، وشكل واحد أعني أنك كنت تجده أبداً اما طلق الوجه، مبتسم الثغر، سهل الخلق، ناشي الخلق، جواداً بالمال، سهل المأتى، قريب المأخذ، طرّاحاً للخلاف واما على خلاف ذلك كله عابس الوجه، منغلق الثغر، شرس الخلق، عديم البشر، بخيلاً بالمال، عسر المرام، بعيد المنال، مولعاً بالخلاف. أو فيما بين هذه الأضداد بالزيادة والنقصان والانحراف والاعتدال. فلما وجدته على أحوال مختلفة، وأشكال مفترقة واخلاق لا تتلاءم ولا تتلاحم، علمت أنه إذا صادف من هذا بعينه**

(١) نهج البلاغة: ٦٢٥.

وطينته، وعلى هذا ديدنه وإليه حنينه ونزوعه، وفيه غروبه وطلوعه، كان المعنى الذي انبأنا عليه الحد عنهما أبعد، وهما عنه انفر وأشرد، وأن ذلك الحد صدر عن فضاء العقول وعرصة الحق، حيث لاتزاحم الأشياء لا بالمشاكلة ولا بالمعاندة، فلذلك ما كان حلواً في السمع مقبولاً، كريهاً عند العمل مهجوراً»[1].

وتصور لنا هذه الكلمات طبيعة البشر وسر الاختلاف فيما بينهم وكل هذا يؤدي إلى ان يكمل بعضهم البعض الآخر وكيف ينجذب الانسان إلى من يشابهه سجية وخلقاً، فشبيه الشيء منجذب إليه، وقد روعي سياق الموقف في انتقاء هذه العبارات ونظمها، فمجريات الواقع والحياة أفرزت هذه الصور من التقارب، وهذه الصور من اصطفاف الصفات وتناسقها فيما بينها في كل جانب من ذلك.

إن تحقق عناصر السياق ما كان منها متعلقاً بطرفي الاتصال، المتكلم والمتلقي؛ ونعني بها السياقات الاجتماعية والنفسية والثقافية، وزمان النص ومكانه منح هذه المقابسة وحدة الموضوع الذي تسعى إليه الخاصية النصية، وتتحقق عندها الغاية التداولية والتواصلية له.

وهكذا تتبدى لنا أهمية سياق المقام في تحديد البعد التداولي للنص، فرأينا كيف أثَّرت السياقات المحيطة سواء منها: الاجتماعية، أم النفسية، أم الثقافية... إلخ، في فهمنا له والذي أعاننا عليه المعرفة المسبقة بعالمه وتحقيق الخاصية النصية من طريق ترابطه مع الأحداث المحيطة به، ومن ثمَّ تحققت عملية التواصل بتماسك أجزائه اللغوية فيما بينها دلالياً بفضل المعلومات التي يقدمها، وهذه هي الغاية النصية المنشودة من كل نص وكل كلمة منتجة في عالم الإبداع البشري الذي لا ينضب؛ وبذلك تتحقق الغاية التي من أجلها تدور عجلة الإبداع فتطرح ثمارها علينا.

---

(١) المقابسات، المقابسة السادسة بعد المائة: ٣٥٦ – ٣٥٧.

الفصل السادس

التناص

التناص من منظور لسانيات النص:

يستدعي الحديث عن التناص وجود نص سابق للنص الذي اغترف منه؛ ولكن النص السابق عينه يستدعي نصا أسبق؛ وهكذا فهي سلسلة لا منتهى لها يدرك: «فالكتّاب لا يخلقون نصوصهم من عقولهم المبدعة؛ ولكنهم يقومون بتجمعيها من نصوص موجودة مسبقاً»[١]، هذا ولو سنحت لنا فرصة في البحث العلمي ووصلنا إلى النص البشري الأول إنتاجاً؛ فيستدعي ذلك النص نصا أسبق له وقد يرتبط هذا الأخير بالذات المقدسة الله (جل جلاله). وعلى وفق هذه المسلمة يطالعنا النص البشري وبالمجمل على أنّه نص متناص من نصوص أخرى سابقة له.

وهنا تبرز سمة الأفضلية التي ينماز بها نص عن آخر والتي تتعلق بحجم النص المأخوذ أو توظيفه، أو صياغته وهذه كلها ترتبط بمقدرة منتج النص التعبيرية، وإنطلاقاً من هذه الترائب سيتبين لنا صنيع أبي حيان التوحيدي في مقابساته.

والتناص في عرف اللغة؛ مشتق من مادة (ن، ص، ص) قال الأزهري: «النصّ أصله منتهى الأشياء، ومبلغ أقصاها»[٢]، وكذا قولهم: «مفازة تناصي أخرى؛ أي: تتصل بها»[٣]، و«انتص الشيء: اختاره»[٤]، فهذه المعاني، أي: منتهى الأشياء، والاتصال، والاختيار تشترك في صياغة مصطلح (التناص)، أو انتهى إليه في عملية تعريبية.

وفي الاصطلاح: يعود ظهور (التناص) مصطلحاً إلى عقد الستينات من القرن العشرين حين ظهر ولأول مرة في كتابات الناقدة الفرنسية – ذات الأصل البلغاري – جوليا كريستيفا، وقد سبقت كريستيفا الشكلائيين الروس؛ إذ لا يُعدّون «أول من تنبه نقديا إلى مفهوم التناص حسب؛ بل تعدّ دراساتهم المهاد النظري لأي منظِّر للنقد الجديد لما قدموه من طروحات نظرية تطبيقية»[٥].

---

[١] نظرية التناص، جراهام ألان: ٥٥.

[٢] لسان العرب (ن، ص، ص): ٤٤٤٢/٤٩.

[٣] مجمل اللغة (ن، ص)، ابن فارس: ٨٦٩/٣-٨٧٠.

[٤] لسان العرب (ن، ص، ا): ٤٤٤٨/٤٩.

[٥] التناص – دراسة في الخطاب النقدي العربي، سعد إبراهيم عبد المجيد: ١٨.

أمّا جذور (التناص)، أو نواته–كما يرى الدكتور محمد مفتاح: فموجودة في الآراء الانطباعية التي كان يدلي بها متلقو الأدب في مختلف الثقافات، ومنها العربية[١]. ومصطلح (التناص) الوافد الجديد على الثقافة العربية، وبصور ومسميات شتى، منها: (السرقة، والأخذ، والتضمين، والاقتباس، والاخلاس، والإغارة، والسلج، والتلميع، والمسخ، والنسخ، والغصب، والاصطراف، والاهتدام، والحَلّ والاسترفاد)، بل يمكن أن تكون النقائض– وبجانب كبير منها– تحت هذا الجناح، هذا ويبدو لي أن جوهر التناص لا يلتقي من قريب أو بعيد مع كلّ ما أسلفناه من مسميات زخر بها الدرس النقدي العربي.

أو عرفه البحث اللساني النصّيّ إجمالاً؛ فما زال هناك إلماح بنية القصدية في إطلاق هذا المصطلح أو مشتقاته، فالتناص – لكي يكون عملاً إبداعياً انفعالياً– لابّد أن يحدث من دون شعور المنتج (المرسل) وبهذا لا يخرج من فلك الانفعال إلى ربقة الافتعال، وعلى هذا التأسيس يكون (التناص) وهو المقصود الذي ينصرف إليه الذهن متى ما أُطلق هذا المصطلح أو أحد مشتقاته، وأمّا الصور الأخرى من مصطلح التناص– والذي ينماز بهذه السمة التي أسلفنا– إنّما هي من المتقاربات التي تتشابه معه في جوانب معينة، ولا تنطبق معه تمام الانطباق.

وأشهر تعريبات ودلالات الأصل الانكليزي (Intetextualit): (التناص)، وهناك دوال عربية أخرى جاءت مرادفة للتناص، منها: (التعالق النصي) الذي استنبطه محمد مفتاح من (جوليا كريستيفا)، وميشيل أريفي، ولورانت، وريفانيز)، ويعني عند محمد مفتاح :«تعالق – الدخول في علاقة – نصوص مع نص حدث بكيفيات مختلفة»[٢]. وقد استخدم الباحث مصطلح : (التفاعل النصيّ) مرادفاً لمصطلح: (التناص)، إذ «آثره على غيره من الدوال العربية التي ترجمت له من مثل: المتعاليات النصية، أو غير النصية عند جيرار جينيت»[٣]؛ وقد علّل سعيد يقطين هذا الإيثار بقوله:«فبها أن النص ينتج ضمن بنية نصية سابقة، فهو يتعالق بها، ويتفاعل معها تحويلاً، أو تضميناً، أو خرقاً، وبمختلف الأشكال التي تتم بها هذه التفاعلات»[٤].فيما استخدم الباحث عبد الله الغذامي: (التداخل النصي) مرادفاً (للتناص)؛ إذ

---

[١] ينظر: دور المعرفة الخلفية في الإبداع والتحليل (بحث)، محمد محمود: ١٩٩٢.

[٢] تحليل الخطاب الشعري: ١٢١.

[٣] التناص عند شعراء صنعة البديع العباسيين، ياسر عبد الحسيب رضوان: ٧٩.

[٤] انفتاح النص الروائي: ٨٩.

يقول:«تداخل النصوص يتم بين نصّ واحد من جهة، ويقابله في الجهة الأخرى نصوص لا تحصى»[١]. ويرى الدكتور أحمد محمد قدور ضرورة توخي الدقة في تشخيص التناص بين النصوص، وعدم التسرع في تصيّد نقاط التشابه[٢].

إن نظرة فاحصة في اختيارات الباحثين المحدثين من العرب لتعريب المصطلح الانكليزي (Intertextuality) تطلعنا على مدى التباين الحاصل فيما بينهم لتحري الدالة العربية الأكثر دقة والأوفى لمعنى الأصل، هذا من جهة، ومن جهة ثانية نجد في كل دالة من خياراتهم قد سلطت على زاوية معينة ووجه محدد من معاني الأصل الانكليزي.

ونجد «أن معظم النقاد الغربيين والعرب... يعترفون لكريستيفا بفضل تعريفها، وتعريفهم بمصطلح التناص صياغة ومفهوماً»[٣]. وعلى ضوء ما تقدم نجد من الصعوبة البالغة- إن لم تكن من المستحيلات- الوصول إلى فكّ التشابك الواقع بين النصوص، وفصله بصورة واضحة «إن النصّ بذلك ليس إبداعاً/ خلقاً من حيث المبدأ على الإطلاق، بالنسبة له يفتقر فقط إلى كفاءة لغوية تتصور عالم النص مستقلا؛ بل إن كلّ نصّ وكلّ فكرة، آخر الأمر ليس (أو ليست) إلا عنصرا في العالم الكلي للنص والخطاب.

هذا التشابك للنصوص بعضها مع بعض اندرج الآن في النقاش تحت عنوان التناص»[٤]، وبعبارة أكثر وضوحاً «نستطيع أن نقول : إن التناص هو أحد مميزات النص الأساسية، التي تحيل إلى نصوص سابقة عليه، أو معاصرة له، وعلى هذا فان النص ليس انعكاسا لخارجه، أو مرآة لقائله، أنها فاعلية المخزون التذكري لنصوص مختلفة، هي التي تشكل حقل التناصّ، ومن ثم فالنص بلا حدود، وله خاصية التعالق مع النصوص الأخرى»[٥] ، وقد يحتاج الباحث المشتغل في ميدان (التناص) إلى ثقافات متعددة ومواهب رافدة في سبيل تحقيق نجاح أكبر وتشخيص أكثر دقّة، فـ«إذا كانت ملامح التناص في ظاهر بعض النصوص واضحة من خلال جملة معطيات لسانية مرئية؛ فإنّها في كثير من الأحيان تكون غير ظاهرة؛ ولذلك جمع الباحث

---

[١] الخطيئة والتكفير، عبد الله الغذامي: ٩٠.

[٢] ينظر: اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي، د. أحمد محمد قدّور: ١٣٠ – ١٣١.

[٣] أشكال التناص وتحولات الخطاب الشعري المعاصر، حافظ المغربي: ٢٥.

[٤] لسانيات النص، عرض تأسيسي: ٢٠٠.

[٥] التناص التراثي (رسالة ماجستير)، زهرة خالص: ٧.

بين أفق التوقع والتناص»[١]، وقد جعل بعض الباحثين (التناص) شرطاً لقيام كلّ نص، وهو يلازم المبدع مهما كان شأنه ؛ فلابّد لأي نصّ أياً كان نوعه من أن يعتمد على نصّ سابق يحاوره ويقيم معه علاقة، فالمبدع لا يستطيع أن يبدع نصّاً إلا باعتماده على ما استقر في وعيه، وما حفظته ذاكرته من نصوص سابقة، ومن مخزون ثقافي[٢]، بل نجد الذائقة الأدبية المعاصرة عند المتلقي لا تعدّ المنتج الأدبي: نثرا، أو شعراً- رصيناً؛ إلا إذا تمثل فيه : بأي قرآني كريم، أو حديث نبوي شريف، أو مثل، أو مقولة قديمة. بل إذا حاز على أحد تلك الاقتباسات كان أكثر رصانة من غيره؛ ولاسيما إذا استعملناه بتوظيف حسن.

ويقسم التناص على تناص داخلي يحدث في نصوص المقابسات نفسها، وتناص خارجي بين نصوص المقابسات والمنتج النّصّي الذي يكتنف المؤَلِف؛ ونظراً لسهولة الوصول إلى التناص الداخلي ارتأينا تكثيف البحث في هذا الفصل على التناص الخارجي الذي تتشعب سبل الوصول إليه وتستدق.

---

[١] لسانيات النص، أحمد مداس: ٧٣.

[٢] ينظر: التناص التراثي: ٩٣.

التناص في المقابسات:

التناص مع الدين:

الإسلام هو الدين عند الله (جل جلاله)، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ﴾ [آل عمران:١٩].

ونظراً لانتماء التوحيدي إلى بيئة تُدين بسوادها الأعظم بالإسلام؛ فقد مال في غالبية التناص الذي ورد في مقابساته مع القرآن الكريم إلى عدم ذكر النص القرآني صراحة وإنما اقتباسه، فـ «أمّا الاقتباس فهو أن يُضَمِّنَ الكلام شيئاً من القرآن أو الحديث لا على أنّه منه»[١] لقد رُفِدَ أساطين البلاغة العربية قبل الإسلام بمعين لا ينضب ومع مجيء الإسلام المبني على كلام الله (جل جلاله) المقدس في قرآنه العظيم الذي إنماز عن سائر الكتب السماوية بحفظه وصيانته من التحريف، أو أن يُطمس جزء منه؛ يعضده ويسير على نهجه كلام سيد الضاد وأفصح من نطق بها (صلى الله عليه وآله) ، وبعده كلام سيد البلغاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليهما السلام)، وهكذا أصبح من غير المعقول على أديب أن يَبريَ يراعه دون أن يغترف من معين الإسلام أو ينسج على منواله أو أن يتناص منتجه مع ما جاء به الإسلام من منتج في نصوص مختلفة المشارب كما أسلفنا. وفي هذا الصدد يقول الثعالبي : «لم يتعرض لمعارضة القرآن منطيق مِدْرَةٌ، ولا شاعر مصقع إلا ختم على خاطره وفنه، وإنما قصارى المتحلين بالبلاغة، والحاطين في حبل البراعة أن يقبسوا من ألفاظه ومعانيه في أنواع مقاصدهم، أو يستشهدوا ويتمثلوا به في فنون مواردهم ومصادرهم، فيكتسي كلامهم بذلك الاقتباس معرضا ما لحسنه غاية، وماخذا ما لرونقه نهاية، ويكسب حلاوة وطلاوة ما فيها إلا معسولة الجملة والتفصيل، ويستفيد جلالة وفخامة ليست فيها إلا مقبولية الغرة والتحجيل»[٢].

---

[١] الإيضاح في علوم البلاغة: ٤٢٦.

[٢] الاقتباس من القرآن الكريم، الثعالبي: ٣٩/١.

التناص مع القرآن الكريم:

لبلاغة القرآن الكريم وروعة أسلوبه ورفعته أثر كبير على ساحة الثقافة العربية وبمستوياتها كافة، وعلى كثرة روادها وتعدد تخصصاتهم يغترف كل منهم على قدر مشاربه وملكته العلمية والأدبية والمعرفية.

وقد شاع التناص القرآني في مقابسات التوحيدي شيوعاً كبيراً، وكان بمجمله كما أسلفنا تناصاً غير ظاهري كما جاء في قوله: «**وكان بعض أصحابنا في الوراقين ببغداد يضرب في هذا مثلا زعم أن مثال الحس في هذا كامرأة حسناء متبرجة، ذات وقاحة وخلاعة، قد جلست إلى شاب طرير له شطر جمالها وعليه مسحة من حسنها، تخدعه بحديثها، وتراوده عن نفسه لنفسها، وتبدي له محاسنها، وتطمعه في الاستمكان منها**»[١]، وأجواء هذا النصّ تقترب كثيراً من قصة نبي الله يوسف (على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام) حتى نجد كلمات من النص القرآني قد حطت رحالها فيه كما في قوله: (تراوده عن نفسه)، فهو شطر الآية الثلاثين من سورة يوسف: ﴿وقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾، ويقول في موضعٍ آخر من المقابسة نفسها: «وتحثه في قضاء اللذة والوطر منها»[٢]، وهو كلام قد نسج على منوال قوله تعالى: ﴿ولَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾[الأحزاب:٣٧]، ومما يلحظ تأثر اسلوب مقابسات التوحيدي بالعبارة القرآنية، وكما هو الحال في قوله:«بالقسطاس المستقيم»[٣]، وهو تركيب شهير في القرآن الكريم توخَّت فيه العبارة القرآنية غاية الدقة، فالقسطاس هو القَبان[٤]، ومن صفاته العدالة والوزن الحق ومع ذلك وصف بالاستقامة وفيه إلماح إلى أن البعض لا يفي الكيل قال تعالى: ﴿وأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا

---

[١] المقابسات، المقابسة الثانية والأربعون: ١٤٨.

[٢] نفسه: ١٤٨.

[٣] نفسه، المقابسة الرابعة والأربعون: ١٥٦.

[٤] ينظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي: ٣١/٦.

كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الأسراء : ٣٥]، وكذا في قوله تعالى: ﴿وزِنوا بالقسطاسِ المستقيم﴾ [الشعراء :١٨٢].

وفي مقابسةٍ آخرى يستعير التوحيدي البضاعة المادية إلى الفكرة التي هي معنوية: «**ولولا أن بضاعتي في هذا الفن مزجاة، وعبارتي عنه منقطعة، لكان ما يعقل من ذلك ويستبان أبين مرأى، وأحلى مسمعاً**»[١]، وهذا تناص مع قول أخوة يوسف (عليه السلام) في قوله تعالى: ﴿فلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨] ، وقد كان يطيب للتوحيدي التناص مع العبارة القرآنية كلما سمح له المقام بذلك حتى ولو تحصل له ذلك بكلمة أو كلمتين، كما نجده في قوله: «**ويكون سعيه مقصوراً على التزود إلى مبوأ صدق**»[٢]، وقد ورد قوله: (مبوأ صدق) في قوله تعالى: ﴿ولَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ﴾ [يونس: ٩٣].

ولعل من أكثر ما جاء من تناص مع القرآن الكريم تطابقاً، في قوله:«**هو الأول والآخر، والظاهر والباطن**»[٣]، الذي يتناص مع قوله تعالى: ﴿هو الأولُ والآخرُ، والظاهرُ والباطنُ﴾[الحديد: ٣٠]، ومثله قوله: «**هذا والله الحكمة وفصل الخطاب**»[٤]، قال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾[ص: ٢٠]، وكذا قوله: «**كالنجم إذا هوى**» [٥]، قال تعالى في أول سورة النجم: ﴿والنجم إذا هوى﴾ ، وكذلك في قوله : «**لعب ولهو**»[٦]؛ قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾[الانعام: ٣٢]، وقد ورد هذا التركيب أيضاً في مواضع أخرى من آيات الذكر الحكيم[٧].

---

[١] المقابسات، المقابسة الخامسة والأربعون: ١٥٩.

[٢] نفسه، المقابسة السادسة والأربعون: ١٦٦.

[٣] نفسه، المقابسة الثانية والستون: ٢٠٨.

[٤] نفسه، المقابسة السابعة والثمانون: ٢٦٠ – ٢٦١.

[٥] نفسه، المقابسة الثالثة بعد المائة : ٣٤٨.

[٦] نفسه، المقابسة السادسة بعد المائة: ٣٧٥.

[٧] كما في سور: العنكبوت: ٦٤، ومحمد: ٣٦، والحديد: ٢٠.

ويشيع التناص مع القرآن الكريم في مقابسات التوحيدي بصورة جليّة وواضحة، وعلى كثرة المواضع فقد اكتفينا منها بهذا المقدار الذي عالجناه.

التناص مع السُّنّة النبوية الشريفة:

وليس ببعيد من التناص مع القرآن الكريم، كان التناص مع السنة من كلام المعصوم، إذ يقول: «**ارحم نفسك قبل أن تسترحم غيرك**»[١] يقترب من قول رسول الله (صلى الله عليه وآله): «ارحم نفسك، وارحم خلق الله يرحمك الله»[٢].

ويقول في موضع آخر: «**من أراد أن يجود على الناس كلهم فلينو لكلهم خيرا**»[٣]، ويتناص هنا مع حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله): «إنّما الاعمال بالنيات»[٤].

وقوله: «**نحن نقضى ما علينا، ونجتهد بما لدينا، ويجري الدهر بما شئنا أو أبينا**»[٥]، **أبينا**»[٥]، وفي كلامه إشارة إلى الحتمية التي تنتظر مصير الإنسان: «إن الدهر يجري بالباقين كجريه بالماضين ما يعود ما قد ولى و لا يبقى سرمدا ما فيه آخر فعاله كأوله متسابقة أموره متظاهرة أعلامه»[٦].

ومنه أيضاً قوله: «**فاتحة السعي في طلب المولى الاستغناء عن جميع من هو دون المولى**»[٧]، وكذا في قوله: «**إذا سعد العبد بوصال مولاه على الحقيقة فقد صارت دنياه آخرته، وموته حياته، وفقره غناه، ومرضه صحته، ونومه يقظته، وضعفه قوته، وهمّه فرحه. وإذا شقى بالحجب عن مولاه فقد انقلب الأمر بالضد**»[٨] الذي يتناص مع قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام): «كيف يدعي حب الله من سكن قلبه حب

---

[١] المقابسات، المقابسة الثانية والستون: ٢١٤.

[٢] كنز العمال، المتقي الهندي (حديث ٤٤١٥٤): ١٦/١٧٧.

[٣] المقابسات، المقابسة السبعون: ٢٣٧.

[٤] بحار الأنوار، المجلسي: ١٠٤/١٠٩.

[٥] المقابسات، المقابسة الثامنة والخمسون:١٩٤.

[٦] ميزان الحكمة – الريشهري (رقم الحديث ١٢٧١): ٢/ ١٠٨.

[٧] المقابسات، المقابسة التسعون: ٢٧٤.

[٨] نفسه: ٢٧٨.

الدنيا؟ كيف يأنس بالله من لا يستوحش من الخلق؟»[١].

التناص مع الشعر:

ويتناص في مواضع كثيرة من مقابساته مع كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليهما السلام)، ومن ذلك مثلاً: «**واعلم، في الجملة، انك داؤك، ولكن فيك دواؤك**»[٢] وهذه الفكرة مأخوذة من قول أمير المؤمنين:

دواؤك فيك وما تشعرُ ... وداؤك منك وما تُبصرُ

وتحسب أنك جرمٌ صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبرُ[٣]

ونلاحظ كيف حصل التناص مع تقديم العجز على الشطر في البيت الأول.

وقال في وصف نوعٍ من الأصدقاء: «**وغاشٍّ في جلباب نصيح، وعدو في ثياب صديق**»[٤]، ويتناص في قوله هذا مع ما قاله المتنبي:

وَمِنْ نكدِ الدنيا على الحُرِّ أن يرى ... عَدواً لهُ ما مِنْ صداقَتِهِ بُدُّ[٥]

---

(١) عيون الحكم والمواعظ، علي بن محمد الليثي الواسطي: ٢٥٩.

(٢) المقابسات، المقابسة الثانية والستون: ٢٠٧.

(٣) ديوان الإمام علي (عليه السلام): ٥٧.

(٤) المقابسات، المقابسة السادسة بعد المائة: ٣٧٦.

(٥) شرح ديوان المتنبي، البرقوقي: ٩٣/٢.

الفصل السابع

الإعلامية

الإعلامية من منظور لسانيات النص:

تُعدّ (الإعلامية Informativity) أهم محور يحرك عملية التواصل، وهي توقع الاحتمالات الممكنة في نص ما، وهي أشبه بذراع النص الخفي الجاذب لمتلقيه، فالإعلامية «هي العامل بالنسبة لعدم الجزم (Uncertainty)، في الحكم على الوقائع النصية، أو الوقائع في عالم نصي (Textual) في مقابلة البدائل الممكنة، فالإعلامية تكون عالية الدرجة عند كثرة البدائل، وعند الاختيار الفعلي لبديل من خارج الاحتمال، ومع ذلك نجد لكل نص إعلامية صغرى على الأقل تقوم وقائعها في مقابل عدم الوقائع (Non-occurrences)[١]، ويعد معيار الإعلامية مهماً جداً في تحفيز التواصل بين النص والمتلقي، وجعله أكثر تشويقاً، ومن المحتمل أن يؤدي ضعف الإعلامية بوجه خاص إلى الارتباك، وإلى الملل بل إلى رفض النص في بعض الأحيان[٢].

فضلاً عن كونه – أي الإعلام– أحد معايير النصية إلا أنه يمثل العامل المؤثر بالنسبة لعدم الجزم في الحكم على الوقائع النصية في مقابل الوقائع الممكنة، والواقع أن كل نص يحمل مجموعة من المعلومات، بغض النظر عن نسبية تركيز تلك لمعلومات فيه من عدمها[٣].

ويرى الدكتور إلهام أبو غزالة أن مصطلح (الإعلامية) يستعمل للدلالة على ما يجده مستقبلو النص في عرضه من جدة وعد توقع، وفي العادة تطبق هذه الفكرة على المحتوى وإن يكن من الممكن توافر الإعلامية في وقائع أي نظام من أنظمة اللغة؛ وإنما يعود التوكيد على المحتوى إلى الدور المهيمن الذي يقوم به التقارن... في النصية في حين تبدو الأنظمة اللغوية من مثل الفونيمات أو النحو أنظمة ثانوية مساعدة، ولذا فهي أقل وقوعاً منه في بؤرة الاهتمام

---

(١) ينظر: النص والخطاب والإجراء:١٠٥.

(٢) ينظر: مدخل إلى علم لغة النص، إلهام أبو غزالة: ٣٣.

(٣) ينظر: المصطلحات الأساسية في لسانيات النص: ٨٨، وعلم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق – الخطابة النبوية أنموذجاً (بحث)، د. نادية رمضان: ٢٨٥.

المباشر[١]، في حين عرف الاهتمام الوارد بقوله «يمكننا الاهتمام-هنا- بأنه إنفاق الموارد المعالجة يحد من الطاقة المبذولة للمهمات الأخرى في الوقت نفسه؛ ولذا وبناء على ذلك يؤدي تركيز الاهتمام على تقارن المفاهيم والعلاقات إلى حرمان الأنظمة الأخرى من البروز إلا إذا تمت معالجتها بطرق بالغة الخروج على المألوف»[٢]، ويؤكد دي بوجراند على تعدد الاحتمالات صار من غير الممكن الجزم في الحكم على الوقائع التي يحملها نص ما[٣]، في حين أكد على عدم إمكان المرء أن يرتب الأشياء ترتيباً بعينه المجرد توقع مصادفتها، أو عدم توقعها في أية لحظة[٤].

إن موضوع الإعلامية- وكما مر بنا – هو مدى التوقع الذي تحظى به وقائع نص ما في مقابل عدم التوقع، ولنضرب لذلك مثلين لنلتمس مقدار الإعلامية فيما بينهما، والحوار يدور بين الوحدة الميدانية لصيانة الهواتف ووحدة السيطرة المركزية في مقرها الرئيس:

المثال الأول: (استدعونا قبل مباشرة الحفر، فقد تعجزون عن ذلك فيما بعد)، فإن القول بأنكم: (تعجزون عن ذلك فيما بعد) يعد أكثر ابتعاداً عن التوقع من نظيره في المثال الثاني: (استدعونا قبل مباشرة الحفر، فقد ينطوي العمل على قطع سلك التوصيل تحت الأرض، وإذا قطع هذا السلك فإنكم لن تفلحوا في استعمال الهاتف وربما أصابتكم صدمة كهربائية حادة، وعندئذ لن تقدروا على استدعائنا البتة).

إن معالجة الوقائع ذات الإعلامية المرتفعة في المثال الثاني تتطلب بذل جهد أكثر مما موجود في المثال الأول، بيد أنها أكثر إمتاعاً منها، وفيها لمسات بلاغية تخاطب الذوق الأدبي والعقل معاً على حد سواء وعلى المرسل أن يلتزم جانب الحيطة والحذر وتجنب الالتباس كيلا تنوء قدرة المستقبلين على معالجة المعلومات بالعبء إلى حد تعريض التواصل اللغوي للخطر[٥]، وعلى هذا تتواقف القيمة الجمالية والبلاغية لنص ما مع قيمته الإعلامية وارتفاع نسبتها فيه يؤدي إلى ارتفاع نسبة الإعلامية.

ولنا أن نسأل عن مصادر التوقع إزاء نص ما فمن أين يستمد المتلقون وسائل التوقع؟

---

(١) ينظر: مدخل إلى لغة النص، إلهام أبو غزالة: ١٨٣.

(٢) نفسه: ١٨٣.

(٣) ينظر: النص والخطاب والإجراء: ١٠٥.

(٤) ينظر: نفسه:٢٧٥.

(٥) ينظر: مدخل إلى علم لغة النص، إلهام أبو غزالة: ٣٢-٣٣.

وهل لهذه المصادر جذور راسخة في الواقع الاجتماعي اللغوي والتواصلي؟ لقد تصدى الدكتور إلهام أبو غزالة وعلي خليل للإجابة على مثل هذا السؤال إذ يذهبان إلى وجود استراتيجيات يطبقها متلقو النص فيه هذا السبيل، وهي كالآتي:

أولاً: ما يقوم به وعيهم من إدراك وتنظيم للعالم الواقعي، وهذا هو الإنموذج الاجتماعي الشائع للموقف البشري وبنيته وتعتبر القضايا التي نعتبر صحتها في ذلك العالم، أي مضاهاة تنظيمها بتنظيمه عند بلوغ عتبة ما من بين الحقائق، وعليه فإن الحقائق التي يميل شخص ما أو مجموعة ما إلى عدها قابلة للتطبيق عموماً على حادث أو موقف واقعيين أو قابلين للاسترجاع هي ما يؤلف معتقدات ذلك الشخص وتلك الجماعة من الناس، وعليه يكون العالم الواقعي هو المصدر المفضل للمعتقدات التي يقوم عليها الاتصال بالنصوص، وبالطبع يمكننا إنتاج كثير من النصوص التي لا تعد حقيقية من هذه الجهة، واستقبال تلك النصوص-أيضاً- غير أن لدينا ميلاً إلى اتخاذ العالم الواقعي نقطة توجه في انطلاقتنا.

ثانياً: ويعد التنظيم الخاص للغة التي يستعملها النص مصدراً آخرَ للتوقعات، في حين تتصف كثير من قواعد تجميع الأشكال في اللغة العربية بأنها قواعد اعتباطية، أي أن تنظيم الحوادث والمواقف لا ينعكس على نحو مباشر في تنظيم اللغة، وتدفع هذه القواعد المتكلمين إلى اعتبار بعض التكتلات الصوتية أشياء غير قابلة للنطق وذلك لخلو اللغة منها، ومن أمثلتها إن متكلمي العربية لا يحاولون النطق بتكتلات من مثل: (إلخ)، (صلعم)، (رض) كما هي مكتوبة، ولكن يميزون فيها على الفور اختصارات لأشكال أطول ذات أنماط صوتية أكثر ملاءمة.

ثالثاً: ومن مصادر التوقعات استنادها إلى أساليب ترتيب التتاليات بحسب إعلامية العناصر أو مجموعات العناصر، ويتضح ذلك كما في المنظور الوظيفي للجملة، والتنغيم، بصفتهما وسيلتين للإشارة إلى ما يعد جديداً أو مهماً أو غير متوقع بضمن التراكيب، أو المجموعات النغمية.

رابعاً: ومصدر آخر للتوقعات هو نوع النص، فأنواع النصوص أطر كلية تضبط مدى الخيارات المحتملة الاستعمال.

خامساً: والأخير في مصادر التوقعات هو السياق المباشر الذي يرد النص ويستغل فيه، وإذا كان بوسع التحقيق أن يتغلب على التنظيم العرفي للنظم الافتراضية، فإن من الممكن أن

يجري هذا المصدر عندئذ تعديلات على التوقعات المستندة إلى المصادر السابقة الأخرى، وقد استعملت فكرة الأسلوب لتعكس الفرض القائل إن ميولاً خاصة للاختيار تتجلى في نص مفرد أو في مجموعة من النصوص، وبذلك يتمكن مستقبلو النصوص من توقع أن تكون بعض أنواع الوقائع ذات نصيب أكبر من السيادة والتكرار حين تقاس إلى غيرها من الوقائع.

وهنا لابد من الإشارة إلى أن النصوص الشعرية والأدبية –وكما هو الحال مع المقابسات – تمتاز بانتزاع اهتمام خاص بأساليبها وهو ما يفرض على المنتجين إنفاق قدر ملحوظ من الانتباه والعناية على إجراءات الاختيار، غير أنه من الممكن إحداث زيادة في الإعلامية أحياناً عند خروج المرء على أسلوبه الثابت الخاص به، ولكن حذارِ، فإن الإكثار والتشدد في هذا الاتجاه يمكن أن يدخل من الإرباك في أذهان المستقبلين ما يجعلهم عاجزين عن استغلال النص واستيعاب الوقائع المفاجئة التي طرأت على أسلوب منتج النص[١].

(١) ينظر: مدخل إلى علم لغة النص، إلهام أبو غزالة: ١٩٣ – ١٩٧.

الإعلامية في المقابسات:

ولنأخذ الآن أمثلة تطبيقية من المقابسات لنتبين مدى احتوائها على الإعلامية وقيمتها فيها، ومن ذلك مثلاً: ما ورد في المقابسة قوله: «**سمعت الأنطاكي أبا القاسم، وكان يعرف بالمجتبى، يقول: الأسباب التي هي مادة الحياة هي في وزن الأسباب التي هي جالبة للموت**»[١]، إنّ وصف الأسباب الجالبة للحياة والموت بالمتوازنة في الوجود كلامٌ بديهي، وقيل بأسلوب سهل ويسير فضلاً عن كونه متضام ومتقارن، وهو بذلك لا يحتوي على إعلامية كبيرة، فالمتلقي يتوجه إلى جوهر المعنى المراد بطريق مباشر ومن دون إعمال للفكر كبير في تعدد الاحتمالات الممكنة، وبذا صار من الممكن الجزم على الوقائع التي يحملها النص، ولكننا إذا أكملنا النص فإنه يرد بعد ذلك مباشرة ما نصّه: «**قيل له: فلم كان الموت على هذا أولى بالإنسان من الحياة؟**»[٢]، ومع أن هذا السؤال لا يخرج عن طبيعة أسلوب المقابسة فضلاً عن الكتاب بمجمله إلا أن محتواه يفصح عن قيمة إعلامية كبرى؛ إذ يفتح المجال أمام كثرة البدائل والاحتمالات التي لا حصر لها.

ولو قارنا بين قوله الأول وجوابه الأخير فهو قد أقر بأن أسباب مادة الحياة والأسباب الجالبة للموت بالوزن نفسه أي متساوية، ولكن إذا سلمنا بذلك فما الذي يجعل لأحد المتساويين في أمر مشترك ما أن يتفوق ويظهر على شريكه فهذا التفوق والظهور أصلاً يتنافى مع النسبة المتساوية التي قررها في أول كلامه.

ثم يسرد بعد ذلك مسوغات يراها صائبة في كون الموت أولى بالإنسان من الحياة: «**فقال: لأن الموت طبيعي، وكل طبيعي لا محيص عنه. وإنما أطلقنا الكلام الأول لأنّك ترى من نجا من الموت بشيء وقع به غيره في الموت، وتجد من تخلص إلى الحياة بشيء به وقع غيره إلى الموت فلو استطيع حصر هذه الأبواب لوجد ما به يموت من يموت في عدد ما به يحيى من يحيى. ثم قال: وها هنا موت طبيعي معترف به في مقابلته حياة طبيعية. وهكذا أيضاً ها هنا موت عرضي وفي مواجهته حياة عرضية، فالموت الطبيعي قد**

---

(١) المقابسات، المقابسة الثامنة : ٨٧.

(٢) نفسه: ٨٧.

قامت به الشهادة من الكافة. فأما الحياة الطبيعية فحياة العقل بالعقل. والموت العرضي الجهل الشائع في الانسان فأما الحياة العرضية فحس الإنسان وحركته بسلامة بدنه وسكون أخلاطه، وقوة طبيعته، وتصرف سائر ما هو مركب من جهته. ثم قال: ومن فتح الله بصر عقله ولحظ هذه الحقائق، ترقى في درجات المعارف وسلاليم الفضائل، وانتهى إلى أفق الروح والراحة، ونجا من هذه المعادن التي هي معادن العطب والتلف ومساكن الآفات والهلاك»[١]، ونجده – ها هنا – لم يدّخر جهداً في محاولة إثبات رأيه الذي بدأ به، ولكن لكل نص حظه من الإعلامية، فمهما يكن نصيب الشكل والمحتوى من التوقع فإنه لا مندوحة عن وجود بعض الوقائع المتغيرة التي يتعذر التنبؤ بها بحذافيرها، فعلى سبيل المثال: ماذا يقول في أن الخلود للحياة وليس للموت، وهذا مآل بني آدم فيصبح الموت على ضوء ذلك عرضاً عابراً لا تكاد تنهض به نسبته أمام النسبة الهائلة للمقدار الزمني للحياة!

وننتقل إلى المقابسة التاسعة، فيقول فيها: «**سأل أبو محمد الأندلسي النحوي عيسى بن علي الوزير، وأنا عنده فقال: لم قال صاحب كل علم ليس في الدنيا أشرف من علمي الذي أنظر فيه؟ هكذا نجد الطبيب والمنجم والنحوي والفقيه والمتكلم والمهندس والكاتب والشاعر. قال: وأنا، لمكاني من النحو أقول هذا القول، وهكذا أجد من سميت**»[٢]، فنجد أن النص قد توافر على قيمة إعلامية متاحة، ولكن إذا مضينا مع الجواب سنجده كيف يرتقي النص بالقيمة الإعلامية: «**فقال الشيخ عيسى بن علي: هذا لأن صورة العلم في كل نفس واحدة، فكل احد يجد تلك الصورة بعينها، فيمدح العلم بها، ويظن أن تلك الصورة إنما هي لعلمه وحده، وكذلك صاحبه وتلك، أطال الله بقاك، صورة العلم الأول. فأما إذا قسمت العلم كما قسمه أبو زيد أحمد بن سهل البلخي الفيلسوف في كتابه أقسام العلوم، وتتبعت مراتبه فإنك تجد حينئذ علماً فوق علم، بالموضوع أو بالصورة، وعلماً دون علم بالفائدة والثمرة. وهذا المعنى الذي أشير إليه يصح لك لو فرضت نفسك عالمة بكل شيء، فكنت حينئذ لا يحضرك علم دون علم بل كنت تطلع على جميعه بنوع الوحدة مع اختلاف مراتبه من نواحي مواده وصوره**

---

(١) المقابسات، المقابسة الثامنة: ٨٧ – ٨٨.

(٢) نفسه: ٨٨.

وفوائده وثمره، وكنت تجدها كلها واحدة. لأن حد العلم كان يشتق من كل فن منها على ما هو به من غير خلل عارض ولا فساد واقع»[١]، **فقد اغترف هذا الشيخ من البدائل والاحتمالات المتاحة فجاء بجواب جديد لسؤال ربما كان عابراً في كثير من مجالس العلماء وحلقات دروسهم، وقد أقر الأندلسي بالقيمة الإعلامية هذه إذ يقول له: «قد كنا، أيها السيد، نترامى بهذه المسألة تحقيراً لها، وامتهاناً لقدرها، وفيها هذا الجواب الذي لو رحل إليه من قطر شاسع، أو غرم عليه مال دثر، لكان ذلك دون حقه. وما أكثر ما يحقر الشيء فيصير صلة لشيء لا يحقر. لولا أن عمري استهلكه النحو لكنت ألبس لهذا العلم صدار المنكمشين، واصبغ به نفسي صبغة المتحققين»**[٢]، ونمضي إلى مقابسة جديدة يقول فيها: «**قيل لأبي سليمان: كيف يفعل العاقل اللبيب، والحازم الأريب، ما يندم عليه؟ وكيف يقدم على ما يعقبه تَبِعَةً، ويأتي ما يأباه بعقله، ويكرهه بدينه، ويعافه بمروءته، وينكره بعادته، ويمنع منه غيره بنصيحته، هذا مع اختياره الذي هو إليه، واستطاعته التي هي حاصلة لديه، ومع عقله الذي هو كاللجام والزمام، والقاضي والإمام؟**»[٣].

وقبل أن نمضي مع الجواب يأخذنا السياق إلى شيء من المفارقة، فلدينا أصلاً(عاقل لبيب، وحازم أريب)، وهذه صفات تنأى بصاحبها عن كل سوء ومثلبة؛ ولكن هنا المفارقة يصدر عن هذا العاقل ذي الصفات الحكيمة ما يأباه العقل، وهنا نقول: كيف يجتمع العقل مع ما يأباه؟ وهل بعد اجتماع النقيضين صلاح وفي أي أمر؟

ولابدَّ من الإشارة – هنا – إلى أنّ هذه المفارقة تقوم بعمل كبير في محرك أساس لإفراز البدائل الممكنة والاحتمالات المتوقعة للنص في محتواه بينما تتصف كلمات المحتوى بأنها أكبر إعلامية بوجه عام حين تحتوي على الشيء ونقيضه مع وجود مسوغٍ ما يعضد ذلك، ففي الواقع نجد هذا الاجتماع للنقيضين وعلى الرغم من تعارضهما، وهذا ما يؤكده الواقع والمخزون الجمعي للمجتمع بوجه عام فضلاً عن إمكانية استشهاد أفراد الجماعة الاتصالية ذاتها بأمثلة

(١) المقابسات، المقابسة التاسعة: ٨٨ – ٨٩.

(٢) نفسه: ٨٩.

(٣) نفسه، المقابسة التاسعة والثلاثون: ١٤١.

واقعية يتقبلها الوعي العام لها ويقر بصحتها.

ولنتتبع قوله في مقابسة جديدة: «**قلت لأبي سليمان يوماً: لِمَ لمْ يصْفُ التوحيد في الشريعة من شوائب الظنون، وأمثلة الألفاظ كما صفا ذلك في الفلسفة؟ وقد سمعناك تذكر غير مرة: ان الشريعة، إذا كانت حقاً لا تكون كذلك إلا بقوة إلاهية**»[١]، وعلينا أن نستذكر – هنا – أن كتاب المقابسات قد وضع للنخبة من العلماء والفلاسفة، ولم يوضع للعامة من الناس، ونريد الإقرار على هذا الحال، على أنه لو كان الكلام موجه إلى العامة – أصلاً – لأسهم ذلك في رفع القيمة الإعلامية للنص، ولكن حين وجه كلامه إلى الفلاسفة فإن هذا من ديدن القوم وآلاتهم التي بها يحترفون ولاسيما أن من طرح السؤال هو أحد فلاسفة زمانه ألا وهو أبو حيان التوحيدي وقد أجاب عنه أستاذه في هذا الفن وهو أبو سليمان، فنقول هنا إن القيمة الإعلامية للنص تبلغ حد الذروة مع إكمال بقية النص: «**فقال في الجواب: قد قلنا مراراً في المذاكرات التي سلفت، والمعاني التي صحّت وعرفت، أن الكلام الذي يراد به استصلاح العامة واستجماع الكافة، لابد من أن يكون مرة مبسوطاً، ومرة موجزاً، ومرة مستقصى الإيضاح والإفصاح، ومرة مجموعاً بالرمز والتعريض، ومرة مرسلاً على الكناية والمثل، ومرة مقيداً بالحجج والعلل، وعلى فنون كثيرة لا وجه لاستيفائها. إذا بان المراد في عرضها وأثنائها، وإذا استقر فبالواجب كان جميع ما يحويه الشرع من هذا الضرب ليجد الخاصيّ فيه إشارة تشفيه، والعامي عبارة تكفيه. فقال بعض الغرباء: قد وجدنا للأوائل في التوحيد كلاماً كثيراً متفاوتاً، ولم نجد صفا لهم أيضاً ما كدر على غيرهم، وهذا يدل على أن ما ينطق به الناموس قريب مما يسنح في النفوس. فقال له: إنّا لا نظن أن كل من كان في زمان الفلاسفة بلغ غاية أفاضلهم، وعرف حقيقة أقوال متقدميهم، بل كان في القوم من رأى رأي العامة، وحط إلى ما حطت إليه، ولم يبن منهم بكبير شيء، مع تقدم الزمان، ولقاء المحقين الفاضلين**»[٢]، وهكذا تصاعد النقاش في النص حتى استشكل بعض الحاضرين من أهل الفلسفة على أبي سليمان ليصل الحوار إلى القول الأخير في النص (فقال: إنّا لا نظن أنّ كل من كان في زمان

(١) المقابسات، المقابسة الثالثة والستون: ٢١٧.

(٢) نفسه: ٢١٧ – ٢١٨.

الفلاسفة... إلخ)، فهذا المحتوى الذي حمله النص فتح الباب على مصراعيه للبدائل والاحتمالات التي تتضافر مع النص لتبلغا معاً الغاية القصوى في حيز التواصل اللساني بين طرفي عملية التواصل المرسل، والمرسل إليه.

وهكذا يتبين لنا أهمية الأثر الذي يقوم به السياق الاتصالي بالقياس على كل من القصد والقبول، وحقاً انّ الموضوع أكبر كثيراً مما تنطوي عليه مقارنة الجمل بعلم قواعد شامل الغايات وأهداف النص ما دامت تلك البدائل والاحتمالات الممكنة تنطلق من طرف أول يمثله النص، وتنتهي بطرف ثانٍ يمثله ثقافة المتلقي وميوله الدينية، والاجتماعية، والسياسية... إلخ.

خاتمة البحث، ونتائجه

في خاتمة البحث أقول: إنّ عملنا جاء محاولة في مجال تطبيق دراسة اللسانيات النصية على المنتج اللغوي العربي، ولاسيما التراثي منه؛ للخروج بأوفر النتائج من شَقّي العملية البحثية من جهة لسانيات النص، ومن جهة الموروث اللغوي العربي؛ في محاولة فهمه أكثر، وتحقيق أعلى درجات الفائدة منه.

وقد سجلنا مجموعة من النتائج، هي:

- هناك مؤشرات أكيدة على أنّ التوحيدي لم ينقل إلينا النصوص عن غيره نقلاً حرفياً بل تصرف فيها بالزيادة والنقصان والتصحيح لأغراض علمية وأخرى أدبية حتى طبعها بأسلوبه الخاص الذي ميّزه من غيره، فصيّر الكلام الفلسفي المستغلق كلاماً أدبياً رائقاً مستساغاً، ونجد مثل هذه الإشارة في مواطن كثيرة من كتاب المقابسات، نذكر منها قوله في المقابسة الحادية والتسعين: «**قد مَرَّت في هذه المقابسة التي تقدمت فنونٌ من الحكمة، وأنواعٌ من القول، ليس لي من جميعها إلا حظّ الرواية عن هؤلاء الشيوخ، وإن كنت قد استنفدت الطاقة في تنقيتها، وتوخي الحق فيها، بزيادة يسيرة لا تصح إلا بها، أو نقص خفي لا يبالى به**»[(١)].
- توصّل البحث إلى وضع تعريف للمقابسة، هو: المقابسةُ هي أَخذٌ يسيرٌ مستفادٌ من العِلمِ من محاورات طويلة تعجُّ بها مجالسُ العلماء التي كان يحضرها التوحيدي ويشترك فيها، وكذلك فإنَّ التوحيدي لم يُسبق بهذا اللون من النثر، ولم يكتب أحد على منواله من بعده، وتقع المقابسات في ضمن النثر إذ تنماز فنونه بالبلاغة، وحسن الصياغة، وكذلك فإنّ المقابسات حديثٌ بليغٌ يتداخلُ فيه الوصف مع الحوار والنقاش الذي انمازت به.
- في تطبيقنا لآليات السبك على مقابسات التوحيدي وجدنا أن هذه الأدوات، والوسائل تسهم إلى حدٍّ بعيد في تماسك النص وتحقيق النصية فيه.
- ساعد التحديد في تحقق الخاصّية النصّية، بفضل أدوات التعريف التي تتقدّم العبارات المتضمنة دلالات على ما سبق ذكره من الألفاظ، التي تكون في أول ورودها في النص

(١) المقابسات: ٢٨٢.

نكرات، وإن كانت في قوالبها اللفظية معارف.

- أسهمت الإحالة التي حقّقتها الألفاظ الكنائية في نصوص المقابسات، سواء أكانت مشتركة (داخل النصّ)، أم إحالات على المقام (خارج النصّ) في ترابطه على المستوى الدلالي، وخلقت نوعاً من المطابقة بين اللفظ الكنائي وما يحيل عليه داخل البنية اللغوية، وهذه المطابقة هي التي حقّقت الترابط بين أجزاء النصّ ومن ثمّ تماسكه.
- تبرز أهمية الإحالة في توطيد أواصر السبك في النص، ولا سيما في بحث الموضوعات الفلسفية والفكرية والميتافيزيقية؛ فيعتمد التوحيدي حينها على تكثيف استعماله للإحالة في مقابساته، وبأنواعها المختلفة لتنويع أساليب السبك من داخل النص وخارجه، فهو يخاطب عقول سامعيه وقارئيه طارحاً بين أيديهم تجربته الفلسفية وموقفه من قضايا فلسفية كثيرة كالخالق، والخلق، والوجود، والفناء، والتدين، والتقوى، والعبادة، والتوحيد، والشرك، والأدب، والنحو، والفنون، والأخلاق، والصداقة، والصراحة، والوفاء، والإيثار، والعلوم، والمعرفة...وغيرها كثير.
- حقق الحذف في نصوص المقابسات تماسك نصها استناداً إلى ما منحه السياق الداخلي للنصّ من معرفة بالمفردات المحذوفة، وكذلك بالاعتماد على السياق الخارجي الذي يستند أساساً إلى مجموعة الأنساق المعرفية التي يحصل عليها المتلقّي من تجاربه الماضية في ضمن التفاعل الاجتماعي اللغوي، والتي هي المرجع الأساس في فهمنا للنصّ.
- حقّق الترابط الغاية النصّية بوساطة التماسك، وتقوية الأواصر فيما بين الجمل، وجعل متواليات الجمل متراصّة، وليس من طريق الإحالة أو الإشارة إلى ما سبق أو ما لحِق من مفردات أو عبارات داخل النصّ فحسب، وهذا جوهر الاختلاف بينه ووسائل التماسك الأخرى، وما كان يميّزه منها.
- بالنظر إلى كتاب المقابسات نجد أنّه قد شاع بين الباحثين والمؤرخين السمة الفلسفية له، ولما يبرع به كاتبه في هذا الصدد، ومن ثمَّ فقد ضمّنه الكثير من ثقافته الفلسفية وما يؤمن به ويعمل على وفقه؛ ولكننا إذا أجرينا نظرة فاحصة في جميع مقابساته بَانَ لنا عدم إطلاقية مثل هذا الحكم، فهو كتاب موسوعي جامع، يعالج العديد من القضايا المؤتلفة

والمختلفة في الوقت عينه، وحينما نقف عند ما يشاع عن هذا الكتاب من الصبغة الفلسفية فإنّ معنى هذا أنه يوجد ارتباط وثيق بين هذه الصفة والجماعة التواصلية الموجّه إليها الكتاب، وإنّ هذا يعني من جهة ثانية أنّ الكتاب موجّه إلى المهتمين بالفلسفة، وفنونها وأدواتها، وطرائق معالجتها القضايا المثارة في الفلسفة، ومن ثمَّ يأخذنا هذا الكلام إلى أنّ معيار القبول متحقق عند هذه الطبقة من المتلقين فحسب؛ ولكنّ الأمر على خلاف ذلك؛ فنعم: قد يصح هذا الكلام على بعض مقابساته، أو بعض فقراتها؛ ولكنّه لا يتصف بالاضطراد في جميعه.

- يُعدُّ القصد، والقبول أكثر معيارين ظهوراً في معايير النصية لوقوفهما في طرفي عملية الاتصال، المرسل والمتلقي؛ وهما يبينان كيفية تآلف العناصر المكونة للنص وإفادتها المعنى؛ ولكنهما في الوقت عينه يعجزان عن تزويدنا بحدود فصل مطلقة وراسخة تميز بين النصوص وغير النصوص في الموقف التواصلي.
- يمارس السياق وظيفة الوعاء للنص، وهو بذلك يشبه وظيفة الفلسفة التي وصفت قديماً بأنّها وعاء العلوم، فكذلك السياق بالنسبة للنص هو الحيّز الذي يُبحر فيه وينطلق إلى آفاقه الجديدة في تحقيق المعنى المراد منه.
- تبلغ أهمية سياق المقام للنصوص في عملية ربط النصّ بمجموعة الأحداث المحيطة به، فمجموع السياقات المقامية التي تحيط بالنصّ، سواء أكانت زمانية، أم مكانية؛ أسهمت معرفتها، بصورة فاعلة، في تفسير المعاني والمقاصد التي حملها النص إلى المتلقي.
- تتبدى لنا أهمية سياق المقام في تحديد البعد التداولي للنص، فرأينا كيف أثّرت السياقات المحيطة سواء: الاجتماعية، أم النفسية، أم الثقافية... إلخ، في فهمنا له والذي أعاننا عليه المعرفة المسبقة بعالمه وتحقيق الخاصية النصية من طريق ترابطه مع الأحداث المحيطة به، ومن ثمَّ تحققت عملية التواصل بتماسك أجزائه اللغوية فيما بينها دلالياً بفضل المعلومات التي يقدمها، وهذه هي الغاية النصية المنشودة من كل نصٍّ منتجٍ في عالم الإبداع البشري الذي لا ينضب؛ وبذلك تتحقق الغاية التي من أجلها تدور عجلة الإبداع فتطرح ثمارها إلينا.
- أوجدت ثنائية التناص التي تضمنتها نصوص المقابسات، والمتمثّلة بالنصوص الدينية،

والأسطورية، والشعرية، التي عملت على إثراء النصّ بالتجارب التي حوتها، والتي أسهم استدعاؤها في إيصال الأفكار التي طرحتها نصوص المقابسات إلى جماعة المتلقين.

- كان للجانب الإعلامي الذي رفدتنا به نصوص المقابسات أثر كبير في مسح تلك النصوص بميزة التشويق، ودوران عجلة البحث المستمر في سبيل الوصول إلى كامل جوانب الإعلامية التي تحملها إلينا مقابسات التوحيدي.

مصادر البحث، ومراجعه

✓ **القرآن الكريم.**

أولاً: الكتب العربية:

✓ أبو حيان التوحيدي – كتاب المقابسات، د. عبد الأمير الأعسم، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع– بيروت، دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع– دمشق، ط٣، ٢٠٠٩م.

✓ اجتهادات لغوية، د. تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م.

✓ أساس البلاغة، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) تح: محمد باسل عيون السود، منشورات دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١،١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

✓ استراتيجيات الخطاب– مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.

✓ الأسلوب والأسلوبية، د. عبد السلام المسدّي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي – ليبيا، ط٥، ٢٠٠٦م.

✓ الأسلوبية ولسانيات النص، إبراهيم خليل، ط١، المؤسسة العربيَّة للدراسات والنشر، ١٩٩٧م .

✓ إشكالات النص — دراسة لسانية نصية، جمعان بن عبد الكريم، النادي الأدبي– الرياض، المركز الثقافي العربي– الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٩م.

✓ أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية– تأسيس نحو النص ، د. محمد الشاوش، ط ١، جامعة منوبة، تونس، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م.

✓ الأصول في النحو، أبو بكر محمَّد بن سهل بن السَّراج (ت ٣٦١هـ)، تحقيق: د. عبد الحسين الفتلي، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م.

✓ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن،محمد الأمين الشنقيطي، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٦هـ.

✓ إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني (ت ٤٠٣هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر ط٣، دار

المعارف، القاهرة، د.ت .

- ✓ الاقتباس من القرآن الكريم، الثعالبي، تحقيق: د. ابتسام الصفار، دار الوفاء- المنصورة- مصر، ط١، ١٩٩٢م.
- ✓ الاقتصاد اللغوي في صياغة المفرد، د. فخر الدين قباوة، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، بيروت، ٢٠٠١م.
- ✓ انفتاح النص الروائي- النص والسياق، سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، بيروت- لبنان، الدار البيضاء- المغرب، ط٢، ٢٠٠١م.
- ✓ الإيجاز في علم المجاز، لطف الله بن محمد الغياثي الظفيري (ت ١٠٣٥هـ)، تح: محمد بركات حمدي أبو علي، دار الفكر للنشر والتوزيع، ١٩٨٩م.
- ✓ الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين أبو عبدالله محمد بن سعدالدين بن عمر القزويني (ت ٧٣٩هـ)، دار إحياء العلوم، بيروت، ط٤، ١٩٩٨.
- ✓ بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ✓ البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي(ت٧٤٥هـ)، تح: عادل أحمد الموجود و علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٣هـ — ١٩٩٣م.
- ✓ البرهان في علوم القرآن، محمد بن عبد الله الزركشي(ت ٧٩٤هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث القاهرة ، (د. ت).
- ✓ بلاغة الخطاب وعلم النص، د. صلاح فضل، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، صفر ١٤١٣هـ - أغسطس ١٩٩٢م.
- ✓ تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، تح: إبراهيم الترزي، مطبعة حكومة الكويت، ١٣٩٢هـ، ١٩٧٢م.
- ✓ التحرير والتنوير، الشيخ مُحَمَّد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.
- ✓ تحليل الخطاب، ج.ب. براون و ج يول، ترجمة د. محمد لطفي الزليطني، ود.منير التريكي، مطابع جامعة الملك سعود، د ط، الرياض، ١٩٩٨.
- ✓ تحليل الخطاب الشعري - استراتيجية التناص، د. محمد مفتاح، ط٣، المركز الثقافي العربي المغربي، ١٩٩٢م.
- ✓ التحليل اللغوي للنص - مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، كلاوس برينكر،

ترجمة: د. سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة، ط١، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٥م.

- ✓ التداوليات- علم استعمال اللغة، حافظ اسماعيلي علوي، دار الكتب الحديث – إربد، ط١، ٢٠١١م.
- ✓ التداولية عند العلماء العرب- دراسة تداولية لظاهرة ((الأفعال الكلاميّة))في التراث اللساني العربي، د. مسعود صحراوي، دار الطليعة، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.
- ✓ التعريفات، علي بن محمد الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، مكتبة لبنان، ١٩٨٥م.
- ✓ التفكير اللساني في الحضارة العربية، د. عبد السلام المسدّي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت – لبنان، ط٣، ٢٠٠٩م.
- ✓ التكرير بين المثير والتأثير، د. عز الدين علي سليم، ط٢، عالم الكتب، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٦م.
- ✓ التناص- دراسة في الخطاب النقدي العربي، د. سعد إبراهيم عبد المجيد، دار الفراهيدي للنشر والتوزيع، بغداد، ط١، ٢٠١٠م.
- ✓ التناص عند شعراء صنعة البديع العباسيين، ياسر عبد الحسيب رضوان، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ١٤٣١هـ -٢٠١٠م.
- ✓ التَّناص وتحوُّلات الخطاب الشعريّ المعاصر، د. حافظ المغربي، مؤسسة الانتشار العربي، النادي العربي، ط١، ٢٠١٠م.
- ✓ جواهر البلاغه فى المعانى والبيان والبديع، السيد احمد الهاشمي، المكتبة العصرية، ط ١، ١٩٩٩ م.
- ✓ حاشية على شرح مختصر المنتهى: حاشية على شرح العضد على مختصر ابن الحاجب فى اصول الفقه، مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازانى(ت ٧٩٣هـ)، مؤسسة الوراق، د. ط، د. ت.
- ✓ الحذف البلاغي في القرآن الكريم، مصطفى عبد السلام أبو شادي، مكتبة القرآن للطباعة، القاهرة (د.ت).
- ✓ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، آدم متز، ترجمة: محمد عبدالهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربي – بيروت، ط٥.

- ✓ الخصائص، أبو الفتح عثمان ابن جني (ت ٣٩٢هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب العلمية، د. ط، د. ت.
- ✓ الخطيئة والتكفير، عبد الله الغذامي، النادي الثقافي، جدة، ط١، ١٩٨٥م.
- ✓ دراسات في فقه اللغة العربية، السيد يعقوب بكر، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٦٩م.
- ✓ دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنيّة والدلالة، د. سعيد حسن بحيري، مكتبة الآداب القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.
- ✓ دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، ط٥، ٢٠٠٤م.
- ✓ الدلالة السياقية عند اللغويين، د. عواطف كنوش المصطفى، ط١، دار السياب للطباعة والنشر والتوزيع، لندن، ط١، ٢٠٠٧م.
- ✓ ديوان الإمام علي (عليه السلام) ط١، مطبعة الآداب، النجف، ١٩٨٠م.
- ✓ الرّد عَلى النّحاة: أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن محمد، ابن مَضَاء، ابن عمير اللخمي القرطبي (ت ٥٩٢هـ)، تح: د. محمد إبراهيم البنا، دار الاعتصام ط١، ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩م.
- ✓ الرسالة، محمد بن أدريس الشافعي (ت ٢٠٤هـ)، تحقيق أحمد محمد شاكر، المكتبة العلمية، د. ط، د. ت.
- ✓ سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨م)، مؤسسة الرسالة، د. ط، د. ت.
- ✓ شرح التسهيل، محمد بن عبد الله ابن مالك (ت ٦٧٢هـ)، تحقيق: د.عبد الرحمن السيد ود. محمد بدوي المختون، ط١، دار هجر للطباعة، مصر، ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م.
- ✓ شرح ديوان المتنبي، عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ–١٩٨٦م.
- ✓ شرح الرضي على الكافية، محمد بن الحسن الرضيّ الإستراباذي (ت ٦٨٦هـ)، تحقيق يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قان يونس، ط٢، ١٩٩٦م.
- ✓ شرح عيون الإعراب، أبو الحسن المجاشعي (ت ٤٧٩هـ)، تح: د. حنا حداد، مطبعة المنار، الأردن، د.ط، د.ت.
- ✓ شرح المفصل، يعيش بن علي بن يعيش(ت ٦٤٣هـ)، المطبعة المنيرية، مصر، د. ت.

- ✓ شرح منار الأنوار في أصول الفقه، عبد اللطيف بن الملك (ت ٨٠١هـ)، دار الكتب العلمية، د.ط، د.ت.
- ✓ الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ)، علق عليه وخرج حواشيه: أحمد حسن بسج، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
- ✓ الصداقة والصديق، أبو حيان التوحيدي (ت ٤١٤هـ)، تحقيق: الدكتور إبراهيم الكيلاني، ط١، دار الفكر المعاصر - بيروت، دار الفكر - دمشق، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- ✓ طبقات الشافعية، تاج الدين السبكي (ت٧٧١هـ)، تح: عبد البفتاح محمد الحلو، ومحمود محمد الطناحي، دار إحياء الكتب العربية، د. ط، د. ت.
- ✓ الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي (ت ٧٤٩هـ)، تحقيق: د. عبد الحميد الهنداوي، ط١، المكتبة العصريَّة، بيروت، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- ✓ ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، د. طاهر سليمان حمودة، الدار الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع، الاسكندرية، ١٩٩٨م.
- ✓ ظواهر تركيبية في (مقابسات) أبي حيان التوحيدي - دراسة في العلاقة بين البنية والدلالة، د. سعيد حسن بحيري، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.
- ✓ علم التخاطب الإسلامي — دراسة لسانية لمناهج علماء في فهم النص، محمد محمد يونس علي، دار المدار الإسلامي، ط١، ٢٠٠٦م.
- ✓ علم الدلالة، د. أحمد مختار عمر، ط٥، عالم الكتب القاهرة، ١٩٩٨م.
- ✓ علم الدَّلالة، بالمر، ترجمة: مجيد الماشطة، الجامعة المستنصرية، ١٩٨٥م.
- ✓ علم اللغة بين التراث والمعاصرة، عاطف مدكور، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٥٧م.
- ✓ علم اللغة العام، فرديناند دي سوسير، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز، مراجعة د. مالك المطلبي، دار آفاق عربية، بغداد، ط١، ١٩٨٥م.
- ✓ علم لغة النص - المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار للنشر

والتوزيع، ط٢، ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م.

- ✓ علم لغة النص النظريَّة والتطبيق، د.عزّة شبل محمّد ، مكتبة الآداب القاهرة ، ط١ ، ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م .
- ✓ علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دراسة تطبيقية على السَّور المكيَّة، د. صبحي إبراهيم الفقي، ط١، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م.
- ✓ علم اللغة النظامي – مدخل إلى النظرية اللغوية عند هاليداي، د. محمد أحمد نحلة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٤٣٠هـ–٢٠٠٩م.
- ✓ علم النص، جوليا كريستيفا، ترجمة: فريد الزاهي، ط٢، دار توبقال للنشر والتوزيع، ١٩٩٧م.
- ✓ علم النص – مدخل متداخل الاختصاصات، فان دايك ، ترجمة: د. سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، ط٥، ٢٠٠٥م .
- ✓ عيون الحكم والمواعظ، كافي الدين أبي الحسن علي بن محمد الليثي الواسطي(من أعلام القرن السادس للهجرة)، تح: حسين الحسيني البيرجندي.، قم، دار الحديث، ١٣٧٦هـ.
- ✓ غراس الأساس، ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، تحقيق: توفيق محمد شاهين، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١١هـ–١٩٩٠م.
- ✓ غرر الحكم ودرر الكلم، ناصح الدين عبد الواحد بن محمد التميمي الآمدي (ت:٥٥٠هـ)، دار الهادي، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ–١٩٩٣م.
- ✓ فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت، عبد العلي محمد بن نظام الدين محمد السهالوي الأنصاري اللكنوي (ت ١٢٢٥هـ)، تح: عبد الله محمود محمد عمر، دار الكتب العلمية، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م.
- ✓ في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٧.
- ✓ في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية – آفاق جديدة، سعد مصلوح، دار الفكر، ط١، ٢٠٠٦م.
- ✓ في النحو العربي – قواعد وتطبيق على المنهج العلمي الحديث، د. مهدي المخزومي

ط٣، ١٩٨٥م.

- ✓ قراءة النص وجماليات التلقي بين المذاهب الغربية وتراثنا النقدي، محمود عباس عبد الواحد، دار الفكر العربي، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.
- ✓ قضايا الحداثة عند الجرجاني، د. محمد عبد المطلب، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان، ط١، ١٩٩٥م.
- ✓ الكتاب، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه(ت ١٨٠هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ط ٣ ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- ✓ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (ت٥٣٨هـ)، تحق: خليل مأمون شيحة، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م.
- ✓ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علي بن حسام الدين المتقي الهندي (ت ٩٧٥هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٩م.
- ✓ لب اللباب في تحرير الأنساب، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، دار صادر – بيروت، د. ط، د. ت.
- ✓ لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (ت٧١١هـ)، تح: عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، د. ط، د. ت.
- ✓ لسانيات الخطاب - الأسلوبية والتلفظ والتداولية، صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا- اللاذقية، ط١، ٢٠١٠م.
- ✓ اللسانيات التوليدية - من النموذج ماقبل المعيار إلى البرنامج الأدنوي مفاهيم وأمثلة،، د. مصطفى غلفان، بمشاركة: د. امحمد الملاخ، ود. حافظ اسماعيل علوي، عالم الكتب الحديثة، الأردن، د. ط، د. ت.
- ✓ اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة – دراسة تحليلية في قضايا التلقي وإشكالاته، دحافظ اسماعيل علوي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٩م.
- ✓ اللسانيات – المجال، والوظيفة، والمنهج، سمير شريف استيتية، عالم الكتب الحديث- إربد، جدار للكتاب العالمي - عمان، ط ٢، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م.

- ✓ لسانيات النص- عرض تأسيسي، كيرستن آدميستك، ترجمة د. سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط١ ، ٢٠٠٩م.
- ✓ لسانيات النَّصِّ- مدخل إلى انسجام الخطاب، د. محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب، ط٢، ٢٠٠٦م.
- ✓ لسانيات النص – نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري، د. أحمد مداس، عالم الكتب الحديث- إربد، جدار للكتاب العالمي – عمان ، ط٢ ، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م.
- ✓ لسانيات النص، النظرية والتطبيق – مقامات الهمداني أنموذجاً، ليندة قيَّاس، مكتبة الآداب، القاهرة ، ط١ ، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م.
- ✓ اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي، د. أحمد محمد قدّور، دار الفكر المعاصر – بيروت، دار الفكر – دمشق، ط١، ١٤٢٢هـ — ٢٠٠١م.
- ✓ اللسانيات الوظيفية، د. أحمد المتوكل، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ط٢، ٢٠١٠م.
- ✓ اللغة والمعنى والسياق، جون لاينز، ترجمة د. عباس صادق الوهاب، مراجعة د. يوئيل عزيز، دار الشؤون الثقافيّة، ط١، بغداد، ١٩٨٧.
- ✓ مبادئ في اللسانيات، خولة طالب الإبراهيمي، دار القصبة للنشر، الجزائر، ط٢، ٢٠٠٦م.
- ✓ مباحث تأسيسية في اللسانيات، د. عبد السلام المسدي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، ٢٠١٠م.
- ✓ مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة، ميشال زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٥.
- ✓ مباحثات لسانية في ظواهر قرآنية، د. مهدي أسعد عرار، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ٢٠٠٨م.
- ✓ مجمل اللغة، أحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ)، تح: زهير عبدالمحسن سلطان، مؤسسة الرسالة ط١، ١٤٠٦ ٢ هـ – ١٩٨٦م.
- ✓ محاورة فايدروس لأفلاطون، أو عن الجمال، أميرة حلمي مطر، دار الغريب للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٠م.

- ✓ مدخل إلى علم لغة النص، فولفاج هينه مان، بيتر فيهفيجر، ترجمة : د. سعيد البحيري، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.
- ✓ مدخل إلى علم لغة النص – تطبيقات لنظرية روبرت دي بوجراند وولفجانج درسلر، د. إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد، الهيئة المصرية للكتاب، ط٢، ١٩٩٩م.
- ✓ مدخل إلى علم النص، محمد الأخضر الصبيحي، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، ١٤٢٩هـ — ٢٠٠٨م.
- ✓ مدخل إلى علم النص- مشكلات بناء النص ، زتسيسلاف واورزنياك ، ترجمة: د. سعيد حسن بحيري ، مؤسسة المختار – القاهرة ، ط ٢ ، ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م .
- ✓ مدخل إلى اللسانيات، برتيل مالبرج، ترجمة السيد عبد الظاهر، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠١٠م.
- ✓ مدخل إلى اللسانيات، د. محمد محمد يونس علي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، ٢٠٠٤م.
- ✓ المصطلحات الأساسيَّة في لسانيات النَّصِّ وتحليل الخطاب – دراسة معجمية، د. نعمان بوقرة ، عالم الكتب الحديث ، ط١، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٩م .
- ✓ المصطلحات المفاتيح في اللسانيات، ماري نوال غاري بريور، ترجمة: عبد القادر فهيم الشيباني، ط١، سيدي بلعباس الجزائر، ٢٠٠٧م.
- ✓ المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث، محمد أحمد أبو الفرج، دار النهضة العربية، ١٩٦٦م.
- ✓ معاني النحو، د. فاضل السامرائي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن، ط٢، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م.
- ✓ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ)، مطبوعات دار المأمون، مكتبة عيسى البابي الحلبي بمصر، د. ط، د. ت.
- ✓ معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة وكامل المهندس، مكتبة لبنان – بيروت، ١٩٧٩م.
- ✓ معجم المصطلحات اللغويَّة، خليل أحمد خليل ، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.

- ✓ معجم المصطلحات اللغوية والأدبية (ألماني – إنجليزي – عربي) مع كشافين بالإنجليزية والعربية، إعداد: علية عزت عيّاد، دار المريخ للنشر-الرياض. طبعة ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
- ✓ المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، دار الشروق الدولية، القاهرة، ط٤، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.
- ✓ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ)، تح: مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، د.ط، د.ت.
- ✓ مفاتيح الغيب، محمّد فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ)، ط١، دار الفكر للطباعة، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.
- ✓ مفتاح العلوم، أبو يعقوب محمد بن علي السكاكي (ت ٦٢٦هـ)، تحقيق: د. عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلميَّة، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- ✓ المقابسات، أبو حيان التوحيدي (ت ٤١٤هـ)، تح: حسن السندوبي، ط١، المطبعة الرحمانية بمصر، ١٣٤٧هـ- ١٩٢٩م.
- ✓ المقابسات، أبو حيان التوحيدي (ت ٤١٤هـ)، تح: محمد توفيق حسين، ط٢، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٩م .
- ✓ مقالات في اللغة والأدب، د. تمام حسّان، ط١، عالم الكتب، القاهرة، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م .
- ✓ المقتضب، ابو العباس محمد بن يزيد المبرد(ت٢٨٥هـ)، تحق: محمد عبد الخالق عضيمة، القاهرة، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.
- ✓ منازل الرؤية منهج تكاملي في قراءة النص، سمير شريف إستيتية، دار وائل، عمان، ٢٠٠٣م.
- ✓ منطق أرسطو، حققه وقدم له: د. عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات- الكويت، دار القلم - بيروت، ط١، ١٩٨٠م.
- ✓ من النص إلى الفعل، بول ريكور، ترجمة محمد برادة وحسان بورقية، مؤسسة عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، القاهرة، ٢٠٠١.
- ✓ ميزان الحكمة، محمّد محمّدي الرّيّ شهريّ، دار الحديث، قمّ، ١٤١٦هـ.

- ✓ نحو النص – إطار نظري ودراسات تطبيقية، عثمان أبو زنيد، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط١، ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م.
- ✓ النحو والدلالة – مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي، د. محمد حماسة عبد اللطيف، دار الشروق، ط١، ١٤٢٠هـ– ٢٠٠٠م.
- ✓ النثر الفني في القرن الرابع، زكي مبارك، مطبعة السعادة، ط٢، ١٩٣٤م.
- ✓ نسيج النص– بحث في ما يكون به الملفوظ نصاً، الأزهر الزَّنَّاد ، ط١، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٣م.
- ✓ النَّص والخطاب – قراءة في علوم القرآن، د. محمد عبد الباسط عيد، مكتبة الآداب القاهرة ، ط١ ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م .
- ✓ النص والخطاب والإجراء ، روبرت دي بوجراند، ترجمة د. تمّام حسّان، عالم الكتب القاهرة ، ط١، ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م.
- ✓ النص والخطاب والاتصال، د. محمد العبد، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، ط١، ١٤٢٦هـ — ٢٠٠٥م.
- ✓ النص والسياق – استقصاء البحث في الخطاب الدَّلالي والتداولي، فان دايك، ترجمة : عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م .
- ✓ نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية، د. مصطفى حميدة، ط١، مكتبة لبنان ناشرون، والشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان،، ١٩٩٧م .
- ✓ نظام الجملة في شعر المعلقات، د. محمود نحلة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩١م.
- ✓ نظرية التأويل – الخطاب وفائض المعنى، بول ريكور، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٣.
- ✓ نظرية التأويل التقابلي – مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب، محمد بازي منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف، دار الأمان – الرباط، ط١، ٢٠١٣م.
- ✓ نظرية التناص، جراهام ألان، ترجمة: د. باسل المسالمة، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، ط١، ٢٠١١م.
- ✓ نظرية القصد وأثرها في إظهار المعنى والإعجاز القرآني عند القاضي عبد الجبار المعتزلي،

ليلى عباس خميس، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، ديوان الوقف السني، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

- ✓ نظرية علم النص - رؤية منهجية في بناء النَّصِّ النثري، د. حسام أحمد فرج، مكتبة الآداب القاهرة، ط١، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.
- ✓ نظرية النص - من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، د. حسين خمري، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

ثانياً: الكتب الاجنبية:

- ✓ Adictionary of Linguistics and phonetics; Crystal; Black well published; (**٣**rd ed); London **١٩٩١**; S.V (text);.
- ✓ Cohesion in English; Halliday (M.A.K.) and Ruqaya Hassan; Long man; **١**st pub; New York; **١٩٧٦**.

ثالثاً : الرسائل والأطاريح الجامعية:

- ✓ الإحالة دراسة نظرية مع ترجمة الفصلين الأول والثاني من كتاب (COHESION IN ENGLISH) لـ م . أ. ك هاليداي ورقية حسن، رسالة ماجستير، شريفة بلحوت، كلية الآداب واللغات جامعة الجزائر، العام الدراسي ٢٠٠٥- ٢٠٠٦ م .
- ✓ أسماء الإشارة في القرآن الكريم – دراسة تأويلية، عمر محمد عوني النعيمي، إشراف: د. عبد الوهاب محمد علي العدواني، أطروحة دكتوراه، كلية التربية، جامعة الموصل، ١٤٣٤هـ – ٢٠٠٣م.
- ✓ التناص التراثي في "حدث أبو هريرة قال..." محمود المسعودي، زهرة خالص، رسالة ماجستير، كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر، السنة الجامعية ٢٠٠٥-٢٠٠٦م.

رابعاً: البحوث المنشورة في الدوريات والمجلات والشبكة العنكبوتية:

- ✓ اتجاهات لغوية معاصرة في تحليل النص، د. سعيد حسن بحيري، مجلة علامات، السعودية، مج ١٠، ج٣٨، ٢٠٠٠م.
- ✓ الإحالة التكرارية وأثرها في التماسك النَّصيّ بين القدامى والمحدثين، ميلود نزار، مجلة علوم إنسانيَّة، السنة السابعة، ع ٤٤، شتاء ٢٠١٠م.
- ✓ دور المعرفة الخلفية في الإبداع والتحليل (بحث)، محمد محمود، مجلة دراسات، فاس- المغرب، العدد (٦) خريف ١٩٩٢م.
- ✓ علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق – الخطابة النبوية أنموذجاً، د. نادية رمضان النجار، مجلة علوم عربية، مج٩، ع٢، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- ✓ نحو آجرومية للنص الشعري – دراسة في قصيدة جاهلية، د. سعد مصلوح، مجلة فصول، مج ١٠، الجزء العشرون، ١٩٩١م.
- ✓ نحو نظرية عربية للإحالة الضميرية دراسة تأصيلية تداولية ، ميلود نزار، مجلة علوم إنسانيَّة ، السنة السابعة، ع ٤٢، صيف ٢٠٠٩م.
- ✓ مقاربة نحو النص في تحليل النصوص، ياسين سرايعية (بحث منشور في الشبكة العنكبوتية) http://www.ta٥atub.com/t٢٥٩٠-topic

Abstract

In the name of Allah the Merciful

Praise to Allah Master of World, and Allah bless to the master of all creatures Mohammed Al-Amin and his followers

After that, my trip has passed with the lesson and study in the doctoral level.

until it reached me to the The courtyard of choice the subject of study and research methodology; Due to my interest in the modern Verbal Lesson; especially linguistics text that has identified the type of study and specialization that I want it, this is on one hand, on the other hand, Once I had and still - and remains - the interests of the Arab-Islamic heritage; especially what combines linguistic and literary lessons, and philosophical and verbal lessons, and I have found what I intend in the knowledge product, that is the Famous one of Arab-Islamic civilization, he is Abu Hayyan Al-Tawhidi in his book (quotations), was met the curriculum product studying analytical linguistic study, using all available and what is possible of Accurate tributaries of human beings science and knowledge, I mean it: linguistics text; in order to understand the language and analysis its text, up to the maximum of its purpose in represented by face of semantic and faces multiple language. With a book collector of many cultures and ideas summary of scientists across times, and this book is (quotation).

This study depended to apply the approach of linguistics according to the text represented by the seven standards

that classified by each of the D. Bogrand, and Dressler and mainly made it the basics of the text basics, and the most important components; but they went to much further, as they made it, Absence for this of any linguistic product, or of some parts of them, get it out of (the text). Has adopted the study approach selection in choosing texts of quotation, and while engaged in work on the quotation texts found that the book has editions, including what is the investigated scientifically or annotated linguistically and simplified explanation, and some are not, so, I looked at copies of all, appeared in front of me the difference in between each other, and increase and decrease of different words, and I selected the optional version made by Mr. Mohammed Tawfik Hussein in the second edition issued by the House of Arts in Beirut, one thousand nine hundred and eighty.

The thesis contains introduction and preamble and seven chapters and aconclusion.
As for the preamble has highlighted the Abu Hayyan Al-Tawhidi : his name and lineage and his birth, and then offered his production of books, then we discussed the analysis of his style in his writings, and most important what distinguished him in general, and the most important characteristic of his style in quotation, we exhibited his book by description, then we discussed the subject of the text in the language and terminology, and then linguistics text, Growing Up and comprehensible.
We discussed in the first chapter, the casting standard and specialized with internal structures of the text - grammatical ones - which is the formal means of cohesion that connects parts of the text among themselves; from Grammar: repetition, identification, referral, deletion, and

connectivity. Chapter II is worked in the cohesion, which specializes in connotation, to disclose aspects of cohesion which enjoyed by quotation s of Al-Tawhidi. The third chapter was based on the study of the purposes of the author and analysis, and what was the intention of bringing it to the recipient. We discussed in Chapter IV of the acceptability of quotation texts for recipient and its interaction with them .and achieve the characteristic of text. The fifth chapter has studied the context of the situation and all that surrounds it And what emerges from it, from about: cultural context, and psychological, social, and historical... etc. and its impact on the intended meaning. in Chapter VI focuses the highlights of intertextuality, and the extent of its prevalence in the texts, and its contribution to the text building, and the delivery of its purposes to the recipient.

The end of the chapters examine the media and its quotation contents of various levels, And the content of the ratios vary upward and fewness. Then thesis is concluded with the research work, said the most important results that we need, then proved to sources and references, which was based upon our research. It is the findings of the research:

• there are firm signs that the Al-Tawhidi did not transferred from others the Transliteration texts, but the disposal of the increases and decreases, and the correction for scientific purposes and other literary even printed with his own style, which characterized from the other, the philosophical speech becomes literary, acceptable and palatable words, and we find such a reference in the many places of Book of quotation.

• Search to find a definition of quotation, is: quotation are easy taking learned from the science of long conversations teeming with scientists councils which was attended by Al-Tawhidi

And involving, as well as the Al-Tawhidi was unprecedented in this color of prose, and any one did not write with mode after him, the quotations located within prose that his arts Characterized with Rhetoric, good drafting, as well as the quotations are talk eloquently overlaps the description with dialogue and debate that are Characterized.

• Given the quotations book we find that it has popularized among researchers and historians attribute philosophical him; But if we had a closer look at all quotations and paragraphs that we not launch such statements, it is a collected encyclopedic book addresses many of the issues combined and different at the same time, and when they stand at the rumors about this book from the philosophical dye, the meaning of this, that there is a close link between this trait and the group communication directed to the book, though this means on the other hand that the book is addressed to those interested in philosophy, the arts, and tools, and methods addressed the issues raised in philosophy; then this brings us to speak to that standard acceptance Verifier when this class of recipients only, but it is otherwise; yes: this may be true on some quotations speech, or paragraphs; but not characterized in regularity in the total.

• The importance of the context in the process of linking a series of text events surrounding it, The total contexts that surround the text, whether temporal, spatial or; contributed her knowledge, effectively, in the

interpretation of the meanings and purposes which carry the text to the recipient.
• created a bi-intertextuality, which included quotations texts, and of religious texts, and the legendary, and poetry , which has worked to enrich the experiences that contain it, which called in the delivery of shares of ideas that forward by the quotations texts to a group of recipients.

And Praise be to Allah, the Lord of the Worlds, and peace and blessings be upon the Prophet Muhammad and the pure followers.

The Republic of Iraq
Ministry of Higher Education and Scientific Research
Mustansiriya University
Faculty of Arts
Department of Arabic Language

Quotations of Abu Hayyan Al-Tawhidi
Study in Linguistics of text

Thesis submitted by Student

Ahmed Hadi Shammam

To the Council of Literature Faculty at the University of Mustansiriya
And is part of the requirements for a PhD in the philosophy of Arabic Language and Literature

Supervision

A Prof. Dr. Mohammed Sami Ahmed

May, ٢٠١٤ **Rajab, ١٤٣٥**